الدكتور محمد التيجاني السماوي

مؤتمر السقيفة

تصوير الكتاب

حسين الخزاعي

مؤتمر السقيفة

نظرة جديدة في التاريخ الإسلامي

مؤتمر السقيفة

نظرة جديدة في التاريخ الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

وقال الإمام الصادق (ع) ما أهرق محجم دم منذ توفي الرسول إلى يوم القيامة إلا في رقبة من أخرج علياً عن مقامه الذي جعله الله ورسوله له، ولو جلس علي بعد رسول الله على منصة الحكم وتولى الخلافة لما بقي غير مسلم على وجه الأرض. ولعاش الناس أجمع في أمان واطمئنان....

من شعر للقاضي أبي بكر بن أبي قريعة:

يا من يسائل دائباً ... عن كل معضلة سخيفة

لا تكشفن مغطى ... فلربما كشفت جيفة

ولرب مستور بدا ... كالطبل من تحت القطيفة

إنّ الجواب لحاضر ... لكنني أخفيه خيفة

لولا اعتداء رعية ... ألقى سياستها الخليفة

وسيوف أعداء بها ... هاماتنا أبداً نقيفة

لنشرت من أسرار آل ... محمد جملاً طريفة

تغنيكم عمّا رواه ... مالك وأبو حنيفة

وأريتكم أنّ الحسين ... أصيب في يوم السقيفة

ولأي حـــال لحدّت بـالـليـل فـاطـمـة الـشـريـفـة

ولما حـمـت شـيـخـيـكـم عـن وطـئ حـجـرتـهـا المنيـفـة

أوّهْ لـبـنت مـحـمـد مـاتـت بـغـصـتـهـا أسـيـفـة

هذه القصيدة تلخيص بسيط عن أحداث هذا الكتاب الذي بين يديك ولكن الكتاب لم يخف أحدا ونشر الأسرار التي تغني أي قارئ عاقل عن مالك وأبو حنيفة.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين سيدنا ونبينا أبي القاسم الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين الذي أذهب الله عنهم الرجس وجعلهم قدوة للعالمين ... اللهم وفقنا وجميع المشتغلين للعلم والعمل الصالح برحمتك يا أرحم الراحمين.

وبعد عندما نجد أن التاريخ الإسلامي - الذي تهمنا قراءته قراءة صحيحة - لاتزال حقائقه ملفوفة بخرق بالية عتيقة. وممنوع على الشرفاء أن يقرأوا أو يعرفوا سوى الذي دوَّنه الإعلام الرسمي للملوك والخلفاء الذين تسنموا ذروة الخلافة والملك.

كان علينا نحن الشرفاء أن نكون على مستوى المسؤولية - نقول للحق هذا حق وللباطل هذا باطل فالأسود لا يمكن أن يتحول إلى أبيض إلا في نظر الأغبياء والمغفلين والذين على أعينهم غشاوة لا يبصرون بها....

ولكن الحقيقة التي يحاولون إبعادها عن الناس لا تنام طويلاً ولا تدوم في خبائها بل لا بد وأن تظهر، وهذا غاية ما نتمناه في بحثنا هذا ولا نروم غيره وليس هدفنا تجريح فلان أو فلان لأن التاريخ الذي حملهم بآثامهم وأعمالهم طيلة هذه القرون كفيل بأن يسقطهم يوماً لأنهم أصبحوا على ظهره عبئاً ثقيلاً.. وعليه أن يتجاوز دورهم ليكتب لنا سيرة الطهر والنقاء سيرة العظماء والشرفاء الذين منحوا الناس والزمان كل عطاء وكل خير دونما ثمن ولا مصلحة ولا هدف....

هؤلاء الرجال هم الذين تحكموا بالقرار والتاريخ وأرسلوا لنا تلك الأخبار

المضللة كي يفصلوا بيننا وبين الدعوة الإسلامية من جهة ويعيدوا مجد القبيلة والجاهلية من جهة أخرى ولعلّ دراستنا لتاريخهم نستطيع أن نقترب منهم أكثر وتزداد معرفتنا بهؤلاء الذين كانوا سبب كل ما نعانيه اليوم من تمزق وتشرذم وتضليل فلنحاول أن نرفع الغطاء عن هؤلاء - أصحاب الانقلاب - كي يظهروا على حقيقتهم فمن كان يحمل في سيرته التاريخية نقاء وصفاء وطهراً وإيماناً فهو الصحابي الجليل الذي يستحق منا كل ثناء وتقدير .... ومن كان عكس ذلك فلتسقط حصانته ويدان أمام الرأي العام مهما كان له من الفضائل المزعومة التي زورها له الأذناب وبهذه الطريقة قد نتوصل إلى تصفية النفوس من أدران الجهل والتبعية.... وتنقية القلوب من محبة الذين ليس لهم في تراث الإنسانية مقام.

وعندما ننظر في كلام رسول الله (ص) وإخباره بتلك الفتنة التي ستجري بعده ونحن نعلم من الذي قام فيها وناصرها وأيدها وجعلها سنة متبعة - لا بد والحالة هذه من أن نضع النقاط على الحروف نصرة للحق ودفعاً للظلم.... لعلّ في ذلك كشفاً لدولة الانقلابين وعسى أن يهدي الله قوماً آمنوا بقداسة تلك العصابة إمعاناً في التضليل ومشياً على سنة الآباء والأجداد وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً كما قال تعالى:﴿ **أنَّا وجدنا آباءنا على أمة وأنَّا على آثارهم مقتدون** ...﴾ وفي هذه الآية ذم لا حمد فيه لمن يتبع مذهب الآباء عن غير علم ولا بصيرة ولا هدى... وطالما بيّن الرسول الأعظم أنَّ الأمة ستغدر بعلي (ع) بعده فما هو السبب الذي يجعلني وغيري نتبع سنة من أحدثوا في الدين وغيروا من معالمه وأساءوا إلى مُحكمه قبل متشابهه اللهم إلا أن تكون السياسة الظالمة هي التي دفعتني إلى المساومة على الدين الحق واتباع مذهب الضالين من هذه الأمة...

جاءت السقيفة رداً على ما أوصى به الرسول لسيدنا علي (ع) وتأكيداً على مخالفتهم له علانية بعد أن كان سراً.... وإذا كان هؤلاء كبار الصحابة هم الذين ابتدعوا مخالفة الرسول وتناسوا تعاليمه ووصاياه فكيف ندين لهم ونعظمهم وهم خالفوا الإسلام مخالفة صريحة لا تأويل فيها...

وكلما نظرت وفكرت فيما جرى أسائل نفسي ترى هل حقاً حدث ما نقرأ

ونسمع؟ هل حقاً افتعل الصحابة الكبار هذه الأحداث لنيل المطامع والتربع على عرش الخلافة أين كان الدين منهم عندما تآمروا... بل كيف فكروا أن يسقطوا البناء الكبير الذي قضى الرسول أعواماً وهو يبني صرحه؟

كيف انخلعت عنهم مسوح الإيمان وأردية التقوى؟ بل كيف ظهروا للناس بوجوه جديدة لم يعرفوهم بها من قبل؟ - أين تعاليم الرسول؟ أين وصاياه؟

وكل هذا دعاني إلى التساؤل مرات ومرات إذا كان هذا فعلهم وهذه مؤامراتهم فكيف وصلت إلينا صورهم في التاريخ العام وهي مزدانة بأبهى الصور وأجمل الفضائل ومن كان له مصلحة في تزيين هذه الصور وإيصالها على هذا النحو الذي نراه اليوم ولماذا الخوف من الجهر بحقيقة الأحداث طالما أننا مسلمون والواجب علينا أن نكون مع الحق لا ضده - والساكت عن الحق شيطان أخرس....

لماذا تعمد الجم الغفير أن ينصهر في أدوار هذه المسرحية الهزيلة الخطيرة... لا شك أنَّ هناك وسائل إعلام تضليلية ورجال دين دأبوا على تنفيذ السياسة الأموية...

فلهذا قررت أن أجند نفسي وقلمي لنصرة الحقيقة وأن أبتدأ كتابة التاريخ الإسلامي بحلة جديدة لكي أظهر تآمرهم على الرسول وآل الرسول...

وأبتدأ بالمرحلة الأولى من حادثة حجة الوداع لأن المؤآمرة حسب اعتقادي بدأت بعد حجة الوداع وبعد تنصيب الرسول (ص) للإمام علي(ع) كخليفة له يوم الغدير وبذلك عرف الطامعون في الرئاسة أن ليس أمامهم إلا التمرد والمعارضة وبذلك تستقيم الأحداث التي يتناولها كتابنا هذا - التي بدأت بمعارضة الرسول (ص) في كل أوامره من كتابة الكتاب إلى تأمير أسامة إلى عدم الذهاب في الجيش الذي عبأه رسول الله (ص) بنفسه وكذلك الأحداث التي أعقبت وفاته من حمل الناس على البيعة بالقوة وتهديد المتخلفين بالحرق وفيهم علي وفاطمة والحسنين، وحبس الصحابة لئلا يتحدثوا بأحاديث النبي إلى قتل الصحابة الذين امتنعوا عن أداء الزكاة لأبي بكر لأنه ليس هو الخليفة

الذي بايعوه على عهد نبيهم. إلى اغتصاب حق فاطمة الزهراء من فدك والإرث وسهم الخمس وتكذيبها في دعواها إلى إبعاد الإمام علي عن كل مسؤولية وتولية الفسّاق والمنافقين من بني أمية على رقاب المسلمين إلى منع الصحابة من التبرك بآثار الرسول ومحاولة محو اسمه من الآذان إلى إباحة مدينته المنورة للجيش الكافر يفعل فيها ما يشاء وحرقه وقتل الصحابة في داخله إلى قتل عترة الرسول (ص) وسبهم ولعنهم وحمل الناس على ذلك- إلى قتل وتشريد من يحب أهل البيت ويتشيع لهم إلى أن أصبح دين الله لعباً وهزؤاً والقرآن يُمزّق ويعبث به....

وقد تبلغ بنا الجرأة بحيث نسأل التاريخ عن هؤلاء الأشخاص الذين لعبوا هذه الأدوار لمصلحة من صيغت هذه الأحداث بهذا الشكل؟ وهل كانت هذه المؤامرة وهذا الانقلاب مجرد طمع بالخلافة فقط دون أن يكون باعثهم الحقد على آل البيت بما قتل سيدنا علي من أهلهم في سبيل الإسلام.... ونتساءل هل إن التاريخ سيكون أكثر إشراقاً وتطوراً فيما لو حملهم علي على جادة الحق - ولكننا نشهد من الفضيلة والقيم ما لا نحلم برؤيته في وقتنا هذا وفي عصرنا اليوم...

أمّا وقد أصبحنا في ظل الإسلام شيعاً وفرقاً وطوائف وأحزاب وشعب وكل واحدة تدعي أنها مع الإسلام وأنها هي الفرقة الناجية.... لا أغالي إذا قلت إنّ ما نعانيه اليوم لم يكن سوى حصاداً لزراعة الأمس ونتيجة حتمية لغصب الخلافة وصرف الأمر عن صاحبه الشرعي...

وهذا الكتاب ربما سيكون مع أخوته لبنة نضعها في مدماك الحقيقة في سبيل نصرة أهل الحق لأنني لست سوى خادم للحقيقة يرسم وجهها ويوصلها إلى أهلها بيضاء نقية. فإياك أيها القارئ الكريم أن تأخذك العصبية القبلية أو الحمية الجاهلية إذا أنت سمعت أو قرأت ما يتنافى مع عقيدتك ومبدأك قبل أن

تحقق وتدقق حتى تتجلى لك الأمور وتنكشف لك الحقائق كما هي عليه في واقعها وحقيقة أمرها فلعل الحق في خلاف ما أنت عليه فإياك أن تنحرف عن الحق أينما كان ولو خالف ما عليه أهلك وجيرانك إذا كانوا على غير الحق أو ابتغوا غير العدل والإنصاف فإنما هي نفس واحدة فلا تفرط في حفظها وبيعها بالتوافه والغرور فتقع بالخسران الذي لا يجبر والبلاء الذي لا يطاق والعذاب الذي لا يغني ولا يزول أبداً فعليك بالتأمل والتمهل والتأني والتروي فلعلَّ الله أن يمنَّ عليك ويشملك بلطفه وعنايته ويلحظك بعطفه وحنانه... والله تعالى أسأل تمام النعمة والهداية لي وللجميع الذين يتشوقون إلى معرفة الحقيقة والصدق

والله ولي التوفيق.



حجة الوداع .. غديرخم

الرسول (ص) في آخر رحلة يؤم الناس إلى الحج، والناس معه ينتظرون كل حركة من فعل أو قول لتكون سنة يقتدى بها ومثالاً يحتذى به - أتموا الحج وقضوا المناسك وهم في طريق العودة إلى المدينة ولما انتهى إلى مكان قريب من الجحفة بناحية رابغ وقبل أن يتفرق الناس كل إلى ناحيته نزل في ذلك المكان في الصحراء على غير ماء وكلأ وبعد أن أنزل الله عليه **﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾** فعند ذلك لم ير بداً من تنفيذ ما أمره به الله سبحانه، لا سيما وقد ضمن له العصمة من الناس... وبالطبع لا بد وأن يكون هذا الأمر الذي يشدد الله على تنفيذه وأمر بذلك رسوله بهذا الأسلوب الذي يشكل إنذاراً له بأنّه إذا لم يفعل يكون وكأنّه لم يبلغ رسالة ربه هذا الأمر لا بدّ وأن يكون مرتبطاً بمصير الرسالة ومستقبلها ولا بدّ وأن يصطدم مع ذلك بأطماع جماعة من المسلمين ومخططاتهم كما يشعر بذلك قوله: **والله يعصمك من الناس** وتقرير العصمة هذا جاء حتماً للقول الفصل بأن لا بد من التبليغ لأنّه يقرر حقيقة دينية ثابتة وبدون الوصول إلى هذه النقطة كأنّ الرسول لم يفعل شيئاً - فكل ما بلغ وهذّب وبشّر - إذا لم يقم بهذا التبليغ - فكأنّه لم يفعل شيئاً لنرى مع الرسول ما هذا الركن الأساسي الذي أصبحت الدعوة الإسلامية بكاملها مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً ما لم يتم هذا التبليغ تبقى - **والعياذ بالله** - دعوة الرسول(ص) ناقصة...

وروى ابن كثير في بدايته عن زيد بن أرقم أنّ النبي (ص) لما رجع من حجة الوداع ونزل غديرخم أمر بدوحات فقمن ثم قال: كأني قد دعيت فأجبت إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ثم قال: الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن ومؤمنة وأخذ بيد علي (ع) وقال: من كنت مولاه فهذا علي وليه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وأضاف إلى ذلك في البداية والنهاية أن الراوي قال: قلت لزيد بن أرقم أنت سمعته من رسول الله، فقال ما كان في الدوحات أحد إلا رآه بعينه وسمعه بأذنه....

وروى ابن كثير أيضاً عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب وجاء في رواية البراء أنّ عمر بن الخطاب - بعد أن فرغ النبي من خطابه - وقال له: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب لقد أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة.... وعلى أي الأحوال فقد روى حديث الغدير بنصه الذي ذكرناه كل من ابن ماجة في صحيحه وأحمد في مسنده والحاكم في مستدرك الصحيحين بطرق مختلفة والسيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾.

وقد روى حديث الغدير بكامله صاحب السيرة الحلبية في سيرته وعقب عليه أنه من الأحاديث الصحيحة ولا يلتفت لمن قدح في صحته كأبي داود وأبي حاتم الرازي.

وروى المفيد في إرشاده أنّ النبي (ص) بعد أن انتهى من خطابه أفرد لعلي (ع) خيمة وأمر المسلمين بأن يدخلوا عليها فوجاً فوجاً ويسلموا عليه بأمرة المؤمنين ففعل الناس ذلك كلهم وأمر أزواجه وسائر نساء المؤمنين ممن معه أن يفعلن ذلك، وقال له عمر بن الخطاب يوم ذاك بخ بخٍ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة...

وجاء حسان بن ثابت يستأذن أن يصف موقفه من علي في ذلك اليوم فأذن له فوقف على مرتفع من الأرض وتطاول المسلمون لسماع كلامه فأنشأ يقول:

يناديهم يوم الغدير نبيهم   بخمٍ واسمع بالنبي مناديا

وقال فمن مولاكم ووليكم   فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا

إلهك مولانا وأنت ولينا   ولن تجدن منا لك اليوم عاصيا

فقال له قم يا علي فإنني   رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

فمن كنت مولاه فهذا وليه   فكونوا له أنصار صدق مواليا

هناك دعاهم اللهم وال وليه   وكن للذي عادى علياً معاديا

فقال له النبي (ص) لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك ونصّ جماعة على أنه لما انتهى النبي من خطابه أنزل الله عليه ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ (المائدة 3).



عقبة الدباب

قال بريدة فلما خرجنا من خيمة المبايعة سمعت بعض أولئك الذين أمروا بالسلام على أمير المؤمنين يقول لصاحبه - وقد التفت بهما طائفة من الجفاة البطاء عن الإسلام من قريش - أما رأيت ما صنع محمد بابن عمه من علو المنزلة والمكان ولو يستطيع والله لجعله نبياً فقال له صاحبه امسك لا يكبرن عليك هذا الأمر فلو أنّا فقدنا محمداً لكان فعله هذا تحت أقدامنا.... وفعلاً بدأوا بالتخطيط لاغتيال سيدنا محمد من أجل إزاحة الأمر عن سيدنا علي(ع) فاجتمع بعد خطبة النبي (ص) في حجة الوداع[1] أربعة عشر رجلاً تسعة من قريش هم أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح ومعاوية وعمرو بن العاص وخمسة من غيرهم هم: أبو موسى الأشعري والمغيرة بن شعبة وأوس بن الحدثان وأبو هريرة وأبو طلحة الأنصاري.... ووافقهم بعد أن اطلع على مؤامرتهم - سالم مولى أبي حذيفة.... وقرروا اغتيال الرسول في عقبة هرش الدباب وإليك الحادثة. قال حذيفة : سار رسول الله بعد واقعة الغدير باقي يومه وليلته حتى إذا دنا والمسلمون من عقبة هرش (الدباب) تقدمه القوم فتواروا في ثنية العقبة وقد حملوا معهم دباباً وطرحوا فيها الحصى.....

فقال حذيفة: فدعاني رسول الله (ص) ودعا عمار بن ياسر وأمره أن يسوقها (أي الناقة) وأنا أقودها حتى إذا صرنا رأس العقبة ثار القوم من ورائنا

1- وجاء في بعض الأخبار أن حادثة الاغتيال هذه كانت بعد غزوة تبوك.

ودحرجوا الدباب بين قوائم الناقة فذعرت وكادت أن تنفر برسول الله (ص) فصاح بها النبي أن اسكني وليس عليك بأس فأنطقها الله تعالى بقول عربي مبين فصيح فقالت: والله يا رسول الله لا أزلت يداً عن مستقر يد ولا رجلاً عن موضع رجل وأنت على ظهري، فتقدم القوم إلى الناقة ليدفعوها فأقبلت أنا وعمار نضرب وجوههم بأسيافنا وكانت ليلة مظلمة فزالوا عنا وآيسوا منا مما ظنوا ودبروا [2] فقلت يا رسول الله من هؤلاء القوم الذين يريدون ما ترى فقال(ص) يا حذيفة: هؤلاء المنافقون في الدنيا والآخرة فقلت ألا تبعث إليهم يا رسول الله رهطاً فيأتوا برؤوسهم فقال إن الله أمرني أن أعرض عنهم فأكره أن يقول الناس أنه دعا أناساً من قومه وأصحابه إلى دينه فاستجابوا فقاتل بهم حتى إذا ظهر على عدوه أقبل عليهم فقتلهم ولكن دعهم يا حذيفة فإن الله لهم بالمرصاد وسيمهلهم قليلاً ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ...

فقلت ومن هؤلاء القوم المنافقون يا رسول الله أمن المهاجرين أم من الأنصار فسمّاهم لي رجلاً رجلاً فعرفتهم وعددهم أربعة عشر رجلاً تسعة من قريش وخمسة من سائر الناس...

ولو حاولنا قراءة هذه الرواية قراءة عصرية محايدة لكي نتساءل عن الغاية والسبب وما المشروع المطروح مقابل ما بلّغ الرسول (ص) لوجدنا أن هؤلاء القوم جدَّ في نفوسهم حقد دفين حملوه وكبر معهم يوماً بعد يوم فكل يوم يأتي محمد(ص) بفضيلة جديدة يتوج بها مناقب علي (ع) فتضج قلوبهم وتصرخ نفوسهم غيظاً وحقداً على الدين والرسالة والرسول وقد أجمعوا رأيهم على أن يتخلصوا من محمد في الطريق ويعزلوا علياً عن الخلافة فتخلوا لهم الساحة فينتهزوا الفرصة في استخلاف ما يشاؤوا من بينهم ولكن الله نجّى محمداً من كيدهم...

ونتساءل إذا كان هؤلاء رأوا في نصب علي خليفة للمسلمين بعد محمد(ص) ظلماً لهم لماذا لم يناقشوا سيدنا محمد (ص) في هذا الأمر مع

2- رواية حذيفة بن اليماني رواها صاحب البحار في مجلد 28 ص99

أنهم سألوه هل هذا الأمر من عند الله قال لهم أنه من الله عز وجل وطالما أنهم عرفوا أنّه ليس من عند الرسول تفضيل علي لماذا قاموا بهذا العمل الشائن ولكن عقولهم وقلوبهم البعيدة عن الإيمان لم تكن تنظر إلى الإمامة على أنّها منصب ديني من قبل الله ولكنها حسب مفهومهم ليست سوى مركز سياسي دنيوي أراد محمد أن يخرجه منهم ليقدم فيه ابن عمه وصهره وقائد جيشه علي (ع) ...

إذن فلنتابع القراءة لأنَّ هناك في زوايا التاريخ الكثير من الأحداث والروايات مما خفي وطمست معالمه وآثاره ونحن علينا أن نفتح للحقيقة مجرى تسير من خلاله إلى إفهام الناس علّها تفتح في عقولهم نافذة يدخل نور الحقيقة إليها فيتحرروا من عبادة الرجال ويتحرر فكرهم من تبعية الأوائل الذين لو وضعوا في ميزان الفضيلة لم يخرج منهم في هذا المضمار إلا قليلاً.

وبعد هذه الحادثة (عقبة الدباب) اجتمع بهم الرسول ولوح كثيراً ونوّه بأن هناك في مجلسي هذا من المنافقين الذين يضمرون لي ولكم الشر... وسيدنا حذيفة كما أسلفنا قد عرفهم واحداً واحداً وقد أمرهم الرسول أن لا يجتمع ثلاثة مع بعضهم فخالفوه أيضاً وراحوا يتناجون مع بعضهم ويتساءلون هل عرف الرسول بجريمتهم - هل عرف أشخاصهم؟ وإذا كان عرفهم لماذا لم يعاتبهم أو يعاقبهم؟ أو يظهر للناس نواياهم ومواقفهم... ولكنهم اجتمعوا هذه المرة ليخططوا من جديد ويحكموا المؤامرة كي لا تفشل كسابقتها وقد اتفقوا مع بعضهم كي يتلاقوا في الكعبة ويكتبوا صحيفة يتعاهدون من خلالها ان يعزلوا علياً عن الأمر ويستأثروا دونه في الحكم وكانوا كلهم موجودون أضف إلى سالم مولى أبي حذيفة- إذ كان يكنّ البغض لعلي (ع) وكتبوا الصحيفة وأصبحت كعهد يلتزمون به وقد كتبها سعيد بن العاص الأموي باتفاق منهم وأول بنود هذه الصحيفة النكث لولاية علي، ويؤول الأمر إلى أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسالم معهم[3] كانت هذه الأفكار الشيطانية تحاك في حياة النبي (ص) نبي الأمة ورسول الرحمة الذي أتى مبشراً ونذيراً للعالمين

3- راجع بحار الأنوار مج 28 ص101

فنبذوا كلامه وراء ظهورهم وتآمروا عليه وأرادوا اغتياله فكيف تستطيع أن تحكم ببراءة أحدهم وهو ملوث اليدين والقلب واللسان وإذا كانت هذه اعمالهم فلماذا يبقى الناس مغمضين أعينهم عن حقيقتهم وإليك قارئي العزيز هذه الصحيفة السوداء التي ختموا بها اتفاقهم ونفذوه عاجلاً وهي هذه:

الصحيفة:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا مااتفق عليه الملأ من أصحاب محمد رسول الله (ص) من المهاجرين والانصار الذين مدحهم الله في كتابه على لسان نبيه اتفقوا جميعاً بعد أن اجتهدوا في رأيهم وتشاوروا في أمرهم وكتبوا هذه الصحيفة نظراً منهم إلى الإسلام وأهله على عابر الأيام وباقي الدهور ليقتدي بهم من يأتي من المسلمين بعدهم.

أما بعد فإنَّ الله بمنّه وكرمه بعث محمداً (ص) رسولاً إلى الناس كافة بدينه الذي ارتضاه لعباده فأدى من ذلك وبلّغ ما أمره الله به وأوجب علينا القيام بجميعه حتى إذا أكمل الدين وفرض الفرائض وأحكم السنن اختار الله له ماعنده فقبضه إليه مكرماً محبوراً من غير أن يستخلف احداً بعده [4] وجعل الاختيار الى المسلمين [5] يختارون لأنفسهم من وثقوا برأيه ونصحه لهم وإنَّ للمسلمين في رسول الله أسوة حسنة قال الله تعالى:﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**...﴾ وإنَّ رسول الله لم يستخلف أحداً لئلا يجري ذلك في أهل بيت واحد[6] إرثاً دون سائر المسلمين ولئلا يكون دولة بين الأغنياء منهم ولئلا يقول المستخلف إنَّ هذا الأمر باق في عقبه من والد الى ولد إلى يوم القيامة والذي يجب على المسلمين عند مضي

4- في هذه الصحيفة يشيرون إلى نكران تبليغ الرسول بالولاية لعلي (ع) وهذا عين الجهل والجحد والإنكار إذ لو صح ما يقولون ما كانت جميع الأنبياء أوصت إلى أوصيائها من بعدها إذ كان لكل نبي وصي يبلغ عنه الأمانة ويؤدي عنه الرسالة.

5- يشيرون بهذه المقولة لقوله تعالى واجعلوا الأمر بينكم شورى، طرحاً لأوامر الرسول.

6- قال رسول الله (ص) يخلفني علي (ع) وأحد عشر إماماً من ولده، وفي صحيفتهم جحد لذلك.

خليفة من الخلفاء أن يجتمع ذووا الرأي والصلاح فيتشاوروا في أمورهم[7] فمن رأوه مستحقاً لها ولوه أمورهم وجعلوه القيم عليهم فانّه لايخفي على أهل كل زمان من يصلح منهم للخلافة فإذا ادعى مدع من الناس جميعاً أنَّ رسول الله (ص) استخلف رجلاً بعينه ونصبه للناس ونَصَّ عليه باسمه ونسبه فقد أبطل في قوله وأتى بخلاف مايعرفه أصحاب رسول الله وخالف على جماعة المسلمين.

وإن ادعى مدّع أن خلافة الله إرث وإنَّ رسول الله (ص) يورث فقد أحال في قوله لأنَّ رسول الله قال: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة[8] وإن ادعى مدع أنَّ الخلافة لا تصلح الا لرجل واحد من بين الناس وأنها مقصورة فيه ولا تنبغي لغيره لأنها تتلو النبوّة. فقد كذب لأنَّ النبي(ص) قال أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.... وإن ادعى مدّع أنه مستحق للخلافة والإمامة بقربه من رسول الله (ص) ثم هي مقصورة عليه وعلى عقبه يرثها الولد منهم عن والده ثم هي كذلك في كل عصر وزمان لاتصلح لغيرهم ولا ينبغي أن يكون لأحدٍ سواهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فليس له ولا لولده وإن دنا من النبي نسبه لأنَّ الله يقول وقوله القاضي على كل أحد ﴿**إنَّ أكرمكم عند الله اتقاكم**﴾وقال رسول الله (ص) إنَّ ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم وكلهم يد على من سوّاهم.... فمن آمن بكتاب الله وأقرَّ بسنة رسول الله فقد استقام وأناب وأخذ بالصواب ومن كره ذلك من فعلهم فقد خالف الحق والكتاب وفارق جماعة المسلمين فاقتلوه فإنَّ في قتاله صلاحاً للأمة وقد قال رسول الله (ص) من جاء إلى أمتي وهم جميع ففرقهم

7- عندما يتناقض الحديث مع بعضه، يشعرك بالسخرية، وتحس أنه مهزول تماماً. وفي معزل عن الحقيقة والواقع، فأين المشورة في خلافة أبي بكر وأين هم ذوو الرأي والصلاح، وكلنا يعلم كيف تمت بيعة أبي بكر بالقوة والبطش. ألم يزكها عمر بوصفه لها عندما قال: بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها، فمن عاد لمثلها فاقتلوه... فحتى بنصوص صحيفتهم لم يلتزموا، فكيف يلتزمون بأمر الله ورسوله.

8- وهذا يفسر لنا كيف ابتزوا بضعة الرسول حقها بناء على هذا الحديث الذي اتفقوا عليه في صحيفتهم.

فاقتلوه واقتلوا الفرد كائناً من كان من الناس فإنَّ الاجتماع رحمة والفرقة عذاب ولا تجتمع أمتي على الضلال أبداً وأنَّ المسلمين يد واحدة على من سواهم وأنَّه لا يخرج من جماعة المسلمين الاَّ مفارق ومعاند لهم ومظاهر عليهم أعدائهم فقد أباح الله ورسوله دمه وأحل قتله[9]. وكتب سعيد بن العاص باتفاق ممن أثبت اسمه وشهادته آخر هذه الصحيفة سنه عشرة من الهجرة والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وسلم .... ثم دفعت الصحيفة إلى أبي عبيدة بن الجراح فوجه بها إلى مكة فلم تزل الصحيفة في الكعبة مدفونة إلى أوان عمر بن الخطاب فاستخرجها من موضعها[10].

هذه محتويات الصحيفة – وقد عُمل بها حتى خلافة عمر- فلنحاول قراءتها بعيداً عن السرد التاريخي لنخرج من طور الرواية والأخبار إلى طور التحقيق ومعالجة طبيعة وجودها كدستور اتخذ هدفاً لمناوأة الرسول وأهل بيته(ع).

وقد يستغرب القارىء مثل هذه الحقائق وهل يمكن أنَّ هولاء القادة الكبار من الصحابة الأعلام تخرج عنهم مثل هذه العداوة والبغضاء لماذا وكيف ولأية غاية؟ هل ردّتهم هذه وليدة الساعة أم أنها قديمة؟ وأسبابها واضحة وهي إفراغ الدعوة المحمدية عن أهدافها السامية بخروج صريح عن النص والأمر. وقد آثروا أن يستأثروا بالأمر قبل أن يتمم الرسول دعوته – بتنصيب علي خليفة – فجاءت الصحيفة السوداء ردعاً لأوامر الرسول وضرباً للصف الإسلامي كي يستفرد هؤلاء بالرأي والقرار....

وقد فشلت مؤامراتهم الأولى- عندما حاولوا اغتيال الرسول في عقبة الدباب- واستمرت المعركة في الخفاء- لاسيما وأنَّ الرسول (ص) كان مصمماً على تبليغ الدعوة إلى نهايتها...

9- وهذا البند الصريح الذي أثبتوه وجد خصيصاً لإدانة سيدنا علي (ع) لأنهم عرفوا بأنّه سيقف مطالباً بحقه في الإمامة والخلافة – فلذلك سينفرد بالرأي والقرار ولهذا أباحوا قتل كل من انفرد برأيه ولو كان مصيباً كسيدنا علي (ع).

10- راجع بحار الأنوار ص 103 مج 28

ولما عاد الرسول (ص) من سفره نزل منزل أم سلمة زوجته فأقام شهرا لاينزل منزلاً سواه من منازل أزواجه كما كان يفعل من قبل... فشكت عائشة وحفصة إلى أبويهما، فقالا لهنَّ: إنا نعلم لمَ صنع ذلك ولأي شيء، امضيا إليه فلاطفاه في الكلام وخادعاه عن نفسه فإنكما تجدانه حيياً كريماً فلعلكما تسلاّن ما في قلبه وتستخرجان سخيمته. وكان أبو بكر وعمر يريدان أن يرسلا عائشة وحفصة كي تتوسطا لهما بعد تلك الفعلة الشنيعة... ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد بل بقي الرسول مستيقظاً لهم ومتنبهاً لما يفعلون....



جيش أسامة

قال ابن أبي الحديد: لمّا مرض النبي (ص) مرض الموت دعا أسامة بن زيد بن حارثة فقال سر إلى مقتل أبيك فاوطئهم الخيل فقد وليتك على هذا الجيش، وإن أظفرك الله فاقلل اللبث وبث العيون وقدِّم الطلائع فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلاً كان في ذلك الجيش منهم أبو بكر وعمر فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على جلة المهاجرين والأنصار. فغضب رسول الله (ص) لما سمع ذلك، وخرج عاصباً رأسه فصعد المنبر وعليه قطيفة فقال أيها الناس ما مقالة بلغتني من بعضكم في تأميري أسامة فقد طعنتم في تأميري أباه وأيم الله إنه كان لخليقاً بالإمارة وابنه من بعده لخليق بها وإنهما لمن أُحب الناس إليّ فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم... ثم نزل ودخل بيته، وجاء المسلمون يودعون رسول الله (ص) ويمضون إلى عسكر أسامة بالجرف. وثقل رسول الله (ص) واشتدَّ ما يجده فارسل بعض نسائه إلى أسامة وبعض من كان معه يعلمونهم ذلك فدخل أسامة من معسكره والنبي (ص) مغمور وهو اليوم الذي لدّوه فيه، فطأطأ أسامة عليه فقبله، ورسول الله قد سكت فهو لا يتكلم فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة كالداعي له ثم أشار إليه بالرجوع إلى عسكره والتوجه لما بعثه فيه... فرجع أسامة إلى عسكره. بعد ذلك أرسل نساء الرسول (عائشة وحفصة) إلى أسامة يأمرنه بالدخول ويقلن إنَّ رسول الله (ص) قد أصبح بارئاً فدخل أسامة من معسكره يوم الاثنين الثاني من شهر ربيع الأول- وقيل في ثمان وعشرين من شهر صفر- فوجد رسول الله (ص) مفيقاً فأمره بالخروج وتعجل النفوذ وقال اغد على بركة الله وجعل يقول: أنفذوا بعث أسامة ويكرر ذلك وفي خبر جعل يقول: لعن

الله من تخلف عن جيش أسامة، فودّع رسول الله (ص) وخرج ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة فلما ركب جاءه رسول فقال: إنّ رسول الله يموت، فأقبل ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة فانتهوا إلى رسول الله حين زوال الشمس من هذا اليوم وهو يوم الاثنين وقد مات (ص) واللواء مع بريدة بن الخصيب... فدخل باللواء فركزه عند باب رسول الله (ص) وهو مغلق وعلي (ع) وبعض بني هاشم مشتغلون بإعداد جهازه وغسله[1]

وهناك رواية أخرى أوسع وأشمل وأدل على مؤامراتهم وإليكها قال: ولم يطل بالمسلمين المقام بعد رجوعهم من حجة الوداع حتى أمر بتجهيز جيش لعله من أكبر الجيوش التي عرفتها المدينة من قبل بدليل أنه حشد في ذلك الجيش وجوه المهاجرين كأبي بكر وعمر وعثمان وأبو عبيدة وغيرهم من المهاجرين والأنصار كما تنص على ذلك المؤلفات في السيرة والتاريخ وأمر على ذلك الجيش أسامة بن زيد بن حارثة وهو يوم ذاك في مطلع شبابه لايتجاوز العشرين من عمره على أبعد التقادير وفي المسلمين من هو أشد صلابة منه وأكثر مرونة في الحرب وخبرة بقيادة الجيوش مما دعا إلى دهشة كبار الصحابة واستيائهم من تأمره عليهم وتثاقلوا في تنفيذ أوامره بالرغم من تأكيداته المتتالية على تسريح الجيش بقيادته واضطر أن يخرج إلى الناس ويحثهم على الخروج والجهاد بقيادة أسامة وقال لهم: لعمري لئن قلتم في إمارته اليوم فلقد قلتم في إمارة أبيه من قبله وإنه لخليق بالإمارة كما كان أبوه خليقاً بها من قبل... وفي رواية مشهورة بين المحدثين أنه كان يقول ويكرر: انفذوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عن جيش أسامة، هذا وقد بدأ يحس بالمرض وتشتد وطأته عليه بين الحين والآخر... وخرج أسامة بالجيش إلى الجرف على مقربة من المدينة وعسكر فيه بينما يتم تجهيزه وخلال ذلك كان المرض يشتد على النبي (ص) فبدأت المحاولات لعدم تحرك الجيش من مكانه وبخاصة بعد أن أحسّوا أنَّ مرض النبي يزداد من وقت لآخر ويشكل خطراً على حياته وخصوصاً أنَّ خادم عائشة كان صلة الوصل

---

1 - شرح ابن أبي الحديد ج1 ص60

بينها وبين أبيها وعمر وأبو عبيدة ولمّا اشتدت العلّة برسول الله (ص) دعت عائشة صهيباً وقالت امض إلى أبي بكر وأعلمه أنَّ محمداً في حال لايرجى، فهلم إلينا أنت وعمر وأبو عبيدة ومن رأيتم أن يدخل معكم وليكن دخولكم في الليل سراً قال فأتاهم الخبر فأخذوا بيد صهيب وأدخلوه إلى أسامة فأخبروه الخبر وقالوا له: كيف ينبغي لنا أن نتخلف عن مشاهدة رسول الله (ص) واستأذنوه في الدخول فأذن لهم وأمرهم أن لايعلم بدخولهم أحد وقال لهم إن عوفي رسول الله رجعتم إلى معسكركم وإن حدث حادث عرّفونا ذلك لنكون في جماعة الناس... فدخل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ليلاً المدينة ورسول الله (ص) قد ثقل فأفاق بعض الإفاقة فقال: لقد طرق ليلتنا هذه المدينة شر عظيم فقيل له وما هو يارسول الله فقال: إنَّ الذين كانوا في جيش أسامة قد رجع منهم نفر يخالفون عن أمري إلّا إني إلى الله منهم بريء، ويحكم نفذوا جيش أسامة فلم يزل يقول ذلك حتى قالها مرات كثيرة... قال وكان بلال مؤذن رسول الله(ص) يؤذن بالصلاة في كل وقت صلاة فإن قدر على الخروج تحامل وخرج وصلى بالناس وكان علي بن أبي طالب والفضل ابن العباس لا يزايلانه في مرضه ذلك - فلما أصبح رسول الله من ليلته تلك التي قدم فيها القوم الذي كانوا تحت يدي أسامة، أذن بلال ثم أتاه يخبره كعادته فوجدوه قد ثقل فمنع من الدخول إليه، فأمرت عائشة صهيباً أن يمضي إلى أبيها فيعلمه أن رسول الله قد ثقل في مرضه وليس يطيق النهوض إلى المسجد وعلي ابن أبي طالب قد شغل به وبمشاهدته عن الصلاة بالناس[2] فأخرج أنت إلى المسجد فصلِّ بالناس فانها حالة تهنئك وحجة لك بعد اليوم قال: فلم يشعر الناس وهم في المسجد ينتظرون رسول الله (ص) أو علياً (ع) يصلي بهم كعادته التي عرفوها في مرضه إذ دخل أبو بكر المسجد وقال إنَّ رسول الله (ص) قد ثقل في مرضه وقد أمرني أن اصلي بالناس فقال له رجل من أصحاب رسول الله (ص) وأنّى لك ذلك وأنت في جيش أسامة لا والله لا أعلم احداً بعث إليك ولا أمرك بالصلاة - ثم نادى الناس بلالاً فقال على رسلكم رحمكم الله لأستأذن رسول الله في ذلك

2- راجع البحار ص 108 - 109 - مج 28

ثم أسرع حتى أتى الباب فدقه دقاً شديداً فسمعه رسول الله (ص) فقال ماهذا الدق العنيف فانظروا ماهو؟ قال فخرج الفضل بن العباس ففتح الباب فإذا بلال فقال ماوراءك يابلال؟ فقال: إنَّ ابا بكر قد دخل المسجد وقد تقدم حتى وقف في مقام رسول الله وزعم أن رسول الله أمره بذلك... فقال أو ليس أبو بكر في جيش أسامة؟ هذا هو والله الشر العظيم الذي طرق البارحة المدينة وقد أخبرنا رسول الله بذلك ودخل الفضل وأدخل بلالاً معه فقال ماوراءك يابلال؟ فأخبر رسول الله الخبر فقال (ص) أقيموني أقيموني أخرجوا بي إلى المسجد والذي نفسي بيده قد نزلت بالإسلام نازلة وفتنة عظيمة من الفتن...

ثم خرج - بأبي وأمي هو- معصوب الرأس يتهادى بين علي والفضل بن العباس ورجلاه تجران في الأرض حتى دخل المسجد وأبو بكر قائم في مقام رسول الله (ص) وقد أطاف به عمر وأبو عبيدة وسالم وصهيب والنفر الذين دخلوا وأكثر الناس قد وقفوا عن الصلاة ينظرون ما يأتي به بلال فلما رأى الناس رسول الله قد دخل المسجد وهو بتلك الحالة العظيمة من المرض أعظموا ذلك وتقدم رسول الله فجذب أبا بكر من ردائه فنحاه عن المحراب وأقبل أبو بكر والنفر الذي كانوا معه فتواروا خلف رسول الله (ص) وأقبل الناس فصلوا خلف رسول الله (ص) وهو جالس وبلال يسمع الناس التكبير حتى قضى صلاته ثم التفت فلم ير أبا بكر فقال: أيها الناس ألا تعجبون من ابن أبي قحافة وأصحابه الذين أنفذتهم وجعلتهم تحت يدي أسامة وأمرتهم بالمسير إلى الوجه الذي وجهوا اليه فخالفوا ذلك ورجعوا إلى المدينة ابتغاء الفتنة الا وإنَّ الله قد اركسهم فيها، عرجوا بي إلى المنبر فقام وهو مربوط حتى قعد على أدنى مرقاة فحمد الله وأثنى عليه فقال: أيها الناس إني قد جاءني من أمر ربي ما الناس إليه صائرون. وأني قد تركتكم على الحجة الواضحة ليلها كنهارها فلا تختلفوا بعدي كما اختلف من كان قبلكم من بني اسرائيل...

أيها الناس إني لا أحل لكم إلا ما أحله القرآن ولا أحرم عليكم إلا ماحرمه القرآن وإني مخلف فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا ولن تزلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي هما الخليفتان فيكم لن يفترقا حتى يردا علي

الحوض فأسألكم بماذا خلفتموني فيهما وليزادنّ يومئذ رجال عن حوضي كما تزاد الغريبة من الإبل فتقول رجال أنا فلان وأنا فلان فأقول أما الاسماء فقد عرفت ولكنكم ارتددتم من بعدي فسحقاً لكم سحقاً [3].

3- راجع البحار ص111 مج 28



نظرة على بعث أسامة

السؤال الذي يمكن لأي باحث أن يطرحة في هذا المقام هو أن النبي (ص) مادام يعلم بدنو أجله وبوفاته خلال أيام معدودات فلماذا أصرّ وظلّ يصر حتى النفس الأخير على تسريح الجيش إلى ماوراء حدود الحجاز بقيادة أسامة بن زيد وهو شاب لم يتجاوز العشرين من عمره وهو يعلم بوجود عدد كبير من المنافقين قد تستروا بالإسلام، وهم من ألدّ أعدائه وأنكد خصومه وهؤلاء كانوا يتحينون الفرصة للعبث والفساد وسيجدون الجو مناسباً في حال وفاته مادام علي وآل الرسول منصرفين إلى تجهيزة ودفنه وعامة المهاجرين والانصار في خارج البلاد بقيادة أسامة بن زيد، ولماذا ضم إلى هذا الجيش أبا بكر وعمر كما يبدو من مجاميع السيرة والحديث وكان حريصاً على اشتراكهما فيه وترك علياً في المدينة مع أن تاريخهما معه في حروبه وغزواته لايشهد لهما بالبطولات ولا يغنيان في ساعة الشدة في حين أن مفتاح النصر والفتح كان بعد النبي بيد علي (ع) في جميع حروبه وغزواته ولماذا اختار لقيادة هذا الجيش أسامة بن زيد و في المسلمين كثير من القادة الأكفاء الذين خاضوا المعارك وأداروها بحزم وثبات وخرجوا منها منتصرين ظافرين... هذه التساؤلات قد تختلج في ذهن الكثير من الباحثين وقد اثير بعضها قديماً كما يبدو في شرح النهج ج4 ص127 فقد أدرك قاضي القضاة عبد الجبار المعتزلي تفسير الشيعة لإصرار النبي (ص) على انضمام أبي بكر وعمر إلى الجيش فقال في الصفحة المذكورة: وربما قالوا إنه جعل هؤلاء القوم في جيش أسامة ليبعدوا بعد وفاته عن المدينة فلا يقع منهم توثب على الإمامة، ولذلك لم يجعل أمير المؤمنين في ذلك الجيش وجعل فيه أبا بكر وعمر ابن الخطاب

وغيرهما ليتم له الأمر بدون منازع...ولكنه أجاب عن هذه الناحية كعادته في الدفاع عما يدور حول الخلفاء من شبه واتهامات، وأنكر أن يكون أبو بكر أحد الذين أصر النبي على انضمامهم إلى الجيش في حين أن جميع النصوص تؤكد أنه كان أحدهم... وكان أفضل من أجاب على هذا التساؤل عيلم الشيعة السيد عبد الحسين شرف الدين بقوله: وقد تعلم، أنهم إنما تثاقلوا عن السير أولاً، وتخلفوا عن الجيش أخيراً ليحكموا قواعد سياستهم ويقيموا عمدها ترجيحاً منهم لذلك على التعبد بالنص حيث رأوه أولى بالمحافظة وأحق بالرعاية، إذ لا يفوت البعث بتثاقلهم عن السير، ولا يتخلف من تخلف منهم عن الجيش أما الخلافة فإنها تنصرف عنهم لامحالة اذا انصرفوا إلى الغزوة قبل وفاته (ص) وكان- بأبي وأمي- أراد أن تخلو منهم العاصمة فيصفو الأمر من بعده لأمير المؤمنين (ع) على سكون وطمأنينة فإذا رجعوا وقد أبرم عهد الخلافة وأحكم لعلي عقدها كانوا عن المنازعة والخلاف أبعد...

وإنما أمّر عليهم أسامة وهو ابن سبع عشرة سنة لياً لاعنه البعض ورداً لجماح أهل الجماح منهم واحتياطاً على الأمن في المستقبل من نزاع أهل التنافس لو أمر أحدهم كما لا يخفى، لكنهم فطنوا إلى مادبر (ص)، فطعنوا في تأمير أسامة وتثاقلوا عن السير معه، فلم يبرحوا من الجرف حتى لحق النبي (ص) بربه...[1]

1- المراجعات للإمام شرف الدين ص 273 المراجعة 9

نظرة على عدم كتابة الكتاب

لقد قلنا أن الرسول (ص) طلب كتفاً ودواة ليكتب للمسلمين كتاباً لا يضلوا بعده، وكان سبب رفض الطلب عمر بن الخطاب بقوله أن النبي ليهجر- أي معناه لا تردوا عليه فهو لا يعرف مايقول. عمر بن الخطاب يرفض أوامر الرسول صراحة ويتهمه بالهجر والله تعالى يقول: **﴿وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى﴾** فلنسأل عمر ماهذه الجرأه المرتجلة على الله ورسوله وكيف تؤمن بالله وبرسوله وبالإسلام ثم الآن تقول عن الرسول لا تردوا عليه فإنه لا يعرف مايقول لشدة وجعه- أراد عمر أن يقطع الطريق على الرسول لأنه ادرك أن الكتاب له صلة مباشرة بمصير المسلمين بعد وفاة نبيهم وبمن استخلفه من بعده فلهذا وقف هذا الموقف ولعل النبي (ص) بعد أن رأى منهم ذلك وسمع عمر بن الخطاب يصفه بالهذيان أو بما يؤدي هذا المعنى أعرض عن كتابة الكتاب لأنه ليس لدى القوم من الإيمان ما يمنعهم من ترويج هذه المقالة بعد وفاته لإبطال مفعول الكتاب، أو تأويل مضامينه بما يتفق مع مصالحهم وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك...

ولذا فانهم لما عرضوا عليه أن يكتب مايريد بعد مقالة ابن الخطاب، قال لهم[1]: أبعد الذي قلتم..

فقد انكشف للنبي أنه لو كتب لهم عشرين كتاباً سوف يحورونها ويتأولون مضامينها.

وأروع تعليل لعدم كتابة الرسول الكتاب بعد قولة عمر هو للإمام شرف

1- المراجعات ص262

الدين قال: وإنما عدل عن ذلك لأن كلمتهم تلك التي فاجأوه بها اضطرته إلى العدول إذ لم يبق بعدها أثر لكتابة الكتاب سوى الفتنة والاختلاف من بعده أنه هل هجر فيما كتبه - والعياذ بالله- أولم يهجر؟ كما اختلفوا في ذلك وأكثروا اللغط نصب عينيه فلم يتسن له يومئذ أكثر من قوله لهم: قوموا كما سمعت. ولوأصر فكتب الكتاب، للجّوا في قولهم هجر، ولأوغل أشياعهم في إثبات هجره - والعياذ بالله - فسطروا به أساطيرهم وملأوا طواميرهم رداً على ذلك الكتاب وعلى من يحتج به، لهذا اقتضت حكمتة البالغة أن يضرب(ص) عن ذلك الكتاب صفحاً لئلا يفتح هؤلاء المعارضين وأولياؤهم باباً إلى الطعن في النبوة - نعوذ بالله وبه نستجير- وقد رأى (ص) أنَّ علياً وأولياءه خاضعون لمضمون ذلك الكتاب سواء عليهم اكتب أم لم يكتب وغيرهم لا يعمل به ولا يعتبره لو كتب فالحكمة والحال هذه توجب تركه إذ لا أثر له بعد تلك المعارضة سوى الفتنة كما لا يخفى والسلام.

وفاة النبي (ص)

ولما اشتدت به وطأة المرض جعل يأخذ الماء بيده ويقول واكرباه، فتقول فاطمة واكربي لكربك ياأبتاه، فقال: لاكرب على أبيك بعد اليوم...

وجاء في بعض المرويات أنه قبيل وفاته وجد نفسه نشيطاً وخفت عنه حرارة الحمى فخرج معتمداً على علي (ع) والفضل بن العباس حتى المسجد، فأقبل على الناس رافعاً صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد، فقال: أيها الناس سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم واني والله ماتمسكون عليّ بشيء اني لم أحل إلا ما أحل القرآن ولم أحرم إلا ماحرم القرآن... ورأى المسلمون في مظهر النبي مايدعو إلى الارتياح والاطمئنان فاستأذنه أبو بكر بالذهاب الى السنح حيث تقيم زوجته بنت خارجة وانصرف عنه جماعة لشوؤنهم وهم يظنون أن في هذا النشاط الذي ظهر عليه تماثلاً للشفاء وتقدماً نحو العافية ولكن أمر الله كان يجري إلى غايته من وراء مايرجو الأصحاب والمحبون وقد اختار له ربه الدار الآخرة بين اخوته النبيين والمرسلين... فما رجع من المسجد حتى عاوده الضعف واشتد عليه، فسمع يقول بل الرفيق الأعلى فعلموا أنه اختار لقاء الله على الحياة في هذه الدنيا وكان علي (ع) قد احتضنه حينما رآه يصارع الموت ففاضت نفسه الشريفة وهو إلى صدر علي (ع) كما جاء في رواية ابن سعد وغيره....

وكانت وفاته يوم الاثنين كما هو مشهور بين الرواة، وذهب اكثر الإمامية إلى أن وفاته كانت يوم الإثنين لليلتين بقيتا من صفر...

لقد اختار النبي (ص) الرفيق الأعلى على الخلود في هذه الدنيا التي امتلأت

بالفتن والجور والطغيان، وعلى بقائه بين قوم جاءهم بكل مايقربهم من الله ويصلح أمورهم ويجمعهم على الإيمان بإله واحد وشريعة واحدة... ودعاهم إلى الجهاد والعدل ودفع الظلم والبغي وإلى مكارم الأخلاق والرحمة والدفاع عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ولكل مايوفر لهم السعادة في دنياهم وآخرتهم، وظل اكثر من عشرين عاماً لم يذق خلالها طعم الراحة، يجاهد ويناضل لإرساء تلك القيم التي جاء من أجلها ودعا إليها لتصبح ارثاً للأجيال في كل زمان ومكان وفيما هو يكافح ويناضل من أجل مستقبل يزخر بكل معاني الخير والرحمة والمحبة وإذا بمستقبلهم القريب ينكشف لديه فيراهم وقد ارتدوا على أدبارهم ورجعوا إلى جاهليتهم الأولى ولم ينج منهم إلا مثل همم النعم كما جاء في رواية البخاري وغيره من المحدثين...

لقد ناشدهم في مرضه وهو يعاني من آلامه مالا يطاق أن يكتب لهم كتاباً حتى لا يضلوا من بعده - كما اجتمعت على ذلك كتب الحديث والتاريخ- فوصفوا كلامه هذا بالهذيان واللغو فيئس منهم وأختار الرفيق الأعلى مع إخوانه النبيين والمرسلين ولفظ نفسه الأخير وهو على صدر علي (ع) يناجيه ويلقنه من أسرار الكون وطبيعة الحياة والناس ألواناً من الأحداث والأزمات...

واتفق المحدثون على أنَّ أبا بكر كان غائباً خارج المدينة حين وفاته[1] وأن المسلمين حين سمعوا عويل النساء دهشوا لهذا الحادث بعد أن رأوه قبل ساعات قليلة يخرج فيصلي بهم وعلامة الارتياح والشفاء بادية عليه فدخل عليه عمر بن الخطاب فكشف عن وجهه وقال إن رجالاً من المنافقين يزعمون بأنَّ محمداً قد مات، وإنه والله ما مات ولكنه قد ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه اربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد ان قالوا بأنه قد مات، ووالله ليرجعنَّ رسول الله (ص) كما رجع موسى وليقطعن أيدي وأرجل رجال زعموا أنه مات... وجعل كما تصفه الروايات لا يمر بأحد يقول

1- أشك في ذلك وأرجح أنّه كان مع جماعة يضعون الخطط لقطع الطريق على أصحاب الحق الشرعي في الخلافة وقد أرسلوا عمر بن الخطاب ليشغل الناس عن القيام بأي عمل لغير صالحهم....

إن رسول الله قد مات إلا خبطه بسيفه وتوعده بالنكال والعقاب، واستمر على ذلك مدة من الزمن يروح ويغدو بين الجماهير المحتشدة في المسجد وخارجه يزبد ويرعد ويقول إنه سيرجع بعد أربعين ليله كما رجع موسى بن عمران كما جاء في روايتي ابن سعد وابن كثير وغيرهما...

فاستطاب السذج من المسلمين منه هذا الموقف وعاودهم الأمل بعودة النبي كما استغربه فريق آخر ودهشوا لهذا الموقف من رجل كعمر بن الخطاب ومن حماسه لترويج هذه الاسطورة لغلمهم بأنه لم يكن في مستوى من يتعللون بالأوهام ويجهلون قضية الموت التي لا ينجو منها أحد من الناس. خاصة وأنَّ ابن الخطاب ليس بالرجل العادي الذي لا يحسب لكلامه أحد فقد استطاع أن يسيطر على عدد كبير من الجماهير التي تنفعل بكل فكرة تعرض لها وتستبد بها المحاكاة والتقليد الأعمى ويسقط العقل وسلطانه، وبخاصة إذا رافقها بعض المؤثرات كشخصية المتكلم وصرامة رأية، والصرامة التي اظهرها ابن الخطاب وهو يتحدث إلى الجماهير المدهوشة ويمنيهم بحياة أعز الناس عليهم تارة، ويخوفهم بالقتل وتقطيع الأيدي والأرجل إذا لم يقتنعوا بحياته أخرى، كان لها أثرها على الذين تتملكهم العاطفة الهائجة في هذه الحالات فيتعلقون بالأوهام لا سيما إذا كان فقيدهم من النوع الذي يجوز عليه مالا يجوز على سائر الناس...



نظرة على كلام عمر

إن عمر بن الخطاب كان أبعد الناس عن التعلل بمثل هذه الأوهام ولم يتردد لحظة واحدة في وفاة النبي، بل كان منذ اشتد به المرض على ثقة بأنه سيلاقي ربه ولذا تخلف عن جيش أسامة وحاول أن يحول دون تنفيذ الجيش، وحينما طلب النبي دواة وقرطاساً ليملي عليهم عهده قال إنه ليهجر حسبنا كتاب الله وإذا كان معتقداً بأنه لا يموت فما يضرّه أن يعهد لأي كان من الناس، ولا معنى لقوله حسبنا كتاب الله إلا أنّ كتاب الله يكفينا بعد موتك فلا حاجة لنا بكتابك ولا أظن أن احداً يعرف عمر بن الخطاب، ويحتمل به أنه كان ظاناً أو معتقداً لما يقول إلا بعض أغبياء الشيعة الذي اتهموه بالجهل بأبسط الأمور وقالوا بأن من يجهل ذلك فكيف يصلح للخلافة، وجماعة من السنة الذين قالوا بأنه اصيب بدهشة أفقدته وعيه من صدمة النبأ على حد تعابيرهم المتكررة في مقام الاعتذار عنه...

إنه كان يعلم هو وغيره من المسلمين أن النبي قد نص على علي بالخلافة أكثر من مرة ويعلم أن بعث أسامة في ذلك الوقت بالذات وإصرار النبي على تنفيذه على هذا النحو وإنكاره عليه وعلى أبي بكر تخلفهما عن الالتحاق بالجيش إنما هو ليخلو الجو لعلي (ع) وتتم خلافته في غيابهما بدون منازع ويعلم أيضاً أن الكتاب الذي أراد أن يكتبه لهم لا يعدو أن يكون نصاً قاطعاً على خلافة علي من بعده ولذلك عارض وقال كلمته التي من أجلها ترك النبي الكتابة...

لقد خاف بعد وفاة النبي وغياب أبي بكر عن المدينة أن يجتمع الناس على

علي في تلك اللحظات، لاسيما وأن اكثرهم كان لا يحتملها لأحد غيره، فأراد أن يصرف القوم عما هم فيه ويحول تفكيرهم إلى ناحية أخرى ويشغلهم بحديث من هذا النوع لينصرفوا فعلاً عن التفكير في البيعة لأحد وقد كان عامة المهاجرين والأنصار لايشكون في أن علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله كما جاء في شرح النهج ج 2 ص 8 من رواية الزبير بن بكار عن محمد ابن اسحاق...

وظل عمر بن الخطاب على موقفه هذا الى أن رجع أبو بكر فانطلقا معاً الى حيث جثمان النبي (ص) فوقف عليه أبو بكر وكشف عن وجهه الكريم وخرج إلى الناس مسرعاً وقال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئا﴾

فاستيقظ الجمهور لمقالة أبي بكر وتلقوها بالإذعان والقبول وراحوا يرددون الآية وكأنهم لم يسمعوها من قبل على حد تعبير ابن هشام في سيرته وسكنت ثورة ابن الخطاب وكأنه لم يصنع شيئاً... وخرج هو وأبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح من البيت الذي فيه الجثمان وتركوه إلى علي وأهله المفجوعين بوفاته وقد أذهلهم المصاب عن كل شيء وعن التفكير بالخلافة وشؤونها...

أما إلى أين ذهبوا، ولماذا كانوا يخططون فالتاريخ لم يتعرض لشيء من ذلك، ولكن موقف عمر بن الخطاب من وفاته وحرصة البالغ على أن يعيد الى الأذهان فكرة حياته ورجوعه كما رجع موسى بن عمران وخروجه مع أبي بكر وأبي عبيدة وتراجعه عن موقفه قبل وفاة الرسول من كتابة الكتاب وإصراره مع أبي بكر على عدم الانضمام الى جيش أسامة بالرغم من موقف النبي المتصلب من هذا الأمر بالذات وإلى غير ذلك من الشواهد والقرائن التي تلقي الضوء على أن القوم كانوا قد أعدوا مخططاً للاستيلاء على السلطة وإقصاء علي عنها. ولم يكن موقف عمر بن الخطاب من وفاة النبي إلا حلقة من التدابير التي أعدوها لإنجاح المؤامرة (الانقلاب) التي اتفقوا عليها من قبل عندما كتبوا الصحيفة...

وقد أدرك هذه الحقيقة جماعة من المستشرقين والكتّاب العرب المحدثين وألمح إليها بعض المؤلفين القدامى في هذا الموضوع وبهذه المناسبة قال المستشرق لانس في كتابه:

إن الحزب القرشي الذي يرأسه أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح لم يكن وليد مفاجأه وارتجال وإنما كان وليد مؤامرة سرية مجرمة حيكت أصولها ورتبت اطرافها بكل إحكام وإتقان، وإن أبطال هذه المؤامرة أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ومن أعضاء هذا الحزب عائشة وحفصة...[1]

1- هذه الحقيقة التي نطق بها هذا المستشرق هي التي يتحرج مؤرخ واحد أو مسلم واحد أن يتفوه بها وهي الاعتراف بوجود المؤامرة السرية التي ترجمتها أفعالهم وأقوالهم فيما بعد وقد كانوا في عهد الرسول يتشبهون بالبررة والأتقياء، وبعد غيبته نزعوا عن وجوههم تلك الأقنعة التي لم تعد لازمة لهم في حال، لأنّ المناخ أصبح صحواً وحلبة الصراع صارت جاهزة.



السقيفة والانقلاب

لقد اتفق المؤرخون والمحدثون بأنّ موقف عمر بن الخطاب من وفاة الرسول قد انتهى بحضور أبي بكر وقراءته الآية على الناس وهدأت ثورة عمر ابن الخطاب وخرجا معاً من البيت وتركاه بين أهله المفجوعين بوفاته وكما ذكرنا أنّ الذي تؤكده القرائن والملابسات وسير الأحداث أنهما انصرفا إلى مكان ما قد أعدّوه لاتخاذ التدابير اللازمة.... وحسب تقديري أنّ أكثر الأنصار ربما فيهم سعد بن عبادة لم يضعوا في حسابهم غير علي (ع) للخلافة بعد النبي (ص) كما أن الاعتقاد السائد بين عامة المسلمين أنها لن تعدوه ولكن بعد أن تبين للأنصار أنّ شيوخ المهاجرين قد تكتّلوا لصرفها عنه والاستيلاء عليها وتجاهلوا نصوص الرسول عليه وأنهم في هذا التحالف القرشي الجديد يرجعون إلى إحياء الروح الجاهلية والنزعات القبلية - في حين أنهم قد قدّموا للدعوة وصاحبها وبذلوا له من أنفسهم - وأموالهم ما لم يقدمه ويبذله أحد من المهاجرين الذين يخططون للاستيلاء على السلطة من بعده.. بعد أن تبين لهم ذلك اجتمع فريق منهم تزعمه سعد بن عبادة في سقيفة بن ساعدة للتداول بشأن الخلافة وهتف جماعة منهم باسم سعد بن عبادة كما تنص على ذلك أكثر المرويات، ولما اتصل الخبر بالمهاجرين عن طريق بعض الأنصار الذين كانوا يناوئون سعداً ويعملون لغير صالحه، تركوا مكانهم وأقبلوا مسرعين إلى سقيفة بني ساعدة فوقف خطيبهم وأشاد بالأنصار ومواقفهم وتضحياتهم في سبيل الإسلام وتمنى على المهاجرين أن لا يتجاهلوهم ويجعلوا لهم شيئاً من الأمر... وتحدث بعده أبو بكر فنوه بفضل قريش وأمجادها وعاد وأعاد إلى الأذهان مواقف العرب قبل الإسلام وتفاخرهم بالأحساب والأنساب.

وجاء في رواية العقد الفريد أنّه قال: نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً وأكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً وأحسنهم وجوهاً وأمسّهم برسول الله رحماً، ومضى يقول: إنّ العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما فضلهم الله به فقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأشار إلى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح وانتهز أبو بكر وهو يتحدث عن قريش وأمجادها وعن المهاجرين بالذات صوت بشير بن سعد الخزرجي وقد ارتفع في ناحية من نواحي البيت وأخذه الحسد لابن عمه وهو يقول:

أيها الناس ألا أنّ محمداً من قريش وأنّ قومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبداً....

وأبى عليه الحباب بن المنذر الخزرجي أن يخرج بين الناس بهذا الأسلوب الذي يتسم بطابع الدجل والنفاق والحسد لابن عمه فقال: لقد عزَّ على بشير ابن سعد أن يتولى ابن عمه السلطة بعد النبي حسداً وبغضاً فظهر بمظهر من لا يريد أن ينازع أحداً حقاً هو أولى به ثم قال ما أحوجك إلى ما صنعت يا بشير لقد نفست الإمارة على ابن عمك سعد بن عبادة ولم ينته الجدل عند هذا الحد بل قام أسيد بن حضير أحد زعماء الأوس يثير في النفوس أحقاد الجاهلية ويذكر بما بين الحيين الأوس والخزرج من خلافات وأحقاد وعصبيات قد أطفأتها سماحة الإسلام[1].... ومضى يخاطب الأوس ويقول: يا بني الأوس والله لأن وليتموها سعداً عليكم مرة لا يزال للخزرج بذلك عليكم الفضل ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً....

واستغل أبو بكر صوت بشير بن سعد الذي جرّ هذا الانقسام فأخذ عمر بن الخطاب بيد وأبا عبيدة بالأخرى ونادى أيها الناس هذا عمر وهذا أبا عبيدة فبايعوا أيهما شئتم وقام الحباب بن المنذر بعد هذا التدبير المدروس بين الثلاثة وقال يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر....

1- لقد كان أسيد بن حضير أحد أطراف أصحاب الانقلاب وكان عين الانقلابيين ويدهم بين الأنصار، وأحد من أمال طرف الأنصار أمام المهاجرين هو وبشير بن سعد وعويم بن ساعدة.

واستولى الغضب على ابن الخطاب فانبرى يقول:

منذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلاّ مدلٍ بباطل أو متجانف لاثم أو متورط في هلكة.

ولما سمع الحباب بن المنذر تحدي عمر بن الخطاب وأسلوبه المتغطرس توجه إلى الأنصار وقال: أما إذا أبوا عليكم ما سألتموهم فاجلوهم عن هذه البلاد فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم، بأسيافكم دان بهذا الدين من دان، ثم انتضى سيفه يلوح به ويقول: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، أما والله إن شئتم لنعيدنها جزعة، وهنا عصف الغضب بجوانح عمر بن الخطاب وكاد أن يقع الشر بين الطرفين، فوقف أبو عبيدة بن الجراح ليحول دون وقوع الفتنة فقال بصوت هادئ: يا معشر الأنصار كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من غيّر وبدّل، ومضى يتحدث بلهجة فيها توسل ورجاء فلم يلبثوا حتى هدأت نفوسهم وانقسم الأنصار على أنفسهم وأسرع عمر بن الخطاب بعد هذا الحوار إلى أبي بكر وقال:

ابسط يدك يا أبا بكر، ما كان لأحد أن يؤخرك عن مقامك الذي أقامك الله فيه وقام بعده أبو عبيدة بن الجراح وقال له: إنّك لأفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة، فبسط أبو بكر لكليهما كفَّه فبايعاه وأسرع بعدهما بشير بن سعد وجماعة من الخزرج فبايعوه وتبعهم أسيد بن خضير بمن معه من الأوس وخرجوا من سقيفة بني ساعدة يهتفون لأبي بكر ولا يمرون على أحد إلا وأخذوا بيده وأمروها على يد أبي بكر ومن أبى ضربه عمر بن الخطاب بدرته وتكاثر عليه أتباعه حتى يرغموه على البيعة وتمت بيعة أبي بكر بهذا النحو الذي كان مفاجأة لأكثر الناس....



نظرة على انقلاب السقيفة

ومن حيثيات البيعة يتبين أن التخطيط لإقصاء علي (ع) عن السلطة والاستيلاء عليها لم يكن وليد ساعته كما تؤكده الشواهد السابقة، وأنَّ موقف الأنصار بقيادة سعد بن عبادة كان ارتجالياً لم يحضر له من قبل كما يبدو ذلك من اختلافهم وتضارب آرائهم.... كما تبين أن قادة الانقلاب الثلاثة أبا بكر وعمر وابن الجراح هم قادة الحزب القرشي المتآمر على الاستيلاء على السلطة وإقصاء علي بن أبي طالب عنها وأنّ أقوى ما لديهم من الأدلة في مقابل الأنصار لا يعدو الأمرين التاليين:

أولهما أن المهاجرين أول الناس إسلاماً، والثاني أنهم أقرب الناس إلى رسول الله وأمسهم به رحماً، وقد أدان هؤلاء القادة أنفسهم بهذه الحجة، ذلك أنّ الخلافة إذا كانت بالسبق إلى الإسلام والقرابة القريبة من رسول الله كما يدعون فهي لعلي وحده لأنه أول الناس إسلاماً وإيماناً وتصديقاً برسالة محمد(ص) باتفاق جميع المسلمين وأخوه بمقتضى المؤاخاة التي عقدها النبي بينه وبينه يوم آخى بين المهاجرين في مكة، وبينهم وبين الأنصار في المدينة وابن عمه نسباً وأقرب الناس إلى نفسه وقلبه وبلا شك في ذلك عند أحد من الناس....

لقد ناقض نفسه أبو بكر حينما احتج على الأنصار بالقرابة والسبق إلى الإسلام، ورشح لها عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح لأنهما أسبق إلى الإسلام من الأنصار وأمسهم بالنبي رحماً وتجاهل علي بن أبي طالب الذي بايعه مائة ألف ويزيدون في غدير خم قبل مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر وقد سبق

جميع الناس إلى الإسلام. وكان ابن عم النبي نسباً وأخاه وحده في الله بإجماع المؤرخين والمحدثين، وبمواقفه وتضحياته وجهاده استقام الإسلام وانتصر على الشرك والوثنية وعلى قريش التي عادت سيرتها الأولى تحارب محمداً بشخص علي (ع)...

وما كان أبو بكر بالغبي الذي يعتقد سلامة هذا الأسلوب وكفايته حين رشح لها أحد الرجلين ولكنه هو وحزبه كانوا قد خططوا لذلك واتفقوا مع بعض الأنصار والمهاجرين على إقصاء علي عن الخلافة والاستيلاء عليها بكل الأساليب، وكان يتكلم مع الفريق الثاني من الأنصار الذين استفزهم موقف أبي بكر وأنصاره واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يتداولون في مصير الخلافة- كان يتكلم معهم هو ورفيقاه بمنطق القوي الذي يريد أن يفرض على الغير وجوده ولو بهذا النحو من التمويه والتضليل....

ومما يدل على ذلك جواب عمر بن الخطاب له حينما أشار على الحضور أن يبايعوا أحد الرجلين عمر بن الخطاب أو أبي عبيدة، فأجابه على الفور أيكون هذا وأنت حي ما كان لأحد أن يؤخرك عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله...

هذا الجواب يشير إلى تخطيط واتفاق على الأسلوب التي تتم فيه بيعة أبي بكر، وفي الوقت ذاته يحاول ابن الخطاب تضليل الرأي العام وإيهامه بأنَّ رسول الله قد اختاره للخلافة كما يشير إليه قوله:

ما كان لأحدٍ أن يؤخرك عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله، هذا مع العلم بأن المؤرخين لحياة الرسول (ص) من القدامى والمحدثين والثقاة الذين حفظوا حديثه ورووه للأجيال لم يدعوا بأنّ النبي قد لوّح له ولو من بعيد بذلك المقام الذي يعمل من أجله ابن الخطاب وأنصاره بل أنّ مواقف النبي معه كانت على العكس من ذلك فلم يعهد إليه بأمر ولا وضعه في مكان يحقق له امتيازاً عن غيره، وكان إذا أرسله على رأس سرية من السرايا كما حدث له في غزوة السلاسل، أو أعطاه الراية كما صادف ذلك في خيبر يرجع فاشلاً مخذولاً وفي الأيام الأخيرة من حياته بعد أن علم بقرب أجله أراد أن يخرجه

من المدينة كجندي من جنود المسلمين هو وعمر بن الخطاب بقيادة أسامة بن زيد وهو شاب لا يتجاوز العشرين من عمره على أبعد التقادير...

أما حديث صلاته بالناس في بعض الأيام خلال مرض النبي (ص) الذي أشار اليه أبو عبيدة في حديثه مع الأنصار فمع أنّ إمامة المصلين كانت ولا تزال مألوفة يتعاطاها الكبير والصغير والفاضل والمفضول فهي على تقديرها لا توجب له فضلاً على أحدٍ من الناس، وليست من مختصات الأنبياء والأولياء والقديسين... ولقد دعته إليها ابنته عائشة حيث كان النبي في وضع لا يسمح له بترك فراشه ولما علم بالأمر خرج يتوكأ على علي والعباس ونحاه عن محرابه. وصلّى بالناس وهو يعاني من وطأة المرض وآلامه....

والشيء الغريب لذي لا يقره العقل والمنطق أن يعتبرها جماعة من علماء السنة ومحدثيهم فضيلة لأبي بكر تؤهله للخلافة، في حين أنهم يعترفون بمواقف النبي (ص) من علي يوم الدار وفي أحد والأحزاب والحديبية وخيبر وحنين وتبوك وفي غدير خم ومؤاخاته له في مكة والمدينة ولا يرون في جميع ذلك دليلاً على اختياره لمنصب الخلافة بل ولا تلميحاً على اختياره من بعده..... ويرون في صلاة أبي بكر إن صحّت -- ركعتين بالمسلمين - دليلاً واضحاً على إعداده لقيادة الأمة من بعده وإعطائه الصلاحيات التي كانت له...

ومهما كان الحال فلقد كانت مواقف النبي من علي (ع) وتصريحاته المتتالية فيه في مختلف المناسبات تجعله بحكم المتعين لها بنظر الجمهور الأعظم من المسلمين حتى أن علياً نفسه كان واثقاً بأنّ الأمر لا يعدوه....

وجاء في شرح النهج لابن أبي الحديد: أن علياً كان لا يشك في أنّ الأمر له وأنّه لا ينازعه فيه أحد من الناس ومضى يقول: وقد قال له عمّه العباس: امدد يدك أبايعك فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان، فقال يا عم وهل يطمع فيها طامع غيري، قال ستعلم، فقال: إني لا أحب هذا الأمر من وراء رتاج......

وهناك رواية أخرى:

وحدث بعض المحدثين عن حادثة السقيفة فقال: حينما بايع عمر بن

الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح أبا بكر وبشير بن سعد أكب الأوس على أبي بكر بالبيعة وتكاثروا على ذلك وتزاحموا فجعلوا يطأون سعداً من شدة الزحمة وهو بينهم على فراشه مريض فقال: قتلتموني قال عمر: اقتلوا سعداً قتله الله - فوثب قيس بن سعد فأخذ بلحية عمر وقال: والله يا ابن صهاك الجبان الفرار في الحروب الليث في الملأ والأمن لو حركت منه شعرة ما رجعت في وجهك واضحة.... فقال أبو بكر مهلاً يا عمر فإن الرفق أبلغ وأفضل فقال سعد: يا ابن صهاك (وكانت جدة عمر حبشية) أما والله لو أنَّ لي قوة على النهوض لسمعتما مني في سككها زئيراً يزعجك وأصحابك منها.... يا آل الخزرج احملوني من مكان الفتنة فحملوه وأدخلوه منزله... وكان سعد لا يصلي بصلاتهم ولا يقضي بقضائهم... قال وبايع جماعة من الأنصار ومن حضر من غيرهم، وعلي (ع) مشغول بجهاز رسول الله (ص) فلما فرغ من ذلك - وصلى على النبي والناس يصلون عليه من بايع أبي بكر ومن لم يبايع جلس في المسجد فاجتمع إليه بنو هاشم ومعه الزبير بن العوام واجتمعت بنو أمية إلى عثمان بن عفان وبنو زهرة إلى عبد الرحمن بن عوف فكانوا في المسجد مجتمعين إذ أقبل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فقالوا: ما لنا نراكم حلقاً شتى قوموا فبايعوا أبا بكر فقد بايعه الأنصار والناس ، فقام عثمان وعبد الرحمن بن عوف ومن معهما فبايعوا وانصرف علي (ع) وبنو هاشم إلى منزل علي (ع) ومعهم الزبير بن العوام قال فذهب إليهم عمر في جماعة ممن بايع فيهم أسيد بن حضير - أحد أقطاب الانقلاب من الأنصار - وسلمه بن أسلم فألفوهم مجتمعين فقالوا لهم بايعوا أبا بكر فقد بايعه الناس... فوثب الزبير إلى سيفه فقال عمر عليكم بالكلب فاكفونا شره فبادر سلمة بن أسلم فانتزع السيف من يده فأخذه عمر فضرب به الأرض فكسره، وأحدقوا بمن كان هناك من بني هاشم ومضوا بجماعتهم إلى أبي بكر فلما حضروا قالوا بايعوا أبا بكر فقد بايعه الناس وأيم الله لئن أبيتم ذلك لنحاكمنكم بالسيف.....

فلما رأى ذلك بنو هاشم أقبل رجل رجل فجعل يبايع حتى لم يبق ممن حضر إلاّ علي (ع) فقال له بايع أبا بكر فقال علي (ع): أنا أحق بهذا الأمر منه وأنتم أولى بالبيعة لي أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله وتأخذونه منا أهل البيت غصباً ألستم زعمتم للأنصار أنكم

أولى بهذا الأمر منهم لمكانكم من رسول الله (ص) فأعطوكم المقادة وسلكموا لكم الإمارة وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار أنا أولى برسول الله حياً ميتاً وأنا وصيه ووزيره ومستودع سره وعلمه وأنا الصديق الأكبر أول من آمن به وصدقه، وأحسنكم بلاء في جهاد المشركين، وأعرفكم بالكتاب والسنة وأفقهكم في الدين وأعلمكم بعواقب الأمور وأذربكم لساناً وأثبتكم جناناً فعلام تنازعونا هذا الأمر أنصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم واعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفته الأنصار لكم وإلا فبوؤا بالظلم وأنتم تعلمون.....

فقال عمر: أما لك بأهل بيتك أسوة؟

فقال علي (ع) سلوهم عن ذلك فابتدر القوم الذين بايعوا من بني هاشم فقالوا: ما بيعتنا بحجة على علي (ع) ومعاذ الله أن نقول أنّا نوازن فقال له سيدنا علي (ع) احلب حلباً لك شطره اشدد له اليوم ليرد عليك غداً إذاً والله لا أقبل قولك ولا أحفل بمقامك ولا أبايع....

فقال أبو بكر مهلاً يا أبا الحسن ما نشدد عليك ولا نكرهك.

فقام أبو عبيدة إلى علي (ع) فقال: يا ابن عم لسنا ندفع قرابتك ولا سابقتك ولا علمك ولا نصبرتكّ ولكنك حدث السن - وكان لعلي يومئذ ثلاث وثلاثون سنة - وأبو بكر شيخ من مشايخ قومك وهو أحمل لثقل هذا الأمر وقد مضى الأمر بما فيه فسلم له فإن عمرك الله يسلموا هذا الأمر إليك ولا يختلف عليك اثنان بعد هذا إلا وأنت به خليق وله حقيق ولا تبعث الفتنة قبل أو أن الفتنة وقد عرفت ما في قلوب العرب وغيرهم عليك. فقال أمير المؤمنين (ع):

يا معشر المهاجرين والأنصار الله الله لا تنسوا عهد نبيكم إليكم في أمري ولا تخرجوا سلطان محمد من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعر بيوتكم وتدفعوا أهله عن حقه ومقامه في الناس يا معاشر الجمع: إن الله قضى وحكم ونبيه أعلم وأنتم تعلمون أن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم أما كان منا القارئ لكتاب الله الفقيه في دين الله المضطلع بأمر الرعية والله إنّه لفينا لا فيكم فلا

تتبعوا الهوى فتزدادوا من الحق بعداً وتفسدوا قديمكم بشر من حديثكم[1] وقد كثر الكلام في هذا المعنى وارتفع الصوت وخشي عمر أن يصغي الناس إلى قول علي (ع) ففسخ المجلس وقال: إن الله تعالى يقلب القلوب والأبصار.

وعلى أي الأحوال فإنَّ الذين وقفوا موقفاً سلبياً من خلافة أبي بكر كانوا من أعيان المهاجرين والأنصار وخيارهم وممن أشاد النبي بفضلهم وأنهم مع الحق لا ينحرفون عنه ويدورون في فلكه كيفما تحرك.

لم تسيطر عليهم الغوغاء بل وقفوا إلى جانب علي بحزم وصلابة واحتجوا على الحاكمين بكل ما يملكون من جرأة وبيان فلننظر كيف حمل لنا التاريخ هذه الصورة وماذا حلَّ بعد ذلك.

قال إن الذي أنكر على أبي بكر اثني عشر رجلاً من المهاجرين منهم[2] خالد بن سعيد بن العاص وكان من بني أمية - سلمان الفارسي - أبو ذر الغفاري - المقداد بن الأسود الكندي - عمار بن ياسر - بريدة الأسلمي ومن الأنصار:

أبو الهيثم بن التيهان - وسهل وعثمان ابنا حنيف - وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وأبيّ بن كعب وأبو أيوب الأنصاري.

قال فلما صعد أبو بكر المنبر تشاوروا بينهم فقال بعضهم لبعض والله لنأتينه ولننزلنه عن منبر رسول الله وقال الآخرون - والله لئن فعلتم ذلك إذاً لأعنتم على أنفسكم وقد قال الله عز وجل ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة فانطلقوا بنا إلى أمير المؤمنين لنستشيره ونستطلع رأيه فانطلق القوم إلى أمير المؤمنين بأجمعهم فقالوا:

يا أمير المؤمنين تركت حقاً أنت أحق به وأولى منه لأنا سمعنا رسول الله (ص) يقول:

1- راجع الإمامة والسياسة لابن قتيبة والسقيفة للجوهري.

2- راجع البحار ص 189 مج 28 .

علي مع الحق والحق مع علي يدور معه كيفما دار ولقد هممنا أن نصير إليه فننزله عن منبر رسول الله فجئناك نستشيرك ونستطلع رأيك فيما تأمرنا فقال أمير المؤمنين (ع):

وأيم الله لو فعلتم ذلك لما كنتم لهم إلا حرباً ولكنكم كالملح في الزاد وكالكحل في العين. وأيم الله لو فعلتم ذلك لأتيتموني شاهرين أسيافكم مستعدين للحرب والقتال إذاً لأتوني فقالوا لي بايعه وإلا قتلناك فلا بد من أن أدفع القوم عن نفسي وذلك أن رسول الله (ص) أوعز إلي قبل وفاته قال لي يا أبا الحسن إن الأمة ستغدر بك بعدي وتنقض فيك عهدي وإنك مني بمنزلة هارون من موسى وأن الأمر بعدي بمنزلة هارون ومن اتبعه والسامري ومن اتبعه فقلت - يا رسول الله فما تعهد إلي إذا كان ذلك قال إن وجدت أعواناً فبادر إليهم وجاهدهم وإن لم تجد أعواناً كف يدك واحقن دمك حتى تلحق بي مظلوماً.

ولما توفي رسول الله اشتغلت بغسله وتكفينه والفراغ من شأنه ثم آليت يميناً أن لا أرتدي إلا للصلاة حتى أجمع القرآن ففعلت ثم أخذت بيد فاطمة وابني الحسن والحسين فدرت على أهل بدر وأهل السابقة فناشدتهم حقي ودعوتهم إلى نصرتي فما أجابني منهم إلا أربعة رهط منهم سلمان وعمار والمقداد وأبو ذر. فاتقوا الله على السكوت لما علمتم من وغر صدور القوم وبغضهم لله ولرسوله ولأهل بيته فانطلقوا بأجمعكم إلى الرجل فعرفوه ما سمعتم من قول رسولكم ليكون ذلك أوكد للحجة وأبلغ للعذر وأبعد لهم من رسول الله(ص) إذا وردوا عليه.

فسار القوم حتى أحدقوا بمنبر رسول الله (ص) وكان يوم الجمعة فلما صعد أبو بكر المنبر قال المهاجرون للأنصار وتقدموا فتكلموا وقال الأنصار بل تقدموا أنتم فإن الله عز وجل أدناكم في كتابه إذ قال تعالى:

﴿لقد تاب الله بالنبي على المهاجرين والأنصار﴾.

فأول من تكلم به خالد بن سعيد بن العاص فقال:

اتق الله يا أبا بكر فقد علمت أن رسول الله (ص) قال ونحن محتوشوه يوم

قريظة حين فتح الله له وقد قتل علي يومئذ عدة من صناديد رجالهم وأولي البأس والنجدة منهم يا معشر المهاجرين والأنصار إني موصيكم بوصية فاحفظوها ومودعكم أمراً فاحفظوه إلا أن علي بن أبي طالب أميركم بعدي وخليفتي فيكم بذلك أوصاني ربي ألا وإنكم إن لم تحفظوا وصيتي وتؤازروه وتنصروه اختلفتم في أحكامكم واضطرب عليكم أمر دينكم ووليكم شراركم.

إلا أن أهل بيتي هم الوارثون لأمري والعالمون بأمر أمتي من بعدي اللهم من أطاعهم من أمتي وحفظ فيهم وصيتي فاحشرهم في زمرتي واجعل لهم نصيباً من مرافقتي يدركون به نور الآخرة اللهم من أساء خلافتي في أهل بيتي فاحرمه الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض[3].

فقال عمر بن الخطاب اسكت يا خالد فلست من أهل المشورة ولا ممن يُقتدى برأيه فقال خالد: اسكت يا ابن الخطاب فإنك تنطق عن لسان غيرك وأيم الله لقد علمت قريش أنك من ألأمها حسباً وأدناها منصباً وأخسها قدراً وأخملها ذكراً وأقلهم غناء عن الله ورسوله أنك لجبان في الحروب بخيل بالمال لئيم العنصر مالك في قريش من فخر ولا في الحروب من ذكر - وإنك في هذا الأمر بمنزلة الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين فأبلس عمر وجلس خالد[3] ثم قام سلمان الفارسي[3] (ع) وقال كرديد ونكرديد - وندانيد جه كرديد ومعناها أي فعلتم ولم تفعلوا وما علمتم ما فعلتم - وامتنع عن البيعة قبل ذلك حتى وُجئ عنقه - فقال يا أبا بكر إلى من تسند أمرك إذا نزل بك ما لا تعرفه وإلى من تفزع إذا سئلت عما لا تعلمه وما عذرك في تقدم من هو أعلم منك وأقرب إلى رسول الله (ص) وأعلم بتأويل الكتاب عز وجل وسنة نبيه ومن قدم النبي في حياته وأوصاكم به عند وفاته فنبذتم قوله وتناسيتم وصيته- وأخلفتم الوعد- ونقضتم العهد وحللتم العقد الذي عقده عليكم من النفوذ تحت راية أسامة بن زيد حذراً من

3- راجع شرح النهج لابن أبي الحديد - والشافي للسيد المرتضى ص 201

مثل ما اتيتموه وتنبيهاً للأمة على عظيم مااجترمتموه من مخالفة أمره فعن قليل يصفو لك الأمر وقد أثقلك الوزر ونقلت الى قبرك وحملت معك ما اكتسبت يداك فلو أرجعت الحق من قرب وتلافيت نفسك وتبت إلى الله من عظيم مااجترمت كان ذلك أقرب إلى نجاتك يوم تفرد في حفرك ويسلمك ذووا نصرتك فقد سمعت كما سمعنا ورأيت كما رأينا فلم يردعك ذلك- عما أنت متشبث به من هذا الأمر الذي لاعذر لك في تقلده ولاحظ- للدين والمسلمين في قيامك به فالله في نفسك فقد اعذر من أنذر ولا تكن كمن أدبر واستكبر..

ثم قام أبو ذر الغفاري فقال:

يامعشر قريش اصبتم قباحة- وتركتم قرابة والله لتردن جماعة من العرب ولتشكن في هذا الدين ولو جعلتم الأمر في أهل بيت نبيكم ما اختلف عليكم سيفان والله لقد صارت لمن غلب ولتطمحن اليها عين من ليس من أهلها وليسفكن في طلبها دماءكثيرة، فكان كما قال أبو ذر (ع) ثم قال:

لقد علمتم وعلم خياركم أن رسول الله قال الأمر بعدي لعلي (ع) ثم لابنيَّ الحسن والحسين ثم للطاهرين من ذريتي فاطرحتم قول نبيكم وتناسيتم ماعهد به إليكم فأطعتم الدنيا الفانية وبعتم الأخرة الباقية التي لايهرم شبابها ولا يزول نعيمها ولا يحزن أهلها ولا يموت سكانها بالحقير التافهِ الفاني الزائل وكذلك الأمم من قبلكم كفرت بعد أنبيائها ونكصت على أعقابها وغيرت وبدلت واختلفت فساويتموهم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة وعما قليل تذوقون وبال أمركم وتجزون بما قدمت أيديكم وما الله بظلام للعبيد.[4]

ثم قام المقداد بن الاسود الكندي (ع) وقال.

ارجع يا أبا بكر عن ظلمك وتب إلى ربك والزم بيتك وابك على خطيئتك وسلم الأمر لصاحبه الذي هو اولى به منك فقد علمت ماعقده رسول الله في

4- هل تشك أيها القارئ في ما روينا لك من الأخبار والروايات أليس كلام أبي ذر حجة ناطقة باقية ما بقي الدهر أليس هو الذي مدحه الرسول (ص) بقوله ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء علي ذي لهجة أصدق من أبي ذر.

عنقك من بيعته وألزمك من النفوذ تحت راية أسامة ابن زيد وهو مولاه ونبه على بطلان وجوب - هذا الآمر لك ولمن عضدك عليه بضمه لكما إلى علم النفاق ومعدن الشنان والشقاق عمرو بن العاص الذي أنزل الله تعالى فيه إن شانئك هو الأبتر فلا اختلاف بين أهل العلم انها نزلت في عمرو وهو كان أميراً عليكما وعلى سائر المنافقين في الوقت الذي انفذه رسول الله في غزاة ذات السلاسل[5]

وأن عمراً قلد كما حرس عسكره فمن الحرس إلى الخلافة اتق الله وبادر الاستقاله قبل فوتها فإن ذلك أسلم لك في حياتك وبعد وفاتك ولا تركن إلى دنياك ولا تغررك قريش وغيرها فعن قليل تضمحل عنك دنياك ثم تصير الى ربك فيجزيك بعملك وقد علمت وتيقنت أن علي بن أبي طالب صاحب هذا الأمر بعد رسول الله (ص) فسلمه إليه بما جعله الله له فإنه أتم لسترك وأخف لوزرك فقد والله نصحت لك إن قبلت نصحي وإلى الله ترجع الأمور.

ثم قام بريدة الأسلمي فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون ماذا لقي الحق من الباطل. يا أبا بكر أنسيت أم تناسيت أم خدعتك نفسك وسولت لك الأباطيل أو لم تذكر ما أمرنا به رسول الله (ص) من تسمية علي (ع) بأمرة المؤمنين والنبي بين أظهرنا وقوله في عدة أوقات هذا أمير المؤمنين وقاتل القاسطين فاتق الله وتدارك نفسك قبل أن لا تدركها وأنقذها مما يهلكها وأردد الأمر إلى من أحق به منك ولا تتمادى في اغتصابه وراجع وأنت تستطيع أن تراجع فقد محضتك النصح ودللتك على طريق النجاة فلا تكونن ظهير المجرمين....

ثم قام عمار بن ياسر (ع) فقال يا معاشر قريش يا معاشر المسلمين إن كنتم علمتم وآلاف فاعلموا أن أهل بيت نبيكم أولى به وأحق بارئه وأقوم بأمور الدين وآمن على المؤمنين وأحفظ لملته وأنصح لملته فمروا صاحبكم فليرد الحق إلى أهله قبل أن يضطرب حبلكم ويضعف أمركم ويظفر عدوكم فقد علمتم أن بني هاشم أولى بهذا الأمر منكم وعلي من بينهم وليكم بعهد الله ورسوله

5- راجع البلاذري ج1 ص 380 - راجع سيرة بن هشام - وأسد الغابة.

وفرق ظاهر قد عرفتموه في حال بعد حال عند سد النبي (ص) أبوابكم التي كانت إلى المسجد فسدها كلها غير بابه وإيثاره إياه بكريمته فاطمة دون سائر من خطبها إليه منكم وقوله أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد الحكمة فليأتها من بابها وأنتم جميعاً مصطرخون فيما أشكل عليكم من أمور دينكم إليه وهو مستغنٍ عن كل واحد منكم إلى ماله من السوابق التي ليست لأفضلكم عند نفسه فما بالكم تحيدون عنه وتغيرون على حقه وتؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة بئس الظالمين بدلاً. أعطوه ما جعله الله له ولا تتولوا عنه مدبرين ولا ترتدوا على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين....

1- ثم قام أبي بن كعب (ع) فقال:

يا أبا بكر لا تجحد حقاً جعله الله لغيرك ولا تكن أول من عصى رسول الله(ص) في وصيه وصفيه وصدف عن أمره اردد الحق إلى أهله تسلم ولا تتجاوز في غيك فتندم وبادر إلى الإنابة يخف وزرك ولا تخصص بهذا الأمر الذي لم يجعله الله لك نفسك فتلقى وبال عملك فعن قليل تفارق ما أنت فيه وتصير إلى ربك فيسألك عما جنيت وما ربك بظلام للعبيد.

2- ثم قام خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين فقال:

أيها الناس ألستم تعلمون أن رسول الله (ص) قبل شهادتي وحدتي ولم يرد معي غيري قالوا بلى قال فأشهد أني سمعت رسول الله (ص) يقول أهل بيتي يفرقون بين الحق والباطل وهم الأئمة الذين يقتدى بهم وقد قلت ما علمت وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

3- ثم قام أبو الهيثم مالك بن التيهان فقال:

وأنا أشهد على نبينا (ص) أنه أقام علياً (ع) في يوم غدير خم فقالت الأنصار ما أقامه إلا للخلافة وقال بعضهم إلا ليعلم الناس أنه مولى من كان رسول الله مولاه وأكثروا الخوض في ذلك فبعثنا رجالاً منا إلى رسول الله فسألوه عن ذلك فقال قولوا لهم علي (ع) ولي المؤمنين بعدي وأنصح الناس لأمتي وقد شهدت بما حضرني فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنَّ يوم الفصل كان ميقاتاً.

4- ثم قام سهل بن حنيف فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ثم قال:

يا معاشر قريش اشهدوا علي أني أشهد على رسول الله وقد رأيته في هذا المكان يعني (الروضة) وهو آخذ بيد علي بن أبي طالب (ع) وهو يقول:

أيها الناس هذا علي إمامكم من بعدي ووصيي في حياتي وبعد وفاتي وقاضي ديني ومنجز وعدي وأول من يصافحني على حوضي فطوبى لمن تبعه ونصره والويل لمن تخلف عنه وخذله.

5- وقام أخوه عثمان بن حنيف فقال سمعنا رسول الله يقول:

أهل بيتي نجوم الأرض فلا تتقدموهم فهم الولاة بعدي فقام إليه رجل فقال يا رسول الله وأي أهل بيتك فقال (ص) علي والطاهرون من ولده وقد بيّن(ص) فلا تكن يا أبا بكر أول كافر به ولا تخونوا الله ورسوله وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون.

6- ثم قام أبو أيوب الأنصاري فقال اتقوا الله عباد الله في أهل بيت نبيكم وردوا إليهم حقهم الذي جعله الله لهم فقد سمعتم مثل ما سمع إخواننا في مقام بعد مقام لنبينا (ص) ومجلس بعد مجلس يقول أهل بيتي أئمتكم بعدي ويومئ إلى علي (ع) ويقول هذا أمير البررة وقاتل الكفرة مخذول من خذله منصور من نصره فتوبوا إلى الله من ظلمكم إن الله تواب رحيم ولا تتولوا عنه مدبرين ولا تتولوا عنه معرضين.

7- ثم قام عبد الله بن مسعود فقال يا معشر قريش قد علمتم وعلم خياركم أن أهل بيت نبيكم أقرب إلى رسول الله (ص) منكم وإن كنتم إنما تدعون هذا الأمر بقرابة رسول الله وتقولون أن السابقة لنا فأهل بيت نبيكم أقرب إلى رسول الله منكم وأقدم سابقة منكم وعلي بن أبي طالب صاحب هذا الأمر بعد نبيكم فاعطوه ما جعله الله له ولا ترتدوا على أعقابكم خاسرين...

رغم هذه الاحتجاجات الصادقة التي تفوه بها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وهم من الصحابة الأجلاء الذين لا يستطيع أن يشك بإيمانهم أحد ولا

يرفع الثقة عنهم كاتب أو مؤرخ لأن لكل منهم شهادة صدق موقعة من رسول رب العالمين – وقد كانت تدور هذه الأقوال على التذكير بالعهد والبيعة التي سبقت منهم لعلي (ع) ورغم هذا فقد تمادى أصحاب الانقلاب في غيهم وجابهوا لغة الحق بقوة السلاح والرجال لأنهم لا يريدون أن يسمعوا صوت ارتدادهم على أعقابهم – أي عودتهم إلى جاهليتهم الأولى – فكأن محمداً(ص) لم يلبث بينهم سنين من الزمن يهديهم يبلغهم يخرجهم من ذل المعصية وعبادة الأصنام إلى عز الطاعة والهدى إلى معرفة الله عز وجل نسوا الرسول وهو بينهم – خالفوه وتناسوا ما جاء لأجله.

ولكن كيف ينظر العالم الإسلامي أو المسلمون جميعاً إلى مقام هذه الفئة – بعد قراءة هذه الاحتجاجات الصارخة – وصوت المعارضة هذا الذي كان يتميز بيقظة الضمير وصحة الدين ومناصرة الحق – هل يا ترى تتغير نظرة العقلاء والمؤمنين بدين الله إلى هذه الطغمة التي بدأت تحارب الدين وأهل بيت النبي والإسلام على أيدي رجال صنفهم الله بالمنافقين والطلقاء والرعاع من الناس – هل يستيقظ الضمير في الناس فينظروا إلى الدين على أنه أمر رباني ولا علاقة له بفلان أو فلان إن أخطأ أو أصاب.

نشأت نواة الردة قبل الرزية بتلك الصحيفة التي أبدعوها ورسموها فكانت عنوان ردتهم وصك ضلالهم ومعبر غيهم ووقوفهم بوجه الحق كيفما كان وأنّى صار ومما يدهشني ويزيد في حيرتي شدة التمسك بفضائل هؤلاء وهم بلا فضيلة....

كيف استطاع الجهاز الأموي أن يغدق عليهم من الألقاب والمناقب والفضائل ما تضيق به كتب التاريخ – والذي يشفع لهم – في هذه المرحلة أن الناس كل الناس صاروا مع التيار الأقوى دون وعي أو إدراك وكأنها موجة عارمة جرت في طريقها الحصى والحجر – وقد قال تعالى مخبراً عن هذه الحادثة - بقوله تعالى:

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا﴾

تلك الأعمال والتخطيطات السوداء التي مارسوها (ضد الدين والمسلمين وضد أهل البيت النبوي) كأنها صدرت عن رجال لم يسمعوا بالإسلام.

ألم يشهد هؤلاء الذين استولوا على الخلافة بفضائل علي (ع) كم مرة بايعوه وشهدوا بسبقه وتقدمه عليهم - وكم مرة تمنى أحدهم أن ينال قسطاً مما لعلي من الفضائل - كم مرة اعترضوا فيها على الرسول تقديم علي (ع) وسألوه هل هذا التقديم منه أم من الله فأجابهم الرسول (ص) إنه أمر ربي وما كان الرسول لينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى- ولكن السؤال الذي يطرح نفسه؟ في هذه المرحلة بالذات هو كيف استطاع هؤلاء أن يلبسوا قناع المسكنة والإنسانية طوال صحبتهم للرسول (ص) كيف رضي الجم الغفير بتولية من ليس أهلاً للولاية - بتقديم المفضول الذي عبد الأصنام قبل محمد(ص) على الفاضل الذي لم يسجد لصنم قط. هذا الجم الغفير كان بطبيعة الحال نزاعاً إلى التغيير ولكن ليس إلى الأفضل بل إلى الأسوأ حنّ لأيام الجاهلية التي كان يرتع بها ويلعب بلا حدود أو قيود بلا شرائع أو سنن.

وعندما اجتمع أصحاب الصحيفة لإخراج الأمر من علي (ع) كان كل شيء قد أعد بحكمةٍ ودقةٍ أرادوا أن يكتموا صوت الحق بأفواههم وأيديهم - لكي لا تصل - دعوة محمد (ص) إلى أذهان الناس ولا إلى عقولهم.

عندما ينظر القارئ المنصف - أي قارئ - لصفحات التاريخ الذي كتب على هذا النحو وبهذا الشكل لا بد وأن يدهش أو تصيبه الحيرة أو قد يندم على تعبده ما مضى من العمر بسيرة رجالٍ ليسوا أكثر من حكام استولوا على الخلافة بغير وجه حق، لا بد وأن يعيد القراءة مرات ومرات كي يتعرف على سلوكهم من جديد ولماذا يقدمهم بعض المسلمين في كل شيء، ولا أجد مبرراً واحداً لتقديمهم، ولا فضيلة واحدة تجعلهم من العظماء الذين خدموا البشرية أو قدموا شيئاً مفيداً للإنسانية.

ترى ماذا ترك أبو بكر أو عمر من آثار أو تراث علمي أو أدبي أو رسالي هذا هو التاريخ - تاريخ بلاطهم - وهذه نواعيقهم اسألوها إن كان لها لسان فلتنطق وتعبر وتقول لنا أو تذكر فضيلة واحدة لهؤلاء.

هؤلاء الذين خالفوا الله ورسوله في أكثر من مقام وأكثر من موضع.

حاولوا اغتيال الرسول طمعاً بالحكم وحقداً لعلي.

عاملوا الناس بقسوة وغلظة وقتلوا من قتلوا حتى صاروا صورة ممثلة للإرهاب حاصروا كل صحابي جليل وكل موالي لعلي ولآل بيته.

تنكروا لكل من له سابقةٌ في الإسلام وكل من جاهد وناضل في رفع كلمة الدين.

كل ذلك والمسلمون على اختلاف مللهم ونحلهم يعيشون كابوس التضليل ومسرحية الأقنعة الكاذبة وعندما يسقط القناع عن وجوههم وتسفر الحقيقة ساطعة سيعرفون من اتبعوا ومن قدسوا ومن مجدوا. فإلى أي تاريخ نلجأ وأي رواية نقرأ طالما أن تاريخنا كله محفور بيد الساسة والمتاجرين نعم لقد اشتروا من المؤرخين والكتبة من الذين لم يروا الرسول ولا عاشروه ولا سمعوا منه وقالوا لهم قولوا سمعنا عن رسول الله روينا من رسول الله جلسنا ورسول الله حتى تتم الحيلة وتستمر المؤامرة من جيل إلى جيل حتى يومنا هذا.

فلنتابع القراءة في سيرة هؤلاء الصحابة الذين فتحوا للعالم أفقاً جديداً من الحيل - والخداع ومن أساليب المؤامرة التي لم تكن سائدة في ذلك الوقت.

وعندما بايع أبو بكر بعض الناس وقامت المعارضة من الموالين والمعتدلين من أهل الرأي والمشورة تراجع أبو بكر عن موقفه وجلس في بيته ثلاثة أيام لا يدخل مسجد رسول الله (ص) فلما كان اليوم الرابع جاءهم خالد بن الوليد ومعه ألف رجل وقال لهم ما جلوسكم فقد طمع فيها والله بنوا هاشم وجاءهم سالم مولى أبي حذيفة ومعه ألف رجل وجاءهم معاذ بن جبل ومعه ألف رجل فمازال يجتمع رجل رجل حتى اجتمع أربعة آلاف رجل فخرجوا شاهرين سيوفهم يتقدمهم عمر بن الخطاب حتى وقفوا بمسجد النبي (ص) فقال عمر والله يا صحابة علي لئن ذهب الرجل منكم يتكلم بالذي تكلم به بالأمس لنأخذن الذي فيه عيناه فقام إليه خالد بن سعيد بن العاص وقال: يا ابن صهاك الحبشية أبأسيافكم تهددونا أم بجمعكم تفزعونا والله إن أسيافنا أحد من أسيافكم وأنا لأكثر منكم وإن كنا قليلين لأن حجة الله فينا والله لولا أني أعلم

أن طاعة إمامي أولى بي لشهرت سيفي ولجاهدتكم في الله إلى أن أبلي عذري فقال له أمير المؤمنين اجلس يا خالد فقد عرف الله مقامك وشكر لك سعيك فجلس. وقام سلمان الفارسي وقال: الله أكبر الله أكبر سمعت رسول الله(ص) يقول بينا أخي وابن عمي جالس في مسجدي مع نفر من أصحابه إذ يكبسه جماعة من كلاب أهل النار يريدون قتله وقتل من معه ولست أشك ألا وأنكم هم - فهم به عمر بن الخطاب فوثب إليه أمير المؤمنين (ع) وأخذ بمجامع ثوبه ثم جلد به الأرض ثم قال:

يا ابن صهاك الحبشية لولا كتاب من الله سبق وعهد من رسول الله تقدم لأريتك أينا أضعف ناصراً وأقل عدداً ثم التفت إلى أصحابه وقال انصرفوا رحمكم الله فوالله لا دخلت المسجد إلا كما دخل أخواي موسى وهارون إذ قال له أصحابه:

اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون - والله لا أدخل إلا لزيارة رسول الله أو لقضية أقضيها فإنه لا يجوز لحجة أقامه رسول الله أن يترك الناس في حيرة[6] ثم قال إن عمر احتزم بإزاره وجعل يطوف المدينة وينادي أن أبا بكر قد بويع له فهلموا إلى البيعة - وروي[7] في شرح النهج عن البراء بن عازب قوله، وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة وهم محتجزين بالأزر الصنعانية لا يمرون بأحد إلا خبطوه وقدموه ومدوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه شاء أو أبى.

وظل سيدنا علي (ع) معتصماً ببيته ستة شهور أو أقل من ذلك ممتنعاً عن البيعة ومعه عدد من وجهاء الصحابة كما ذكرنا ولم يعمل للثورة على الحكم الجديد كما لم يفسح المجال لأحد أن يعمل لذلك لأن مصلحة الإسلام عنده أغلى وأعز من الدنيا بما فيها. وإذا كان يطالب بحقه في الخلافة فليس إلاّ لإتمام المسيرة بالإسلام في الطريق الصحيح الذي أراده له النبي (ص) لا سيما

6- الاحتجاج لأبي منصور الطبر

7- نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج1 ص73

وقد استغل المنافقون هذا التحول الذي لولاه لأدّى إلى حرب في داخل العاصمة. ومع أنه كان يحرص على بقاء المعارضة في داخل العاصمة في حدود الحوار والجدل والمقاطعة ولكن أنباء هذا الخلاف لم تلبث أن تسربت إلى خارج المدينة فظهرت بوادر العصيان والتمرد وخرج مسيلمة بمن معه من بني حنيفة في اليمامة وطليحة بن خويلد بمن اجتمع معه من غطفان وأسد وطي وكنانة وغيرهم من العرب الضاربة خارجها وأصبح المسلمون في داخل المدينة على ما بينهم من خلاف على الخلافة بإزاء أمر واقع لا تنفع فيه الملاحاة ولا يغني عنه الجدل ولا ضير إذن إذا بقيت النفوس منطوية على ما فيها وانصرف الجميع لإقرار الأمن والدفاع عن الإسلام الذي أصبحت تهدده عصابات المرتدين والمنافقين هنا وهناك، وكان علي(ع) أسرع الجميع إلى التضحية والتنازل عن أعز ما لديه في سبيل الإسلام وهو القائل: والله لاسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جورٌ إلا عليَّ خاصة...

وقد وصف موقفه من الإسلام والخلافة في مقام آخر بقوله: والله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أنَّ العرب تزعج هذا الأمر من بعده عن أهل بيته ولا أنهم منحّوه عني من بعده فما راعني إلا انثيال الناس إلى أبي بكر يبايعونه فأمسكت بيدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به أعظم من فوت ولايتكم التي هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب وكما يتقشع السحاب فنهضت في تلك الأحداث حتى راح الباطل واطمأن الدين وتنهنه..... لم يكن علي ابن أبي طالب يفكر في غير الإسلام ويخشى غير محق الدين فلما رأى راجعة الناس ترجع عن الإسلام نسي ذاته وداس كل اعتباراتها.

ولم يكن قد بايع لأبي بكر ولا أقر بحكومته ووقف إلى جانبه في الدفاع عن المدينة مع أصحابه الذين ظلوا إلى جانبه خلال الأشهر الأولى من خلافة أبي بكر.... ووقف المسلمون كلهم صفاً واحداً متراصاً في وجه المرتدين والعابثين وسيف علي على رأس تلك الحشود كما عهدوه بالأمس في معارك

الإسلام مع الشرك عاصفاً لا تقف له السرايا ولا تصمد بوجهه الأبطال والجيوش ووضع يده في يد أبي بكر بعد أن صارحه بما في نفسه بلا مواربة أو محاباة وقال له: لم يمنعنا عن مبايعتك أننا ننافسك على خير ساقه الله إليك ولكنّا نرى أن هذا الأمر هو حقنا وقد استبددتم به علينا وحلتم بيننا وبينه....
لقد صارحه بذلك ليعلم هو ومن حوله أنه إذا كان يطالب بالخلافة فذاك لمصلحة الإسلام وإذا تغاضى عن حقه فيها فذاك لمصلحة الإسلام وعليهم أن يتحملوا مسؤولية ما جنته أيديهم عند الله....

السيدة فاطمة وموقفها من الانقلابيين

لقد كانت الزهراء (ع) كغيرها من عامة المسلمين ترى أن علياً (ع) أحق الناس بالخلافة بعد أبيها لأنّها سمعت أباها كما سمعه غيرها ينص عليه بصراحة لا تقبل التأويل..... ولم تكن هي ولا بقية بني هاشم والغالبية العظمى من المسلمين ينتظرون ما حدث من المفاجأة، والنبي لا يزال جثة هامدة لم يوار الثرى، وأهله مشغولون عن كل شيء بتجهيزه إلى مقره الأخير وكان مما لا بدّ منه وقد رأت هذا التحول الخطير أن تقف ذلك الموقف المتصلب من حق علي بالخلافة لأنها ترى خلافته امتداداً لرسالة أبيها التي كان هو وأبوه من أحرص الناس عليها وأكثرهم بذلاً وتضحية في سبيلها.... ولا أظن أن انتزاع فدك وسهم ذوي القربى كان داخلاً في حساب القوم لولا موقفها الحازم من الخلافة ولكنهم بعد تعاطف عدد كبير من المسلمين واقتناعهم بحجتها أدركوا أنّ بقاء فدك في يدها يمدها بالقوة ويوفر لعلي قسطاً من المال يعينه على المضي في موقفه المتصلب، بعدَ أن أدركوا ذلك انتزعوها من يدها وأضافوها إلى ميزانية الدولة....

إن فاطمة الزهراء لم تكن تطالب ببقعة من أرض أو بإرث مادي، بل كانت تطالب بالحق الذي جعله الله لعلي في خلافة رسول الله (ص) ولا بد لنا بالإضافة إلى ما سبق من القاء نظرة على خطابها الذي ألقته في المسجد بحضور أبي بكر وحشد كبير من المسلمين للتأكد من هذه الحقيقة..... وقد كان محور حديثها عن علي (ع) ومواقفه الخالدة في الإسلام. والتنديد بالمسلمين في اختيارهم المرتجل وانقلابهم على أعقابهم في إسنادهم الأمر إلى

غير أهله. ومخالفتهم الصريحة لكتاب الله ... وهكذا كانت في جميع مواقفها تركز على هذه الناحية وتوليها كل اهتمامها وعنايتها وكأنّه لا يعنيها أمر فدك وغير فدك من شؤونها الخاصة ولقد قالت في خطاب لها بحضور حشد من نساء المهاجرين والأنصار قد توافدوا عليها خلال الوعكة التي ألمت بها: لقد زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة ومهبط الروح الأمين والطبين بأمر الدنيا والدين ألا ذلك هو الخسران المبين، ومضت تقول: وما الذي نقموا من أبي الحسن نقموا منه والله نكير سيفه وشدة وطأته ونكال وقعته وتنمره في ذات الله .... واستطردت في حديثها تقول: ألا هلمّ فاستمع ما عشت أراك الدهر عجباً وأن تعجب فقد أعجبك الحادث، ليت شعري إلى أي لجأ استندوا وبأي عروة تمسكوا لبئس المولى ولبئس العشير ولبئس للظالمين بدلاً، استبدلوا والله الذناني بالقوادم والعجز بالكاهل فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، ويحهم أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلاّ أن يهدى فما لكم كيف تحكمون. إلى غير ذلك من مواقفها التي كانت تركز فيها على الخلافة والتنديد بانقلاب السقيفة الذي تمخض عن استيلاء أبي بكر على السلطة، بعد جدال بين فئة من المهاجرين كان قوامها ثلاثة من أعيانهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وبين فريق كبير من الأنصار كانوا يرون زعيمهم سعد بن عبادة أحق بها من أبي بكر وأمثاله ممن لم تسجل لهم الأحداث التي مرت بها الرسالة منذ مطلعها إلى اليوم الأخير من حياة الرسول شيئاً بجانب مواقف الأنصار...

ومن غير البعيد أن الأنصار لم يقفوا هذا الموقف إلاّ بعد أن أدركوا المؤامرة التي دبرت لانتزاعها من علي بن أبي طالب (ع)، كما تشير إلى ذلك رواية الزبير بن بكار عن زيد بن أرقم أحد وجوه الأنصار. وقد جاء فيها أنّ القوم لو اختاروا علياً للخلافة لم ينازعه فيها أحد من الأنصار ويدعي بعض الرواة أن علياً (ع) كان يحملها على دابة ويخرج بها ليلاً يطوف بيوت الأنصار فتذكرهم بمواقف علي (ع) وتضحياته في سبيل الإسلام وأبيها، وبالنصوص التي نص بها على استخلافه من بعده وتستجديهم النصرة على تحصيل حقه

وإرجاع الأمر إليه.... ويضيف هؤلاء الرواة أنَّ أكثرهم كانوا يقولون لها: لقد مضت بيعتنا لأبي بكر، ولو أنّ زوجك سبق إلينا لما عدلنا به أحداً وأنّ علياً (ع) كان يرد عليهم بقوله: أفكنت أدَع رسول الله في بيته مسجّى بين أهله ونسائه بدون تغسيل ودفن وأخرج لأنازع القوم سلطانه.

وقد أخذ بهذه الرواية بعض الشيعة بالرغم من ضعف سندها ومن غير تدبر وإدراك لما يهدف إليه واضعو هذا النوع من المرويات الذين أرادوا أن يقولوا: أنَّ علياً وفاطمة لما عجزا عن إقناع القوم بالحجة والمنطق راحا يعملان سراً ويستجديان الأنصار لإعلان العصيان الذي قد يؤدي إلى الثورة على النظام الجديد، وفي الوقت ذاته فلم تجد من الأنصار قبولاً لفكرة النص التي عرضتها لهم هذا بالإضافة إلى ما في هذا الموقف من الهوان الذي تأباه نفس علي وفاطمة (ع).

والذي لا شك فيه أنَّ الزهراء (ع) قد اجتمعت بفريق من أعيان المهاجرين والأنصار وذكرتهم بمواقف علي (ع) في سبيل الإسلام منذ بزغ فجره وتضحياته في سبيله.... وأعادت إلى أذهانهم أقوال الرسول فيه ونصوصه على استخلافه وإعداده لتحمل المسؤولية من بعده... وأنبتهم على موقفهم المتخاذل منه وانحرافهم مع الطامعين والمنقلبين على أعقابهم الذين كانوا يخططون للاستيلاء على السلطة والنبي (ص) لا يزال حياً....

وقد تأثر بموقفها جماعة من أعيان المسلمين وأدهشهم أن تجري الأمور في غير مجراها الطبيعي وساءهم غضبها وقد سمعوا أباها أكثر من مرة يقول لها: إنَّ الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك وسمعوه يقول: فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ....

لقد أدهشهم غضبها وموقفها الذي يعرضهم لغضب الله إن هم تخاذلوا عن نصرتها. ولكن الذين أحسوا بذلك ومستهم الخوف كانوا بالقياس إلى الجمهور الأعظم وذوي الأطماع والأحقاد قلة لا تغني شيئاً.... أما أن علياً(ع) قد أركبها دابة وقادها إلى بيوت الأنصار ليلاً يطرقها عليهم ويستجديهم النصر كما تنص على ذلك الرواية المذكورة فلا أرى ما يوجب ذلك مادام موقفها

واضحاً لدى الجميع وقد أعلنته في المسجد وغيره بلهجة كانت أشد من الصواعق، ولم يكن ما يدعوها إلى التكتم حتى تقوم سراً وفي جوف الليل تستحث الأنصار على نصرتها كما تزعم الرواية المذكورة.... هذا بالإضافة إلى أنّ علياً (ع) لم يفكر بالثورة المسلحة على الوضع الجديد لا سيما وقد اتسعت حركة الردة وأصبحت تهدد الإسلام في خارج المدينة. ومصلحة الإسلام كانت في حسابه وحساب الصديقة لا يعادلها شيء ولم تكن ثورة الزهراء وعلي (ع) إلاّ لتسجيل عدواتهم وانحرافهم عن الخط الذي وضعه الرسول فيما يعود لخليفته الشرعي منذ بداية الدعوة حتى النفس الأخير من حياته، وما كانت قصة فدك والعوالي وسهم ذوي القربى إلاّ كرد من جانب أبي بكر وأنصاره على ثورة الزهراء ومواقفها من خلافة أبي بكر خلال تلك الفترة القصيرة من حياتها بعد أبيها.......

حديث فدك

ونعود بعد هذه الدراسة الموجزة لموقفها من الانقلابيين إلى الحديث عن فدك التي استأثرت بقسط كبير من الأخذ والرد عند السنة والشيعة وكان ولا يزال الحديث عنها مسرحاً للجدل العنيف بين الفريقين، واقترن تاريخها بتاريخ الصراع على السلطة بعد وفاة الرسول (ص) الذي تمخض عن إقصاء علي عنها....

وهي قرية من قرى الحجاز بينها وبين المدينة مسيرة يومين أو ثلاثة أيام على أبعد التقادير، وتقع إلى جوار خيبر التي كانت من أكبر القرى اليهودية وأمنعها حصوناً وبعد أن تغلب المسلمون على خيبر بعد تلك المعارك الضارية بينهم وبين يهودها واستولى عليها المسلمون تركهم النبي (ص) يعملون في الأرض بنصف نتاجها والنصف الآخر للفاتحين. ولما انتهى النبي منها ضاق الأمر بسكان فدك وأيقنوا أن النبي سوف يتجه إليهم فاستولى عليهم الخوف وأرسلوا إليه أنّهم على استعداد لأن يسلموه الأرض وجميع ما يملكون على أن يتركهم يعملون فيها بنصف الناتج كما صنع مع يهود خيبر فوافق على ذلك فصالحهم على نصف ناتجها وبذلك كانت خيبر ملكاً للنبي (ص) لأنّه لم يوجف عليها بخيل أو ركاب، وقد وهبها النبي (ص) لفاطمة الزهراء وتركتها في يد النبي يتصرف بناتجها كما تريد وتأخذ منه ما يكفيها وولدها كما تجمع على ذلك المصادر الشيعية وبعض المصادر السنية....

وجاء في الدر المنثور للسيوطي عن البزار وأبي يعلى وابن حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أنّه قال: لما نزلت الآية وآت ذا القربى حقه، دعا رسول

الله فاطمة الزهراء وأعطاها فدكاً. كما روى ذلك جماعة عن ابن عباس وغيره.

كما جاء في شرح النهج عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله (ص) بعد أن استولى على فدك وهبها لفاطمة وظلت في يدها إلى أن توفي وبعد وفاته انتزعها أبو بكر وضمها إلى أموال الدولة ولمّا طالبته بها أجاب بأنّه سمع رسول الله يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث....

وفي رواية ثانية قال لها: إنَّ أباك لم يترك درهماً ولا ديناراً وقد قال: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة. وأني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها الذي كانت عليه....

وقال ابن أبي الحديد في المجلد الرابع من شرح النهج: إنَّ أبا بكر قال لها يا أبنة رسول الله، والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهماً وأنّه قال: إنَّ الأنبياء لا يورثون، فقالت إنّه وهبها لي بعد أن استولى عليها، فطلب منها من يشهد لها بذلك فأحضرت علياً وأم أيمن فشهدا بأنَّ رسول الله قد وهبها إياها، كما شهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف بأن رسول الله كان يقسمها بين المسلمين فقال لها: صدقت يا بنت سول الله وصدق علي وأم أيمن كما صدق عمر وعبد الرحمن أن مالك لأبيك وقد كان يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقي بين المسلمين فما تصنعين بها؟ قالت: أصنع بها كما كان يصنع أبي. فقال لها لك الله: أن اصنع أنا كما كان يصنع أبوك فوافقته على ذلك كما تزعم هذه الرواية.... وتنص بعض المرويات على أنّه قد كتب لها كتاباً في فدك وأشهد عليه، ولكن عمر بن الخطاب قد انتزعه منها وحرقه، وأكثر الروايات تنص على أنّه قد ردّ شهادة علي (ع) بحجة أنه يجر المنفعة لنفسه ورد شهادة أم أيمن لأنّه لا بدَّ في مثل ذلك من شهادة رجلين أو رجل وامرأتين...

وفي رواية سليم بن قيس أنَّ أبا بكر قد أراد أن يكتب لها كتاباً في فدك ولكن عمر بن الخطاب قد حال بينه وبين ما يريد وقال له: إنَّ علياً يجر النار لقرصه وأم أيمن امرأة أعجمية لا تفصح عما تريد، ولما عرضت عليه شهادة الحسنين قال له: إنهما صغيران لا تجوز شهادتهما.....

هذا هو مجمل ما جاء حول قضاء أبي بكر في دعوى الزهراء (ع).

نظرة حول قضية فدك

ومع أنّ في النفس شيئاً من جميع هذه المرويات ولكني سأتابع الحديث عنها كما رواها المحدثون وانطلاقاً من هذا الواقع لا بد من تسجيل بعض الملاحظات على موقف أبي بكر وعمر من هذه الحادثة، فلقد خالفا حكم الإسلام في ردهما لشهادة علي (ع) ذلك لأنّ القرابة وحدها لا تمنع من قبول الشهادة كما خالفا رسول الله في اتهامه بالتحيز للزهراء (ع) وقد سمعاه أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة يقول: علي مع القرآن والقرآن مع علي. وعلي مع الحق والحق مع علي وغير ذلك من الآيات والروايات التي تؤكد بأنّه فوق الشبهات. هذا بالإضافة إلى أن حكم الإسلام في هذا النوع من الدعاوى القضاء بها بشهادتي عدلين، أو شاهد ويمين المدعي....

وكان على أبي بكر أن يحلفها اليمين الشرعية مع شهادة علي (ع) ويحكم لها كما تقتضيه أصول القضاء. ولا أظنهما يجهلان ذلك فلقد كان النبي(ص) يحاكم ويقضي على هذا النحو بحضورهما والسؤال الذي يفرض نفسه في المقام هو أنّه إذا كان النبي أعطاها فدكاً كما ادعت وهي الصادقة في دعواها بلا شك في ذلك وكانت تستغل منها ما يكفيها وتترك الباقي يتصرف به النبي فمن غير المتصور أن يخفى ذلك على المسلمين وبخاصة أولئك الذين كانوا على اتصال دائم به، فلماذا والحال هذه لم يتقدم للشهادة غير علي وأم أيمن والحسنين كما في بعض الروايات والجواب عن ذلك: أنّ فاطمة الزهراء(ع) لم تستعص عليها الشهود ولم تكن مضطرة إلى إشهاد أم أيمن أو ولديها الحسن والحسين وهما طفلان صغيران يوم ذاك، بل كان لديها من

الشهود ما لا يستطيع أحد أن يطعن بشهادتهم في مثل هذه المواضيع كأبي ذر وعمار والمقداد والعباس وأولاده وسلمان وأبي سعيد الخدري وغيرهم ممن يشهدون بصدقها فيما تدعيه ولو تعرضوا لأشد أنواع العذاب والعقاب، ولكن إذا صح أنها وقفت هذا الموقف فيبدو أن موضوع فدك لم يكن يهمها ولا هو من أهدافها، وإذا صحّ أنّها قد أحضرت علياً والحسنين للشهادة فذاك لكي تسجل على القوم رداً صريحاً لنصوص الرسول فيه وفي ولديه، على أنها لو أحضرت عشرين شاهداً من خيرة الصحابة لم يكن مستعداً للقضاء لها بما تطلب، بل كان على ما يبدو من سيرة الأحداث مستعداً لأن يعارض شهادتهم بعشرات الشهود كما عارض شهادة علي وأم أيمن بشهادة عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف كما نصت على ذلك رواية شرح النهج السابقة وعارض إرثها من أبيها بحديث نحن معاشر الأنبياء لا نورث... وفي رواية ثانية لا نورث ما تركنا صدقة.... هذا الحديث الذي أجمع المؤرخون والمحدثون على أنّه المصدر الوحيد له، ولم يدّع أحد من الصحابة أنه سمعه من رسول الله غير أبي هريرة وكل من رواه من بعده فقد أسنده إليه.

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام، هو أنّه هل يجوز على النبي أن يشرّع حكماً يخالف نصوص القرآن التي تنص على ميراث الأبناء للآباء ويخفي هذا التشريع عن جميع المسلمين حتى الذين كانوا ألصق به من جميع الناس كعلي وأمثاله من ذويه وقرابته وهو يمسهم مباشرة ولا يبلغه إلّا لأبي بكر وحده، مع العلم بأنّه كان فيما يعود للتشريع عند نزول الوحي عليه يجمع المسلمين ويبلغهم لأنَّ التشريع يعم الجميع ولو كان المخاطب به النبي.... وهل يجوز عليه أن يخفيه عن ابنته وابن عمه باب مدينة العلم ومن عنده علم الكتاب وهو يعلم أنَّ ذلك يعرضها للخلاف مع من يلي أمور المسلمين. ويؤدي إلى اختلاف المسلمين أنفسهم. بل ويعرضها إلى المطالبة بما لا تستحق ويؤدي بالتالي إلى إيذائها وغضبها وقد قال أكثر من مرة: إنَّ الله يغضب لغضبها ويرضى لرضاها. وقال: إنها بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها ولا أظن أحداً يؤمن بالله ورسوله ويعرف الأسلوب الذي كان يتبعه بتبليغ الأحكام ومكانة الزهراء وعلي من نفسيه يتردد في كذب الحديثين المنسوبين إلى أبي بكر...

وعلى أي الأحوال فلقد طالبت الزهراء (ع) في غلتها وإرثها من أبيها بلا شك في ذلك وأنَّ أبا بكر قد تجاوز الحد في معاملته لها، والذي كان يعنيها أكثر من أي شيء سواه امتداد سلطة أبيها وانتشار رسالته كما يبدو ذلك في جميع مواقفها وكانت فدك والميراث من جملة المظالم التي أرادت أن تسجلها على القوم، وما تصنع بفدك وغيرها وهي تعلم بأنها سوف تلحق بأبيها بعد أيام معدودات كما أخبرها هو بذلك في الأيام الأخيرة من مرضه وهو يصارع الموت كما اشتهرت الرواية بذلك....

محاورة الزهراء مع الانقلابيين وخطبتها في المسجد

لقد وقفت الزهراء (ع) موقفاً حازماً من الخلافة وإرثها وحقها في فدك كما ذكرنا ولما رأت إصرارهم على موقفهم أرادت أن تعلن رأيها وظلامتها على أكبر جمهور من المسلمين حتى لا تترك عذراً لمعتذر واستغلت اجتماع المسلمين في مسجد أبيها في يوم من أيام الجمعة فلاثت خمارها وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ في ذيولها ما تخرم مشيتها مشية رسول الله حتى دخلت على أبي بكر وعنده حشد كبير من المهاجرين والأنصار في المسجد وقيل في بيته كما جاء في رواية أخرى - وقد وصف حفيدها عبد الله بن الحسين بن الحسن السبط موقفها هذا فقال: لما دخلت عليهم ضرب أبو بكر بينهم وبينها ربطة بيضاء أو قبطية، ثم أنّت أنّة اجهش لها القوم بالبكاء، فأمهلهم طويلاً حتى سكتوا ثم قالت ابتدئ بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد الحمد لله على ما أنعم به وله الشكر بما ألهم ومضت تعدد نعم الله على عباده ومواقف أبيها وتضحياته في سبيل الدعوة حتى أنقذهم من الضلال وعبادة الأوثان والأصنام ثم توجهت إلى ذلك الحشد وقالت: أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه وحملة دينه ووحيه وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، وزعيم حق له فيكم وعهد قدمه إليكم وبقية استخلفها عليكم كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع بينة بصائره منكشفة سرائره متجلية ظواهره قائد إلى الرضوان اتباعه مؤد إلى النجاة استماعه به تنال حجج الله المنورة وعزائمه المفسرة ومحارمه المحذّرة وبيناته الجالية.... ومضت في خطبتها تقول: لقد جعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك والصلاة تنزيهاً لكم من الكبر والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق.

والصيام تثبيتاً للإخلاص والحج تشييداً للدين.... وظلت تتحدث عن الفوائد التي يجنيها المسلم من فروع الإسلام وأصوله حتى خلصت إلى القول: لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم وأخا ابن عمي دون رجالكم ولنعم المعزي إليه فبلغ الرسالة صادعاً بالنذارة مائلاً عن مدرجة المشركين ضارباً ثبجهم آخذاً بكظمهم داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة يكسر الأصنام وينكث الهام حتى انهزم الجمع وولوا الدبر وتعزى الليل من صبحه وأسفر الحق عن محضه ونطق زعيم الدين وخرست شقائق الشياطين وطاح وشيظ النفاق وانحلت عقدة الكفر والشقاق وفهتم بكلمة الإخلاص وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة للشارب ونهزة للطامع وقبسه العجلان.

وموطئ الأقدام تشربون الطرق وتقتاتون القد، أذلة خاسئين تخافون أن يتخاطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله بأبي محمد بعد اللتيا والتي وبعد أن مني بهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما أوقدوا ناراً أطفأها الله أو نجم قرن للشيطان وفغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفئ حتى يطأ خماصها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه مكدوداً في ذات الله مجتهداً في أمر الله قريباً من رسول الله سيد أولياء الله مشمراً ناجحاً كادحاً وأنتم في رفاهية من العيش وادعون فاكهون تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون الأخبار وتنكصون عند النزال وتفرون عند القتال، فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه ومأوى أصفيائه ظهرت فيكم حسكية النفاق، وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم بدعوته مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً وأحشكم فألفاكم غضاباً فوسمتم غير إبلكم. وأوردتم غير مشربكم هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة ألا في الفتنة سقطوا وأنّ جهنم لمحيطة بالكافرين. ومضت في خطبتها التي كانت أشد على القوم من وقع الصواعق – تقول: لقد خلفتم القرآن وراء ظهوركم، أرغبة منه تريدون أم بغيره تحكمون بئس للظالمين بدلاً ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين أفحكم الجاهلية تبغون

ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون....

ثم التفتت إلى أبي بكر وقالت: أُغلب عن إرثه يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي. لقد جئت شيءاً فرياً أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول: ﴿ وورث سليمان داوود ﴾، ويقول: فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا ﴿رب هب لي من لدنك ولياً، يرثني ويرث من آل يعقوب﴾، ويقول: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب﴾، ويقول: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾، وقال: ﴿ إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾، وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا أفخصّكم الله بآية أخرج منها أبي، أم هل تقولون أهل ملتين لا يتوارثان. أولست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة، أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي فدونكها مخطومة مرحولة للقياك يوم حشرك فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ولا ينفعكم إذ تندمون، ولكل بناء مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم.... وجاء في شرح النهج انها التفتت إلى قبر ابيها وتمثلت بقول هند بنت أثاثة:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة — لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

أبدت رجال لنا نجوى صدورهم — لما قضيت وحالت دونك الخطب

تهجمتنا رجالٌ واستخف بنا — إذ غبت عنا فنحن اليوم نغتصب

ولم ير الناس أكثر باك ولا باكية منهم يومئذ... ثم اتجهت تخاطب الانصار وقالت:

يامعشر البقية وأعضاء الملّة وحصنة الإسلام ماهذه الفترة عن نصرتي والسنة عن ظلامتي والغميزة في حقي، أما كان رسول الله يقول: المرء يحفظ في ولده، سرعان ما أحدثتم وعجلان ما آتيتم ألئن مات رسول الله أمتم دينه، ها

إن موته لعمري خطب جلل استوسع وهنه واستبهم فتقه وفقد راتقه واظلمت الأرض له وخشعت الجبال وأكدت الامال وأضيع بعده الحريم وهتكت الحرمة وتلك نازلة أعلن عنها كتاب الله قبل موته وانبأكم بها قبل وفاته فقال: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيءاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ أيها بني قيله اهتضم تراث أبي وأنتم بمرأى ومسمع تبلغكم الدعوة ويشملكم الصوت وفيكم العدة والعدد والأداة والقوة وأنتم نخبة الله التي انتخب وخيرته التي اختار باديتم العرب وبادهتم الأمور وكافحتم البهم، حتى دارت بكم رحى الإسلام ودرحلبه وخبت نبرات الحرب وسكنت قوة الشرك وهدأت دعوة الهرج واستوثق نظام الدين، فتأخرتم بعد الإقدام ونكصتم بعد الشدة وجبنتم بعد الشجاعة عن قوم نكفوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون.. ألا وأنكم قد أخلدتم الى الخفض وركنتم إلى الدعة فجحدتم الذي وعيتم ودعستم الذي سوغتم وأن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّ الله لغني حميد...

ومضت تقول: ألا وقد قلت ماقلت لكم على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم وخور القناة وضعف اليقين، فدونكموها فاحتووها مدبرة الظهر ناقبة الخف باقية العار موسومة الشعار موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة، فبعين الله ماتعلمون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون...

ويبدو أن كلامها قد أثر على كثير من المسلمين وبدأت بوادر الندم تظهر عليهم وأخذوا يتحدثون بظلامتها ويلومون أنفسهم على موقفهم المتخاذل منها ومن حق علي في الخلافة.....

وهذا مما دعى أبو بكر إلى صعود المنبر وقال كما جاء في شرح النهج: أيها الناس ماهذه الرعة إلى كل قاله لئن كانت هذه الأماني في عهد رسول الله ألا ومن سمع فليقل ومن شهد فليتكلم هو ثعاله شهيده ذنبه مرب لكل فتنة، هو الذي يقول: كروها جذعة بعد ما هرمت يستعينون بالضعة ويستنصرون بالنساء كأم طحال أحب إليها البغي ألا وأني لو أشاء أن أقول لقلت، ولو قلت لبحت إني ساكت ما تركت.... ثم التفت إلى الأنصار وقال: لقد بلغني يامعشر الأنصار مقالة سفهائكم وأحق من لزم عهد رسول الله (ص) أنتم فقد جاءكم فآويتم ونصرتم. الا وإني لست باسطاً يداً أو لساناً على من لم يستحق ذلك منكم... وقال ابن أبي الحديد في شرحه: لقد قرأت هذا الكلام على النقيب أبي يحى جعفر بن يحي بن زيد البصري وقلت له بمن يعرض فقال بل يصرح قلت لو صرح لم اسألك فضحك وقال بعلي بن أبي طالب (ع) قلت هذا الكلام كله لعلي (ع) بقوله قال نعم إنه الملك يابني، قلت فما مقالة الانصار؟ قال: لقد هتفوا بعلي (ع) فخاف من اضطراب الأمر فنهاهم، وأضاف إلى ذلك ابن أبي الحديد لقد سألت عن غريبه فقال أما الرعة بالخفيف فهي الاستماع والإصغاء والقالة هي القول، وثعاله اسم للثعلب علم غير معروف مثل ذؤالة للذئب. وشهيده ذنبه أي شاهد له على مايدعي إلّا بعضه وجزء منه واصل ذلك مثل معروف يتحدث به العرب، فلقد قالوا إن الثعلب أراد أن يغري الأسد بالذئب فقال له: إنّ الذئب لقد أكل الشاة التي كنت قد أعددتها لنفسك وكنت حاضراً فقال: ومن يشهد لك بذلك، فرفع ذنبه وعليه من دمها وكان الأسد قد افتقد الشاة فقبل شهادته وقتل الذئب... وكروها جذعة أي أعيدوها إلى الحال الأولى يعني الفتنة والهرج وأم طحال امرأة بغي عاشت في الجاهلية وكان يضرب بها المثل فيقال أزنى من أم طحال.

وعلى أي حال فإن صح أنها وقفت هذا الموقف في مسجد النبي (ص) وخاطبت الانصار المهاجرين بتلك اللهجة القاسية التي لا بديل عنها فلا بد وأن يكون لكلامها أثره وقد نصت الرواية على أنَّ فريقاً من الأنصار قد هتفوا بعلي (ع)، ولكنه أمرهم بالخلود والسكينه خوفاً من اضطراب الأمر مما يدل على أن القوم فهموا ماتعنيه وترمز إليه من تقريعها لهم ووصفهم بالارتداد والنفاق. وكذلك هتفوا بعلي وخاف أبو بكر أن ينتقض الأمر عليه فوقف يهدد ويتوعد ويحذر من أي تحرك جديد ضد الوضع القائم...

ومما يؤكد أن الخلافة وحدها كانت تعنيها في جميع تحركاتها أنَّ حديثها مع نساء المهاجرين والأنصار الذي نقلنا شطراً منه في الصفحات السابقة كان يدور حول الخلافة وحدها وموقف رجالهنّ المتخاذل منها ولم تتعرض لفدك ولا لغيرها من سهام ذوي القربى والإرث.

وحسبما أعتقد أنها لم تتحدث عن الإرث في خطابها في المسجد إلَّا لتسجل عليهم تجاوزاً صريحاً لما أنزل الله سبحانه في كتابه بالإضافة إلى استيلائهم على الخلافة الذي تجرعت مرارته وكان أشد ايلاماً لنفسها من جميع الأحداث التي تلت وفاة أبيها...

ومما لاشك فيه بأن حرصها البالغ أقصى حدوده على هذا الأمر لم يكن إلّاَ لأنها كانت ترى أن مصلحة الإسلام العليا تقتضي ذلك واستيلاء علي عليها سيكون امتداداً لسلطة النبي التي كانت لخير الإسلام ونشره...

ومما يدل على أنَّ مصلحة الإسلام كانت في نظرها فوق جميع الاعتبارات ماجاء في رواية شرح النهج وغيره من المرويات الشيعية أنها قد رجعت من المسجد بعد خطابها وبيدها كتاب كتبه لها أبو بكر في فدك، فانتزعه منها

عمر بن الخطاب وخرقه فقالت له: بقر الله بطنك كما بقرت صحيفتي هذه....

وتضيف الروايات الشيعية إلى ذلك أنها رجعت إلى البيت بعد موقف عمر بن الخطاب منها مكسوره مهضومة فتحدثت مع علي(ع) بكلام تبدو عليه الشدة والقسوة وفيما هي تحدثه وإذا بالمؤذن يقول: أشهد أنَّ محمداً رسول الله فقام عند ذلك إلى السيف وقال لها: أتريدين الخلافة والإرث أم تريدين رسالة أبيك وبقاءها فتعلقت به وقال حسبي ذلك إلى غير ذلك مما يرويه المؤرخون حول هذا الموضوع.

ومهما كان الحال فالحديث عن فدك وميراث الزهراء من أبيها ومواقفها من ذلك ومن الخلافة طويل وكثير وبلا شك فإن الأصحاب والأعداء قد وضعوا القسم الأكبر مما هو بين أيدي الرواة ولا يثبت بعد التمحيص والتدقيق في تلك المرويات إلّا القليل، ومع ذلك فالشيء المتيقن أنها وقفت موقفاً صلباً وحازماً من حق علي في الخلافة وحقها في الميراث وأحرجت أخصامها ووضعت المهاجرين والأنصار في حدود مسؤولياتهم حتى هتف عدد كبير منهم بعلي(ع) ولكن تباشير الردة التي اتسع نطاقها خارج المدينة وأصبحت تهدد المدينة بالذات قضت على علي (ع) أن يتدارك الأمر ويتجاهل كل ما بدر منهم... وأضاف بذلك تضحية كبرى إلى تضحياته الجسام في سبيل الإسلام، وبقيت فدك في أيدي القوم يستغلونها لصالحهم كما في بعض

1- قارئي العزيز سيمر عليك في هذا الكتاب كيف أن سيدنا علي عندما رفض عبد الله بن عمر بن الخطاب المبايعة لمولانا علي لم يجبره رغم أنّ كل السلطة كانت في يده ورغم أنّ ابن عمر كان شاذاً ومارقاً عن الإجماع الإسلامي لمبايعة سيدنا علي. بينما أبوه يحمل الحطب لإحراق بيت الإمام ويريده أن يبايع بقوة السلاح وبالإكراه لبيعة قال عنها فيما بعد لقد كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه، فانظر يا من هداك الله إلى هذا الموقف.

الروايات ولصالح المسلمين كما في بعضها الآخر.... وكان عليهم أن يراعوا وصية رسول الله (ص) فيها ويتجنبوا غضبها الذي يغضب له الله كما أخبرهم بذلك أبوها الذي لا ينطق عن الهوى. وأن لا يؤذوا رسول الله فيها وقد سمعوه أكثر من مرة يقول من آذى فاطمة فقد آذاني. كان من المفروض عليهم ذلك حتى ولو افترض محالاً بأنها قد ادّعت ما ليس لها، ولا أحسب أن أحداً من المسلمين يعارضه أو ينكر عليه فيما لو ترك لها فدكاً وسهم ذوي القربى ولكن الأمر كان أبعد من ذلك كما ذكرنا....

وكما ذكرنا لقد بقيت في أيديهم يتصرفون بها كما يشاؤون ولما انتقلت الخلافة لعلي (ع) تصرف بها لصالح المسلمين كما كان يتصرف في أمواله الخاصة في هذا السبيل، وفي عهد معاوية وزعها أثلاثاً ثلثاً لمروان بن الحكم وثلثاً لعمر بن عثمان وثلثاً ليزيد بن معاوية وخلصت أخيراً لمروان بن الحكم فوهبها لولده عبد العزيز بن مروان ووهبها عبد العزيز لولده عمر بن عبد العزيز، ولما انتهت إليه الخلافة كانت أول ظلامة ردها على العلويين فقد استدعى الحسن بن الحسن وسلمها له.... لقد ظلت الزهراء بعد أبيها في الأشهر الثلاثة أو الستة في جهاد مستمر ونضال شاق مع أخصامها الجدد الذين استطاعوا السيطرة على أمور المسلمين بعد تخطيط مدبر ومدروس فوقفت لهم بالمرصاد وناضلتهم بالحجة والمنطق. وظل القوم جادون في أمرهم لم يراعوا لها حرمة ولا حفظوا لرسول الله (ص) وصية فيها وفي آله وراحوا يلاحقون علياً ويطلبون بيعته. وكان قد أبى عليهم واعتصم هو وجماعة من خيرة الصحابة في بيته، فأرسل أبو بكر عمر بن الخطاب على رأس جماعة من أنصاره لمداهمة الدار والإتيان بمن فيه إلى المسجد مهما كانت النتائج، وأقبل ابن الخطاب بمن معه يحملون الحطب لإحراق البيت على أهله إذا تعسر عليهم إخراج من فيه بقوة السلاح، وصاح ابن الخطاب بأعلى صوته يدعوهم إلى الخروج منها

2–الذي يكاد أن يكون متفقاً عليه بين المؤرخين والمحدثين أن الذي خرج لمقابلة القوم الزبير ابن العوام وقد عثر ووقع السيف من يده فسبق إليه ابن الخطاب وضرب به الحائط ورواية اليعقوبي هذه لعلها غلط منه أو من الناسخ.

طائعين قبل أن يخرجوا منها مكرهين. ومضى يقول: والذي نفس ابن الخطاب بيده لتخرجنَّ من الدار ولأحرقنَّها عليكم[1]......

وجاء في تاريخ اليعقوبي صفحة 105 من المجلد الثاني أنَّه بلغ أبا بكر أنَّ جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع ابن أبي طالب في منزل فاطمة الزهراء فأتوا في جماعة حتى هجموا على الدار وخرج علي ومعه السيف فلقيه عمر بن الخطاب فكسر سيفه ودخلوا الدار فخرجت فاطمة وقالت لتخرجن أو لأكشف شعري وأعجن إلى الله فخرجوا وخرج من في الدار[2]

وقال أبو الفداء في الصفحة 64 من المجلد الثاني من تاريخه: أنَّ عمر بن الخطاب أقبل ومعه النار ليحرق عليهم البيت فخرجت فاطمة وقالت له: إلى أين يا ابن الخطاب جئت لتحرق دارنا قال: نعم أو تدخلوا فيما دخل فيه المسلمون....

وأيد ذلك المسعودي في مروجه وابن قتيبة في الإمامة والسياسة والطبري وابن أبي الحديد في شرح النهج وغير هؤلاء من المؤرخين والمحدثين.

وتنص بعض المرويات أنَّ بعض الصحابة لفت نظره إلى أنَّ في الدار فاطمة وولدها في معرض الإنكار عليه، فرد عليه بقوله: وإن كانت فيها، ووقفت الزهراء تستغيث بأبيها وتقول: ماذ لقينا من أبي بكر وابن الخطاب من بعدك يا رسول الله، وتنص بعض المرويات أنهم أخرجوا علياً من الدار وانطلقوا إلى المسجد وطلبوا منه البيعة وهددوه بالقتل إن لم يبايع فقال إذا تقتلون عبد الله وأخا رسول الله، واندفع ابن الخطاب نحوه يقول: أما عبد الله فنعم ولكنا لا نعترف لك بأكثر من ذلك....

وتضيف إلى ذلك تلك المرويات أنَّ أبا بكر أحسّ بأنَّ الأكثرية من المسلمين لا يستسيغون هذا الأسلوب الفج المتغطرس مع رجل كعلي بن أبي طالب لا سيما وقد رأوا فاطمة تتململ بين يديه تستغيث بأبيها تارة وبالمسلمين تارة

أخرى. فخاف أن يستفزّهم هذا الموقف المؤلم وينقلبوا عليه، فتركه ورجع الإمام (ع) فاتجه نحو قبر النبي شاكياً ما يلقاه من قومه يقول: يا رسول الله إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلوني.... وفي رواية أخرى أنهم لما أرادوا الدخول إلى بيتها وإخراج علي منه أرادت أن تحول بينهم وبين ذلك ضربها قنفذ على وجهها وأصاب عينها. وفي رواية ثانية أن عمر بن الخطاب ضربها بالسوط فأثر ذلك في عضدها كالدملج على حد تعبير الرواية.... وفي رواية ثالثة: إنها وقفت خلف الباب لتمنعهم من دخوله فاندفعوا نحو الباب ودفعوه نحوها فكانت حاملاً فأسقطت ولداً كان رسول الله قد سمّاه محسناً...

وفي بعض المرويات: أنها خرجت خلف علي (ع) ومعها نسوة من مخدرات بني هاشم وأقبلت نحو المسجد وقالت لهم خلوا عن ابن عمي والذي بعث محمداً بالحق إن لم تخلوا عنه لأنشرنّ شعري ولأضعنّ قميص رسول الله على رأسي فما ناقة صالح بأكرم على الله مني ولا فصيلها بأكرم عليه من ولدي، وكان سلمان الفارسي قريباً منها وهي تخاطب القوم كما يزعم الراوي فقال: لقد رأيت حيطان المسجد تعلقت من أسفلها حتى لو أراد الرجل أن يخرج من تحتها لخرج فجئت إليها وقلت لها يا بنت رسول الله: لقد بعث أبوك رحمة فلا تكوني أنت السبب في هلاك الأمة، ولما رأى القوم ما حلَّ بهم تركوه ورجع معها إلى بيته.

إلى كثير من الروايات التي لا تثبت أسانيدها في مقابل النقد العلمي. ومع ذلك فليس ببعيد على الله أن يستجيب لها لو سألته أن يأخذ لها بحقها منهم، ولكنها وآباءها وأبناءها الكرام على كثرة ما مرَّ عليهم من ظلم واضطهاد وترويع من أعدائهم لم يسألوا الله سبحانه أن ينتقم لهم في الدنيا وقابلوا كل أنواع البلاء بالصبر الجميل والرضا بقضائه لينعموا بما أعده الله للصابرين في الدار الأخرى وقدموا بذلك أروع الأمثلة في الجهاد والتضحية في سبيل الله والعمل لخير الناس أجمعين.

ولقد مرضت فاطمة (ع) بعد أن حطمتها الأحزان فمن موت أبيها إلى اغتصاب الخلافة من ابن عمها إلى انتزاع فدك من يدها وحرمانها من إرثها إلى غير

ذلك من المصائب التي أحاطت بها فلم يعد جسمها النحيل يقوى على تحمل تلك الأحداث فلازمت الفراش وبدا عليها الجهد والإعياء وشاع ذلك بين المهاجرين والأنصار. وندم القوم على سوء صنيعهم معها فأقبل أبو بكر وعمر بن الخطاب إلى بيتها نادمين على ما صنعا معها فأبت أن تأذن لهما وأصرت على موقفها فاستجارا بأمير المؤمنين ورغبا إليه أن يدخلا عليها عائدين فعرض عليها طلبهما فلم ترد طلبه فدخلا وسلما عليها فلم ترد عليهما وأشاحت بوجهها عنهما ولم تسمح لهما بالحديث معها، وبعد أن ألحا في طلبهما سمحت لهما بذلك فقال أبو بكر: يا حبيبة رسول الله والله إنَّ قرابة رسول الله أحبّ إليَّ من قرابتي وإنَّك لأحبّ إليَّ من عائشة ابنتي ولوددت يوم مات أبوك أني مت قبله.... ومضى يقول: أقر أني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وما أمنعك حقك وميراثك من رسول الله (ص) إلّا لأني سمعت رسول الله (ص) يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة.... ولكنها تجاهلت إرثها وحديثه الذي نسبه لأبيها والتفتت إليهما وقالت: نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله (ص) يقول: (رضا فاطمة من رضاي وسخطها من سخطي، ومن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ومن أسخطها فقد أسخطني) فقالا أجل لقد سمعناه يقول ذلك فرفعت عند ذلك كفيها نحو السماء وقالت إني أشهد الله وملائكته ورسوله أنكما أسخطتماني ولئن لقيت رسول الله لأشكونكما إليه.... والتفتت إلى أبي بكر وقالت له: لأدعونّ الله عليك في كل صلاة أصليها ما دمت بين الأحياء..... من نظر إلى هذه الحادثة وتمعّنها بعين الإيمان تبين له بكل وضوح أنّ أهل السقيفة هم من الذين خالفوا الدين والإيمان والرسول بشهادة السيدة فاطمة المعصومة عن الخطأ والذي يرضى رسول الله لرضاها ويغضب لغضبها فما لكم كيف تحكمون أيها المسلمون....

قال وبقيت - كما في بعض الأخبار - بعد وفاة أبيها أربعين ليلة. فلما اشتد بها الأمر دعت علياً (ع) وأوصته بوصايا ومن جملتها أن لا يشهد أحد ممن ظلموها حقها جنازتها ولا دفنها ولا الصلاة عليها.

قال ابن عباس فقبضت فاطمة (ع) من يومها فارتجت المدينة بالبكاء من الرجال والنساء ودهش الناس كيوم قبض فيه رسول الله (ص) فأقبل أبو بكر وعمر يعزيان

علياً ويقولان له: يا أبا الحسن لا تسبقنا بالصلاة على بنت رسول الله (ص) وآله فلما كان الليل دعا علي (ع) العباس وأبناءه وسلمان ومقداد وأبا ذر وعمار فصلوا عليها ودفنوها ليلاً. وعفر علي أربعين قبراً في البقيع حتى لا يعرف قبرها.... فلما أصبح الناس أقبل أبو بكر وعمر والناس يريدون الصلاة على فاطمة (ع) فقال لهم المقداد: لقد دفنا فاطمة البارحة. فالتفت عمر وقال: لا تتركون يا بني هاشم حسدكم القديم لنا أبداً. إن هذه الضغائن التي في صدوركم لن تذهب والله لقد هممت أن أنبشها فأصلي عليها. فقال له علي (ع) والله لو رمت ذلك يا ابن صهاك لأرجعت إليك عينيك منفصلة عن جسدك قبل أن تصل إلى حجر من تلك الأحجار ولئن سللت سيفي لأغمدته دون إرهاق نفسك ولسقيت الأرض من دمائكم فانكسر عمر وسكت وعلم أنَّ علياً (ع) إذا حلف صدق. فرجعا يجرا أذيال الخيبة... وهكذا انتهت الأمور واستتبت لأصحاب الانقلاب. فلنر ماذا فعل سيدنا علي بعد وفاة السيدة فاطمة (ع).

وقد لخّص الشاعر الأزري حادثة السيدة فاطمة مع أصحاب الانقلاب بقوله:

أيها الناس أي بنت نبي ... عن مواريثه أبوها زواها

كيف يزوى تراثي عتيق ... بأحاديث من لدنه افتراها

هذه الكتب فاسألوها تروها ... بالمواريث ناطقاً فحواها

وبمعنى يوصيكم الله أمرٌ ... شامل للعباد في قرباها

كيف لم يوصنا بذلك مولانا ... وتيماً من دوننا أوصاها

هل رآنا لا نستحق اهتداء ... واستحقت تيم الهدى فهداها

أم ترانا أضلنا في البرايا ... بعد علم لكي نصيب خطاها

أنصفوني من جائرين أضاعا ... ذمة المصطفى وما رعياها

وانظروا في عواقب الدهر كم ... أمست عتاة الرجال من صرعاها

ما لكم قد منعتمونا حقوقاً ... أوجب الله في الكتاب أداها

وحذوتم حذو اليهود غداة ... اتخذوا العجل بعد موسى إلها

علي بعد البيعة

لقد انصرف أمير المؤمنين عن دنيا الخلاف عندما شعر أن الإسلام يوشك أن يتعرض للخطر إذا هو ظل على موقفه المتصلب من أصحاب الانقلاب فانشغل بجمع القرآن كما أنزله الله على رسوله يشرح لهم غوامضه ويفسر لهم مشكلاته والتف الناس من حوله بعد أن وجدوه مشعلاً من أنوار محمد يضيء لهم درب النجاة في حياتهم ويحل لهم ما أصابهم من مشاكل أو تعقيد... وإذا تجاهل المسلمون حقه الشرعي في الخلافة لمصالح سياسية طغت عليهم فليس بوسعهم أن يتجاهلوا قول الرسول فيه أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها. ولا بوسعهم أن ينكروا صلته الوثيقة بالرسول التي يسرت له أن يأخذ منه ما لم يتيسر لأحد سواه وهو القائل علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي في كل باب ألف باب ولقد سمعوا الرسول (ص) يقول له: يوم نزلت الآية وتعيها أذن واعية. لقد سألت ربي أن تكون أذنك يا علي فأعطاني ذلك وسمعوا علياً (ع) يقول بعد ذلك والله ما ترددت بشيء سمعته من رسول الله ولا نسيت منه شيءاً... لذلك لم يكن لهم بديل عن الرجوع إليه كلما تعقدت لديهم الأمور وتراكمت الحوادث التي كان يفرضها الزمان وما يتجدد فيه من أحداث وتقلبات ولم يكن هو لديه ما يشغله من تفقيه الناس وتعليم الأحكام ونشر رسالة الإسلام وتدوين الحديث والفقه ومحمل القول أنَّ الإمام علي (ع) بعد أن فرضت عليه مصلحة

المسلمين العليا أن ينصرف عن الخلافة اتجه أولاً إلى جمع القرآن وتدوين الفقه فألف الجامعة وطولها سبعون ذراعاً بخط يده وإملاء رسول الله (ص) على حد تعبير الراوي. وكان له مع ذلك دور بارز في القضاء والفتيا لم يكن لأحد سواه من أقطاب الصحابة فكان قوله الفصل إذا تعقدت الأمور ورأيه الأول والأخير إذا تباينت الآراء واختلفت الاتجاهات ولم يكن باستطاعة أحد أن يصرف الأنظار عنه إلى غيره ولا أن يحول بين الناس وبين الرجوع إليه في مشاكلهم وأحكام دينهم. وحتى من كانت السلطة بيدهم لم يجدوا بداً من الرجوع إليه والعمل برأيه في جميع المشاكل التي كانت تعترضهم ولم يجدوا لها حلاً من كتاب أو سنة بالرغم من أنه كان يهمهم تحويل الأنظار عنه وإضعاف مركزه في النفوس ولكنهم أدركوا أنَّ ذلك لم يكن في مقدورهم ولا في مقدور أي سلطة كانت، فانسجموا مع الواقع الذي يفرض نفسه...

وبلغ الحال بعمر بن الخطاب - المدبر الأول لكل ما تلا وفاة الرسول من أحداث إلى إقصائه عن الخلافة - بلغ به الحال أن قال مخاطباً أولئك الذين كانوا يتصدرون للإفتاء في مسجد الرسول (ص): لا يفتني أحدكم في المسجد وعلي حاضر، ولأكثر من مناسبة كان يقول لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن، ولولا علي لهلك عمر.... وإذا استطاع أصحاب الانقلاب أن يصرفوا عنه الخلافة بذلك الأسلوب الذي اتبعوه لتحقيق مطامعهم ورغباتهم فلن يستطيعوا أن يصرفوا الأنظار عن فقهه وعلمه وقضائه لا سيما وأنَّ أكثر المسلمين سمعوا رسول الله يقول علي باب مدينة العلم، وعلي أقضاكم وهو مع الحق والحق يدور معه كيفما دار وأنّى اتجه وأنّه لن يفترق عن كتاب الله.... وما إلى ذلك في عشرات المناسبات وكان دائماً سلام الله عليه يقول: سلوني قبل أن تفقدوني فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلّا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها.... ثم يلتفت إليهم ثانية ويقول سلوني

عن كتاب الله. فوالله الذي لا إله غيره ما من آية إلّا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار، أم بسهل أم جبل. ويروي عنه ابن أبي الحديد أنّه كان يقول: لو ثنيت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم.

لقد شهد كل ذلك وأغمض عينيه عما شهد وسمع، وترفع عما جبلت عليه نفس الإنسان وسدَّ أذنيه عن صوت أبي بكر يوم جمع الناس ليعهد بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب وكأنَّ خلافة المسلمين ملك له يورثه لمن يشاء ويهبه لمن يشاء، وبالأمس القريب أنكر هو وأصحابه حديث الوصاية لعلي، مدعياً بأنَّ الحق للمسلمين يولون من يجتمع أمرهم عليه وها هو اليوم يوصي بها لعمر بن الخطاب وكأنها من متروكات أبي قحافة ويتجاهل المسلمين ويقول أيها الناس إني والله ما آليت من جهد في الرأي ولا وليت ذا قرابة وإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا...

وفي رواية ثانية أنّه جمعهم وخطبهم بعد ان أحسّ بأنّه على أبواب الموت ولم يخبرهم بما أجمع عليه أمره، وكان أكثر الناس يترقبون أن يوليها لعمر بن الخطاب.

وبعد أن أنهى خطابه كتب عهداً لعمر وقال له: خذ هذا الكتاب واخرج به إلى الناس فخرج عمر وأعلمهم بما فيه فقالوا سمعنا وأطعنا وقال له رجل: ما في الكتاب يا أبا حفص؟ قال: لا أدري ولكني أول من سمع وأطاع فقال له الرجل: ولكني أدري ما فيه أمّرته عام أول وأمرك هذا العام، وكثر اللغط والحديث بين المسلمين وضجّ أكثرهم مما عزم عليه أبو بكر واتهموه بالتواطؤ على أن تسير الخلافة منه إلى عمر بن الخطاب وإلى أبي عبيدة بن الجراح من بعده - أي أقطاب الانقلاب -- وبعض المسلمين كان يحتج على أبي بكر بشدة ابن الخطاب وفظاظته وكان طلحة أكثرهم كلاماً وتحركاً لأنّه كان

يطمع بها بعد قرينه أبي بكر وذهب إليه يعاتبه وهو يعاني من آلامه، ولكنّه انتهره وحقّره وأخرجه من البيت ولم يترك له أملاً فيها فاستسلم وأطاع كغيره من الناس....

أمّا علي (ع) فكما ذكرنا كان يعلم بكل ما جرى ويعلم بأنّ المعارضة لا تجدي ولا تزيد الأمور إلّا تعقيداً، ولم تجده المعارضة بالأمس وكانوا أضعف منهم اليوم فكيف وقد تخلصوا من المرتدين واتجهوا إلى ما وراء الحجاز بكل قوتهم وذاقوا حلاوة الانتصارات المتتالية فمن غير المعقول أن يتجاهل حقه بالأمس لمصلحة الإسلام ويتمسك به اليوم وقد عبّر عمّا كان يختلج في نفسه ذلك اليوم بعد عشرين عاماً أو تزيد، يوم أصبح خليفة واحتوشت خلافته الأحداث وهبت في وجهها العواصف من كل جانب فقال في خطبته المعروفة بالشقشقية: أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وأنّه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير فسدلت دونها ثوباً وطويت عنها كشحاً وطفقت أرتأي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربّه....

فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى أرى تراثي نهباً ومالي غصباً حتى إذا مضى الأول لسبيله أدلى بها إلى ابن الخطاب من بعده فوا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشد ما تشطرا ضرعيها فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسها... إلى آخر الخطبة التي يصور فيها موقفهم من الخلافة وكيف تداولوها واحداً بعد الآخر وما جرى معه حين انتهت إليه...

وقال الأستاذ عبد الفتاح مقصود في كتابه علي بن أبي طالب وهو يتحدث عن موقفه منها بعد أن أوصى بها أبو بكر لعمر بن الخطاب من بعده قال: وكان هذا حرياً بأن يفصم الغضب قلب علي (ع) لأنّه اصرار على الحيف بعد

الحيف، ولكنه كظم وصبر ولم يضره أن يأخذ مقعده في ذيل الناس ما دام أصحاب الرسول قد بيتوا الأمر على نزع سلطان محمد من آله والخروج به ثانية من عقر بيته، ولم يكن هذا بمستغرب من قريش[1]... ولكنه كان عجباً غاية العجب من الشيخ بعد أن استوت بينه وبين علي الأمور، ولم تعد خافية على أبي بكر مكانة الشاب وأثره في حياة الجماعة الإسلامية[2] من تضحيات وبذل عند ولادة الدين ومن حكمة وفضل ودولة الإسلام تشق طريقها إلى الاكتمال.... ومضى عبد الفتاح يقول: ولكن الأسلوب الذي انتهجه عند الاختيار كان أسلوباً يستطاع وسمه بالهنات والأخطاء، وبدا وكأنّه أضمر التبييت لأمر وشاء تدبيره على غير علم من آل بيت الرسول ووقع بهذا الخطأ الذي وقع فيه عمر بن الخطاب من قبل عند وفاة الرسول (ص) إذ خرج بصاحبه إلى سقيفة بني ساعدة ولم يدع أحداً من آل هاشم إلى الخروج[3] وأضاف إلى ذلك: وقد أسقط أبو بكر من حسابه علياً الذي كان أولى بالرعاية وبالحساب من سواه وشاور غيره من صحبه قبل أن يقدم على اختيار من يخلفه وإن لم تكن المشورة فيما يبدو بقادرة على أن تجعله يحجم عن هذا الاختيار[4]

1- لأنه وتر آبائهم وإخوانهم وهم على الشرك فلم يغفروا له هذا الأمر ولو بعد تظاهرهم بالإسلام.

2- كأن أبا بكر لم يعرف فضائل علي قبل أن تستوي الأمور بينهما ولكنه التآمر ولكنه الانقلاب على الحق ولكنها الصحيفة التي تعاهدوا عليها من أجل أخذ حق آل البيت بعد وفاة الرسول.

3- وكيف يدعو أحداً من أصحاب الحق وهو مبيت أمره هو وأصحابه على الانقلاب عليهم وهذا ما حصل فعلاً.

4- فليعذرنا الأستاذ عبد الفتاح لأن نقول أنّ كلامه كان هو الصواب لو لم يكن الأمر متعاقداً عليه وما مشورة واحد أو اثنين أو الصحابة كلها بمانعته من إيكال الأمر إلى عمر أو أن يحجم عن اختياره.

وأي الناس في العرب كان يفضل ابن عم الرسول أو يقوم مقامه حتى يغض أبو بكر عن دعوته ليشاوره في الأمر[5] إنّ العجب كل العجب أن يلتمس الخليفة الصواب عند علي كلما اختلفت الآراء في مصير فرد واحد من رعاياه ثم لا يشاوره إذا أراد البت في مصير دولة جمعت كل رعاياه[6] كان هذا عجباً من رجل استخلف وهو على غير يقين أكان هو صاحب الأمر بعد رسول الله أم كان الأولى به سواه حتى لقد قال قبيل وفاته وعنده ابن عوف: لوددت أني كنت سألت رسول الله عن هذا الأمر فلا أنازعه أحداً [7] ومع ذلك فقد شاور صحبه - مشاورة صورية - قبل أن يدلي بهذا الأمر لعمر بن الخطاب ولم يشاور أولاهم بالمشورة وبسط الرأي.

لقد عهد أبو بكر بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب، وبلا شك أنّ ذلك كان عن سابق اتفاق بينهما وقد أفصح بعض أنصاره عن هذا التصميم بقوله: لقد أمّرك عام أول وأمّرته هذا العام وكان عثمان بن عفان من أكثر أنصاره حماساً لتولية عمر بن الخطاب....

لقد جاء في مجاميع التاريخ أن أبا بكر دعا إليه عثمان بن عفان وقال له: يا أبا عبد الرحمن أخبرني عن عمر بن الخطاب، فقال له أنت أخبر به يا خليفة رسول الله. ولما ألح عليه أبو بكر أن يتكلم قال اللهم علمي به أنّ سريرته خير

5- وأي من العرب كان في فضله أو في مقامه حتى أخذوا منه الخلافة واغتصبوا حقه.

6- يشاوره في الشيء الذي لا يعطيه سلطة أمّا ماذا يرد عليه إذا شاوره فيمن يخلفه وقال له الإمام أنا أحق بالخلافة أيرد عليه بأنّه متعاقد هو وعمر وبقية الخمسة على صحيفة بأن يزووا الأمر عنه.

7- وقناعتي أنّ هذا الحديث مختلق من أساسه وإذا صح فلذر الرماد في العيون بأنّه لم يكن هناك نص من النبي لعلي وإنما هم تولوا الخلافة بمشورة المسلمين ولم يغتصبوها من صاحبها الشرعي.

من علانيته وليس فينا مثله[8] فتفرجت أسارير أبي بكر وقال: رحمك الله يا عبد الله، والله لو تركت عمر بن الخطاب ما عدوتك وأوصاه أن يكتم ما دار بينهما من حوار وطلب منه أن يكتب له عهداً بخلافة عمر من بعده وراح يملي عليه فكتب:

هذا ما عهد به عبد الله بن عثمان إلى المسلمين وعند هذا الحد ثقل عليه الكلام وغاب عن الدنيا فرفع يده عثمان عن الصحيفة والتفت إلى أبي بكر فوجده أغمي عليه فخاف أن يفارق الحياة قبل إتمام الكتاب فأتمه هو وكتب فيه: أني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. ولما أفاق من غشيته وعرض عليه ما كتب أقره على ما كتب وأوصاه أن يدفع له الكتاب بعد أن ختمه بخاتم الخلافة[9].

هكذا تمت الخلافة لابن الخطاب بعد جدال بينه وبين طلحة متجاهلاً علي ابن أبي طالب مما يؤكد كما قلنا أنَّ عمله هذا لم يكن إلّا تنفيذاً لما أبرم من قبل، ومن الجائز أن يكون ابن عفان طرفاً في ذلك الاتفاق كما يشير إلى ذلك قول أبي بكر:

8- فعلاً يعلم أنّه ليس فيهم مثله من نصب المكائد والمظالم لأهل البيت وإخراجهم عن حقهم وسوف نفرد كتاباً خاصاً عن عمر بن الخطاب ودوره....

9- انظروا أيها المسلمون إلى هذه الحادثة كيف أنَّ أبا بكر قد غشي عليه وكتب عثمان الاسم وقبلتم بينما عندما أراد النبي (ص) أن يكتب كتاباً لن تضلوا من بعده قال عمر أنَّ الرسول ليهجر الرسول الذي لا ينطق عن الهوى يهجر وأبو بكر أغمي عليه وهو من عامة الناس وليس معصوم وكانت وصيته لعمر صحيحة ويلكم مالكم كيف تحكمون..... لماذا عندما يخطىء عمر تدافعون عنه بينما عندما نقول أن وصية أبي بكر خطأ تقفون في الجانب الآخر.

والله لولا عمر بن الخطاب ما عدوتك يا أبا عبد الرحمن ويشير إليه سكوت أبي سفيان وقد كان من أشد المعارضين لأبي بكر ويصف بيته كما أسلفنا - بأنّه أرذل بيت في قريش وفجأة سكت ومشي مع القوم فلقد كان لسكوته ثمن يرضيه ويرضي أسرته وأغلى مما يدعيه بعض المؤرخين من أنهم تركوا له ما جباه من الصدقات ونحو ذلك، ولا شيء يرضيه إلا أن يجعلوا لبيته نصيباً في السلطة. وها هو أبو بكر يولي ولده على الشام بعد أن تم جلاء القوات الرومانية عنها ويقول لعثمان: والله لولا عمر بن الخطاب ما عدوتك ويجيء عمر بن الخطاب بعد عشر سنوات ليفي لأسرة أبي سفيان بما عاهدها هو ورفيقه عليه فيجعلها لعثمان بأسلوب جديدحتى لا تكون لخلافته تلك الصبغة التي كانت لخلافة عمر... وسنوضح هذه الفكرة عند الحديث عن الشورى التي جعلها عمر بن الخطاب في ستة من المهاجرين....

ومهما كان الحال، فإنّ موقف أبي بكر من خلافة عمر بن الخطاب وترشيحه لعثمان بن عفان لها يتناقض مع قوله: أقيلوني منها فلست بخيركم وعلي فيكم، ومع قوله قبيل وفاته كما روى عنه المؤرخون: لا آسي إلّا على ثلاث خصال صنعتها ليتني لم أكن صنعتها، وثلاث ليتني كنت سألت رسول الله عنها، وثلاث ليتني كنت فعلتها، وعد من الثلاث التي كان يتمنى لو أنّه سأل رسول الله عنها، مصير الخلافة من بعده، وهل للأنصار حق فيها حتى لا ينازع أحدٌ حقه[10]. أقول غريب أمر هذا الشيخ ما دام وهو على فراش الموت شاكاً في أمره وخائفاً من أن تكون الخلافة لغيره وقد اغتصبها من أصحابها، ويتحسر لماذا لم يسأل رسول الله عن هذا الأمر فلماذا يرشح لها عثمان ويقسم بالله بأنه لولا ابن الخطاب ما تعداه، وإذا كان خائفاً كما يدعي ويحتمل أن يكون النبي قد جعلها لأحد قبل وفاته، أفلا يدور في خلده أن يكون علي بن أبي طالب أحد من جعلها له. ولماذا تجاهله وكأنّه لم يكن شيءاً مذكوراً ووضع في حسابه عثمان بن عفان، ولم يمنعه عن توليته إلّا وجود عمر بن الخطاب على قيد الحياة.... وقد أوضحنا من قبل أن قول أبي بكر بأني كنت أتمنى أن

10- انظر اليعقوبي طبع النجف ج2 ص116

أسأل رسول الله لمن الأمر من بعده لم يقل ذلك ولم يظهر بهذا المظهر إلا ليلقي ضباباً على فكرة النص على علي بن أبي طالب (ع) التي كان يتحدث بها الناس نتيجة لمواقف الرسول في غدير خم وغيره من المواقف......

وعلى أي الأحوال، فلقد وقف عبد الفتاح مقصود عند قولته لعثمان: لولا عمر بن الخطاب ما عدوتك وقفة لها دلالتها قال: لقد أصاب في اختياره حد التوفيق، واستطاع أن يمد في أجل الخلافة الروحية بضعة أعوام، وكلنا نراه حتى في هذا الصواب قد افتات حق علي (ع) الموسوم بالتقشف والزهد سمة قد تسبق عمر بن الخطاب لو سار كلاهما في هذا الطريق، وافتات ثالثة حق علي بمنطق اللسان حين سمعناه يقدم عليه ابن عفان ويقول له: لو تركت عمر ابن الخطاب ماعدوتك، فمن في الزاهدين كان عثمان وأي ميزة تفرد بها دون ابن أبي طالب واستحق معها هذا التقديم، وبأي لسان نطق أبو بكر هذا البيان اكان حديثه ياترى مجاملة بلسان المجامل الرفيق، أم بلسان محقق التزم في حكمه قواعد الحساب الدقيق، هذه خواطر لعلها لم تغب عن ذهن الشيخ إذ ذاك، وإن جاء جوابها من لدنه على غير ماكان يجدر أن يجيىء عليه الجواب وللأحداث من بعد ذلك الحكم والفصل....

ومضى يقول: إنَّ المبدأ الذي التزمته قريش في اختيار خلفاء رسول الله كان خروجها دائماً على أهل رسول الله ونزعها حقهم من أيديهم هذه حقيقة أيدتها دائماً وقائع الحال كانت في البدء يحجبها في حلوق أصحابها ستار وإن بدت في الأفعال، ثم أخذت على الأيام تخرج من نطاق الأسرار إلى المجاهرة والكلام، ولم تتحرج قريش عند وفاة محمد واتساق الأمر لأبي بكر من بعده أن تقول لبني هاشم في أصرح بيان وبأعلى صوت كرهنا أن تجتمع النبوة والخلافة لهذا البيت....

وقد أكدّ عداء قريش لآل الرسول واتفاقهم على أن لا تجتمع النبوة والخلافة لهذا البيت جماعة من الكتّاب القدامى والمحدثين... فقد قال ابن أبي الحديد

11- انظر المجلد الثالث طبع مصر من شرح النهج.

في شرح النهج وهو يتحدث عن موقف قريش من علي بن ابي طالب ولست ألوم العرب لا سيما قريش و بغضها له وانحرافها عنه فإنّه وترها وسفك دمائها وكشف القناع في منابذتها ونفوس العرب وأكبادها كما تعلم، وليس الإسلام بمانع من بقاء الأحقاد في النفوس كما نشاهد اليوم عياناً والناس كالناس الأول والطبائع واحدة، وكل دم أراقه رسول الله بسيف علي أو بسيف غيره فإنّ العرب بعد وفاته عصبت تلك الدماء بعلي وحده، لأنّه لم يكن في رهطه من يستحق في شرعهم وسنتهم وعادتهم أن تعصب تلك الدماء به غير علي بن أبي طالب[11] أقول: لقد صدق شارح النهج فيما قال وفاته أن يذكر سبباً آخر لعلّه لا يقل في أهميته عن السبب الأول، وهو أنّ الذين وقفوا في وجه الدعوة كأبي سفيان وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحرث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وغير هؤلاء من جبابرة قريش وطغاتها بصلابة وقوة، وظلوا على مواقفهم إلى أن أرغموا على الاستسلام لم يقفوا منها هذا الموقف إلّا لأنّ الإسلام يتعارض مع مصالحهم وامتيازاتهم ويساوي بينهم وبين العبيد والفقراء والمستضعفين. هؤلاء وأمثالهم يعلمون بأنّ استيلاء علي على السلطة سيكون امتداداً لسيرة الرسول، وإذا تساهل النبي (ص) معهم بعد أن فتح مكة لأسباب تعود على الإسلام بالمصلحة فسوف لا يجدون من علي تساهلاً ولا مهادنة على حساب الإسلام، وغير الحق والعدل الذي يساوي بينهم وبين أضعف الناس.... وسيجدون في ظل غيره ما يرضيهم ويحقق لهم بعض ما يريدون. ولذلك فقد رحّب هؤلاء بخلافة أبي بكر وغيره وتداعوا إلى قتال الفئة التي كانت تلهج بذكر علي من الأنصار وغيرهم، فقد جاء في بعض المجاميع أنّ سهيل بن عمرو هاله ما بدا من حب الأنصار لعلي وحرصهم على رجوع الخلافة إليه فوقف يحف به أعيان قريش يخطب فيهم ويقول: يا معشر قريش إن هؤلاء الناس قد دعوا إلى أنفسهم وإلى علي بن أبي طالب وعلي في بيته لو شاء لردّهم، ألا فادعوهم إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته فإن أجابوكم وإلّا فاقتلوهم فوالله إني لأرجو أن ينصركم عليهم كما نصرتم بهم[12].

12- فعلاً كان يتمنى هولاء المنافقون أن يبقى الأنصار على موقفهم وأن تبدأ الحرب وتعود الأمور جاهلية ولكن سكوت سيدنا علي ومطالبته الأنصار بالسكوت أوقف هذا الشرخ العظيم الذي كانوا يخططون له.

وتكلم بعده الحارث بن هشام فقال أيها الناس إن يكن الأنصار قد تبوأوا الدار والإيمان من قبل ونقلوا الرسول إلى دورهم من دورنا فآووا ونصروا فإنهم قد لهجوا بأمر أن ثبتوا عليه فقد خرجوا مما وسموا به، وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السيف وقال عكرمة بن أبي جهل: لولا قول رسول الله (ص) الأئمة من قريش ما أنكرنا على الأنصار اعذروا إليهم فإن أبوا فاقتلوهم.... كما تكلم غيره وحرض على الأنصار الذين كانوا يرددون اسم علي، ولم يقفوا منهم هذا الموقف إلّا لأنهم كانوا يطالبون بحق علي كما صرح بذلك سهيل بن عمرو ولوّح به الحرث بن هشام... هؤلاء الذين يبدو عليهم الحماس لخلافة أبي بكر كانوا إلى الأمس القريب هم وآباؤهم من ألد أعداء الإسلام ولقد أثار موقفهم هذا جماعة من الأنصار ولكن ثابت بن قيس الأنصاري راح يهدئهم ويخفف من ثورة نفوسهم ورد عليهم بكلمات قصار كانت أبلغ من ألف بيان وبيان إذ قال: يا معشر الأنصار إنما كان يكبر عليكم قول هؤلاء لو كانوا من أهل الدين من قريش .... فهدأت ثورة الأنصار بعد هذه الكلمة القصيرة وراحوا يستعيدون تاريخ هؤلاء وأباؤهم ومن كان على شاكلتهم ومواقفهم العدائية للنبي والإسلام وكيفية إسلامهم المزيف....

وتشير بعض المرويات إلى أنّ الخليفة وأركان حزبه كما تخلصوا من سعد ابن عبادة الأنصاري بواسطة خالد بن الوليد وادعوا أنّ الجنّ قتلته ووضعوا شعراً نسبوه للجن، كانوا يفكرون بالتخلص من علي (ع) وهو في صلاته ولكن أبا بكر تراجع عن التنفيذ في آخر لحظة وبدلاً من أن يختم صلاته بالتسليم كما هو المفروض ختمها بقوله لا تفعل يا خالد وأصبح فعله هذا دليلاً على جواز الخروج من الصلاة بغير التسليم عند فقهاء بعض المذاهب لحجة أنّ عمل الصحابي كبقية الأدلة على الأحكام...

وجاء في المجلد الثالث من شرح النهج وهو يتحدث عن الأسباب التي منعت من قتل علي (ع) بعد وفاة الرسول في حين أنّ العرب لا يصبرون على الثأر وأمير المؤمنين وترهم في آبائهم وعشائرهم في جميع المعارك التي خاضها في سبيل الإسلام جاء في المجلد المذكور بعد أن عرض أبو جعفر الإسكافي بعض الأسباب حسبما انتهى إلى تفكيره، أنّه قال لأبي جعفر: أحق ما يقال في حديث خالد ومؤامرتهم على قتله فقال: إنّ قوماً من العلوية يذكرون ذلك ومضى يقول: إنّ رجلاً جاء إلى زفر بن الهذيل صاحب أبي حنيفة فسأله عمّا يقول أبو حنيفة في جواز الخروج من الصلاة بأمر غير التسليم كالكلام والفعل الكثير أو الحدث ونحو ذلك فقال إنّه جائز: قد قال أبو بكر في تشهده ما قال فقال الرجل: وما قال أبو بكر؟ فقال: لا عليك

فأعاد عليه السؤال ثانية وثالثة فلم يجب وقال اخرجوه قد أحدث أنّه من أصحاب أبي الخطاب... وهنا قال ابن أبي الحديد لأبي جعفر فما الذي تقوله أنت؟ فقال إنا أستبعد ذلك وإن روته الإمامية وأضاف إلى ذلك أبو جعفر: أمّا خالد بن الوليد فلا أستبعد الإقدام عليه لشجاعته في نفسه وبغضه له ولكني أستبعد ذلك من أبي بكر، إنّه لم يكن ليجمع بين أخذ الخلافة وفدك واغتصاب فاطمة حقها وقتل علي بن أبي طالب حاش لله من ذلك، فقلت له: أكان خالد بن الوليد يقدر على قتله؟ قال نعم ولم لا يقدر على ذلك والسيف في عنقه وعلي أعزل غافل عمّا يراد به، لقد قتله ابن الملجم غيلة وخالد بن الوليد أشجع من ابن الملجم، قال فسألته عما ترويه الإمامية في ذلك كيف ألفاظه؟ فضحك وقال: كم عالم بالشيء وهو يسائل، ثم قال دعنا من هذا الذي تحفظ من الشعر في هذا المعنى؟ قلت أحفظ أبياتاً لأبي الطيب المتنبي:

نحن أدرى وقد سألنا بنجد ... أطويل طريقنا أم يطول

وكثير من السؤال اشتياق ... وكثير من رده تعليل[13]

ويبدوا من جواب زفر بن الهذيل صاحب أبي حنيفة أنَّ في الأمر شيئاً من هذا النوع لأنّه أبى أن يفصح للسائل عمّا قاله أبو بكر لخالد في تشهده بالرغم من الحاح السائل عليه وبالتالي أمر إخراجه من مجلسه ونسبه إلى الخطابية ولو كان ما قاله أبو بكر بعيداً عما يدعيه الإمامية لم يكن موجب لامتناع ابن الهذيل عن الجواب، ولا لاخراج السائل من المجلس قهراً بذلك الأسلوب، كما وأنَّ ابن أبي الحديد وأبا جعفر قد أخرجا حديثهما حول هذا الموضوع مخرج التشكيك والمداورة والتحرّج من تصويب أمر من هذا النوع يدين الخليفة بجريمة لا نظير لها في الإسلام. وممّا يدل على مداورة أبي جعفر في جوابه أنّه لم يجزم بكذب ما ترويه الإمامية، بل استبعد على أبي بكر أن يجمع بين الخلافة وفدك واغتصاب فاطمة حقها وقتل علي بن أبي طالب، ولم يذكر سبباً غير ذلك ومن المعلوم أنَّ مجرد الإستبعاد وحده لا يكفي لتكذيب ما ترويه الإمامية بعد أن فعل القوم نظيره مع سعد بن عبادة وإغضاب فاطمة كما جاء في جواب أبي جعفر ونظائر ذلك في التاريخ لا تحصى في سبيل الملك.....

وأنّ من يراقب سير الأحداث التي جرت في ذلك اليوم وموقف المهاجرين من علي والصديقة بضعة الرسول (ص) كما أشرنا إلى بعض جوانبها لا يستبعد ذلك وأكثر منه، ولكن مجرد ذلك لا يكفي لإدانة القوم بعمل من هذا النوع لم تتوفر النصوص التاريخية الصحيحة عليه....

13- انظر ص 284 من شرح النهج المجلد الثالث طبع مصر.

الانقلاب في عهد عمر بن الخطاب

فوا عجباً بينا هو يستقبلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشد ما تشطرا ضرعيها فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ويخشن مسها ويكثر العثار فيها والإعتذار منها.... لقد استثار أبو بكر طلحة وعبد الرحمن وغيرهما في استخلاف عمر بن الخطاب - وإن لم تكن المشورة بقادرة على أن تجعله يحجم عن هذا الاختيار - وكان أكثرهم كارهاً لخلافته ووصفوه بالفظاظة والغلظة، وبعدما شاع استخلافه دخلوا على أبي بكر وقالوا له: ما أنت قائل لربك وقد وليت علينا فظاً غليظاً، وقال بعضهم لابن الخطاب وليته عام أول وولاك هذا العام وبدا عثمان أطيبهم نفساً بخلافة عمر.... ولنا وقفة مع تولية أبو بكر لعمر الخلافة ولنا أن نسأل لماذا اختص أبو بكر عبد الرحمن وعثمان دون سائر الصحابة وأهل السبق من المسلمين؟ وما الذي دفع أبو بكر لتوجيه سياسة الحكم نحو ابن الخطاب؟ أليس في هذا دليلاً واضحاً على الاتفاق المبرم بين الرجلين - فالأول - أي أبو بكر - استخلف بمجهود الثاني وبقية أصحاب الصحيفة فعلى أبو بكر أن يفي بالعهد الذي قطعه على نفسه عند كتابة الصحيفة بأن يكل الأمر من بعده إلى عمر وبنفس الوقت يكون قد التزم بالاتفاق المبرم بينهم بابعاد علي عن الخلافة وعن حساباتهم كلية وأن يعتبروه مثل سائر الناس من السوقة والرعاع.... ولم يعلم الناس أو يشعروا بشيء سوى أنّ عمر بن الخطاب أصبح هو الخليفة الشرعي بنص أبي بكر فسأل بعض الناس لماذا لم يشاوروا أهل الرأي في الأمة وهل يحق لأفراد في مجتمع كبير كالمجتمع الإسلامي - مهما علا شأنهم وسما كعبهم - أن يتجاهلوا رأي الأمة - على الأقل رأي الكبار من هذه الأمة - كل هذا اعتبر

في خلافة عمر تحصيل حاصل إذ أنّه كان واثقاً بأنّه لا مجال للاعتراض على توليته ومن شاء أن يعترض فليظهر نفسه حتى يكون مصيره الهلاك والوبال - لذلك علم الناس بأنهم لا رأي إلا رأي الذين احتضنتهم السقيفة وأخرجت جموعهم إلى السلطة يتحكمون في الناس ويجعلون مجد الإسلام تبعاً لمصالحهم وأهوائهم ومواقفهم.....

وتمت الخلافة لعمر بن الخطاب وانقاد له الناس كما انقادوا لسلفه وحققت قريش بذلك بعض ما كانت تخطط له وظلت السنين القادمة تنتظر جديداً لابد وأن يتحقق ما دامت قريش تأبى أن تجتمع الخلافة والنبوة في بيت واحد. وها هو عمر بن الخطاب بعد أشهر قليلة من ولايته يؤكد ذلك لشاب من شباب بني عبد المطلب كان مقرباً من ابن الخطاب ويأنس إلى حديثه وحواره فقال له: أتدري ما منع الناس منكم يا عبد الله؟ فقال لا يا أمير المؤمنين قال: لقد كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفاً فنظرت لنفسها واختارت فوفقت وأصابت..... لقد التزمت قريش ذلك في اختيار الخلفاء وانقادت لعمر بن الخطاب كما انقادت لسلفه من قبل ومضى هو في سياسته وسيرته على خط صاحبه مع كبار الصحابة، ولم ينس أبداً كلماته التي ودعه بها: احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله (ص) الذين انتفخت أوداجهم وطمحت أبصارهم... لقد كان أبو بكر على ما يبدوا من وصيته هذه حريصاً على استتباب الأمر واستقراره إلى سلفه وكان يخشاهم إن انتشروا في الأمصار أن يستميلوا الناس إليهم فيطمحون للمعارضة وينقضون على الخليفة، ويستقلون في بعض أطراف البلاد واشتد عمر بن الخطاب في تنفيذ هذه المادة من وصايا أبي بكر إليه. وحبسهم في المدينة حتى أنّ الرجل منهم كما يروي المؤرخون كان يأتيه ملتمساً أن يسمح له بالخروج إلى الثغور ليقاتل إلى جانب المقاتلين فلا يسمح له ويأمره بأن يلتزم بيته ومسجده ثم يقول له: لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يكفيك، وخير لك من الغزو اليوم أن لا ترى الدنيا ولا تراك فوقفوا حيث أراد لهم لا يبرحون من مكانهم إلّا بإذن ولأجل محدود يتطلعون إلى البلاد التي خضعت لحكم الإسلام وخيراتها بألم وحسرة... وأدرك ابن الخطاب مدى الضيق الذي ألمّ بهم من هذا الحصار

ومدى محاولاتهم للتفلت منه، وما يضمرونه من السخط والكراهية لهذا الأسلوب من الحكم فقال: إنّ قريشاً يريدون أن يتّخذوا مال الله معونات دون عبادة الله فإمّا وابن الخطاب حي فلا، ومرة أخرى يقف موقف المشفق عليهم الحريص على آخرتهم ويحاول أن يبرر الحصار المضروب عليهم بإنقاذهم من سخط الله، فيقول إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار...

أمّا أمير المؤمنين (ع) فلم ينقل أحد من المؤرخين أنّه وقف موقف المعارض لخلافة ابن الخطاب أو بدا منه ما يسيئ إلى صلاته به بل رضي لنفسه أن يكون كغيره من الناس، لا يذكر لمن مضى ولمن جاء إلّا المحاسن، ولا ينطق إلّا بلسان البررة الأطهار يمنحه النصيحة ويزوده برأيه كلما أشكل عليه أمر من الأمور أو طرأ حادث جديد لم يسبق له نظير في حياتهم من قبل، تسيّره مصلحة الإسلام وحدها ولا ينظر إلى الحكم والحاكمين إلّا من هذه الزاوية، وما دام الإسلام يسير بتلك السرعة في ما وراء حدود الحجاز وعروش أولئك الحكام تتهاوى تحت أقدام الفاتحين وأصوات المؤذنين تنطق من الأعالي والسهول ومن على سطوح الكنائس ومن كل مكان - ما دام الإسلام يسير بتلك السرعة والمسلمون بخير لا يهمه من تولى الحكم وكيف تولاه... وطالما كان يردد على مسامع الناس ويلقي عليهم من دروسه الرائعة والله لأسالمنّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جورٌ إلّا عليّ خاصة...

لقد ساهم أمير المؤمنين في الحياة العامة ما وسعه وأدّى ما عليه للجمهور من تعليم وتفقيه وقضاء على مدى أوسع مما أدّاه في عهد أبي بكر حيث اقتضت الظروف ذلك.

ويحدث التاريخ عن عمر بن الخطاب بأنّه كان يحترم قوله ويقف عند رأيه حتى في غير التشريع ويقول: لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن... وتنص المرويات على أنّ أمير المؤمنين هو الذي وضع للمسلمين تاريخهم الذي أرخوا به ولا يزال حتى اليوم ولقد جاء في ذلك: أنّ رجلاً جاء إلى ابن الخطاب يخاصم آخر بدين له عليه ومعه صك مكتوب فيه استحقاق أصل

المال وأنّه يستحق في شعبان فلما ألقى بصره عليه أدرك مواضع النقص وتوجه إلى الدائن يسأله أي شعبان هذا؟ أشعبان هذه السنة أو التي بعدها. وأجابه الطرف الآخر ولكنه لم يكن ليطمئن لقوله ما دام كل منهما يدعي أمراً والكتابة لم تنص بصراحة على تاريخ الأداء، والناس يوم ذاك لم يكن لديهم تاريخ خاص فكان بعضهم يؤرخ بعام الفيل وآخرون يعتمدون تاريخ الدولة المجاورة لهم، فأجمع رأي ابن الخطاب على أن يضع للمسلمين تاريخاً يعتمدونه في أمورهم، فجمع الصحابة ليقف على رأيهم في هذا الموضوع واختلفت آراؤهم في ذلك أشد الاختلاف وكادوا أن يتفرقوا بدون أن ينتهوا إلى نتيجة حاسمة لولا أنّ علياً (ع) قد أقبل عليهم بالمعهود من رأيه السديد واتجه إليه ابن الخطاب يسأله فقال (ع) نؤرخ بهجرة الرسول من مكة إلى المدينة فأعجب عمر بن الخطاب برأيه وهتف يقول: لا زلت موفقاً يا أبا الحسن.... واقترن رأيه هذا بإعجاب الحضور أيضاً لأنّ هجرة الرسول كانت البداية لانتصار الإسلام على الشرك وحدثاً تاريخياً لعله من أبرز الأحداث في تاريخ الدعوة من حيث نتائجه، يذكرنا بالتضحيات الجسام التي قدمها علي ابن أبي طالب ليسلم محمد لرسالته وينتشر الإسلام في شرق الأرض وغربها....

وجاء في شرح النهج عن الحسن بن محمد السبتي أنّه قرأ في كتاب أنّ عمر بن الخطاب نزلت به نازلة فقام لها وقعد وقال لمن عنده من الحضور: يا معشر من حضر ما تقولون في هذا الأمر فقالوا: يا أمير المؤمنين أنت المفزع فغضب وقال: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سدسداً أما والله إنّي وإياكم لنعلم ابن بجدتها والخبير بها..... فقالوا: كأنك أردت علي بن أبي طالب فقال: وأنّى يعدل بي عنه وهل طفحت حرة بمثله؟ قالوا: فلو دعوته يا أمير المؤمنين فقال: هيهات أن هناك شمحاً من هاشم وأثره من علم ولحمة من رسول الله (ص) إنّ علياً يؤتى ولا يأتي فامضوا بنا إليه فمضوا نحوه فألفوه في حائط له عليه ثياب وهو يركل على مسحاته ويقرأ (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) ودموعه تنهمل على خديه فاجهش الناس لبكائه فسأله عمر بن الخطاب عن تلك الواقعة فأصدر جوابها فقال عمر بن الخطاب أما والله لقد

أرادك الحق ولكن أبى قومك. فقال: يا أبا حفص خفض عليك من هنا ومن هنا إنّ يوم الفصل كان ميقاتاً فوضع عمر بن الخطاب إحدى يديه على الأخرى وأطرق إلى الأرض ومضى كأنما ينظر في رماد على حد تعبير الراوي إلى كثير من الحوادث الطارئة التي كان حلها يستعصي على الخليفة وسائر الصحابة ويضطرهم الحال إلى الرجوع إليه والأخذ برأيه في مختلف المواضيع.....

وكان عمر بن الخطاب على ما فيه من جفاء وفظاظة كما وصفه القريب والبعيد وعلى ما بدر منه من القسوة والخروج عن المألوف مع الصدّيقة الزهراء(ع) لا يدع مناسبة إلّا ويذكر فيها علياً وحاجة المسلمين إلى علمه ورأيه. وأحياناً يبلغ به الإعجاب إلى الاعتراف له بحقه في الخلافة من حيث لا يريد تصريحاً تارة كما في رواية السبتي السابقة وتلويحاً آخر ربما بلغ في بعض الأحيان حدود الصراحة، ولكنه كان يعود وهو في حديثه ليضع مسؤولية تنحيه عن الخلافة على غيره، أو يتعلل لذلك بأسباب لا تمت إلى الواقع بصلة من الصلات..... وأكثر أحاديثه حول هذا الموضوع كانت مع عبد الله بن العباس وهو يوم ذاك في مطلع شبابه وكان ابن الخطاب يألفه ويطمئن إلى رأيه وذكائه ولم تكن هيبة الخليفة وفظاظته لتمنعاه عن إحراج الخليفة أحياناً وتفنيد مزاعمه ومصارحته بالتجني على ابن عمه وانتزاع حقه، فقد روى المؤرخون أنّ عمر بن الخطاب كان في حوار مع الشاب الهاشمي وجرهما الحديث إلى اعتراف الخليفة بظلامة علي بن أبي طالب، فقال له: ما أرى يا ابن عباس صاحبك إلّا مظلوماً فقال له ابن عباس: فاردد عليه ظلامته يا أمير المؤمنين، فوقف ابن الخطاب قليلاً يختار الجواب المقبول بعد اعترافه هذا ثم قال: ما أظن أنّ القوم منعهم عنه إلّا أنّه كان شاباً حدثاً فاستصغرت العرب سنه وقد كمل الآن.... ومضى يقول: ألم تعلم يا ابن عباس أنّ الله لم يبعث نبياً إلا بعد الأربعين، وكان جواب ابن عباس هذه المرة لا يخلو من التعريض بالخليفة نفسه فقال له يا أمير المؤمنين: أمّا أهل الحجى فإنهم ما زالوا يعدونه كاملاً منذ رفع الله منار الإسلام. ولكنهم يعدونه محروماً مجدوداً وقد جعل الرسول أسامة ابن زيد أميراً قبيل وفاته على جميع المسلمين بما فيهم مشيخة قريش وكان شاباً لم يتجاوز العشرين من العمر.....

ومرة أخرى كان علي (ع) جالساً بفناء داره ومعه ابن عمه عبد الله فمرّ بهما عمر بن الخطاب وسلّم عليهما فلمّا همّ بالانصراف سأله علي (ع) عن غايته فقال أريد البقيع فقال له أفلا نصل جناحك فرحب بهما فأشار إلى ابن عمه أن يذهب مع الخليفة فأسرع ابن عباس لذلك ومشى الرجلان في جوف الليل وجرهما الحديث إلى الخلافة وموقف المسلمين من علي بعد وفاة النبي(ص) فقال عمر بن الخطاب: والله إنّ صاحبك لأولى الناس بالأمر بعد رسول الله إلاّ أننا خفناه على اثنتين خفناه لحداثة سنه وحبه لبني عبد المطلب....

وفي رواية ثالثة رواها ابن أبي الحديد في شرح النهج عن أبي بكر الأنباري في أماليه أنّ علياً جلس إلى عمر بن الخطاب يوماً في المسجد فلما قام من مجلسه عرّض بعض الحضور بعلي(ع) ونسبه إلى التيه والعجب، فقال له ابن الخطاب: وحق لمثله أن يتيه والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام وهو بعد أقضى الأمة وذو سابقتها وشرفها فقال الرجل ما دام كذلك فما منعكم عنه؟ قال: كرهناه لحداثة سنه وحبه لبني عبد المطلب، وقد تكرر هذا التخلص من عمر بن الخطاب في المرويات التي تتحدث عن الحوار بينه وبين ابن عباس تارة وبينه وبين غيره ممن كانوا يطرقون موضوع الخلافة أحياناً أخرى ولا أظن أنّ ابن الخطاب كان جاداً في تبرير موقف المهاجرين من الخلافة بهذين السببين فإنّ علياً(ع) لم يكن صغير السن كما يدعي ابن الخطاب بل كان فوق الثلاثين من عمره ولم يتفق لأحد من المسلمين أن عارك الأمور وتعرض للأحداث وللصراع مع الأبطال والشجعان في المعارك كما اتفق له .... كما وأنّ ابن الخطاب وجميع المسلمين يعلمون بأنّه لا يحابي أحداً على حساب أحد قريباً كان أو بعيداً مهما كانت الظروف.... والشيء الغريب عن أبي حفص أن يخاف علياً لحبه بني عبد المطلب ويمتنع عن بيعته بعد الرسول (ص) لهذا السبب كما يدعي، ولا يخاف من حب عثمان بن عفان لأسرته وقد مهد له الخلافة وأصبح بحكم المتعين لها، وضم إليه أولئك النفر من الشورى لتغطية الاتفاق السابق بينهما.... كما سنثبت ذلك خلال حديثنا عن الشورى ونتائجها - في حين كان يقول لو تولاها عثمان لحمل بني أبيه على رقاب الناس.

وحدث عبد الله بن العباس عن حوار آخر جرى بينه وبين ابن الخطاب بشأن الخلافة فقال: كنت عند عمر بن الخطاب فتنفّس نفساً ظننت أنّ أضلاعه قد انفرجت فقلت له: ما أخرج هذا النفس منك يا أمير المؤمنين إلّا هم شديد فقال أي والله يا بن عباس: إني فكرت فيمن أجعل هذا الأمر من بعدي ثم قال: لعلك ترى صاحبك لها أهلاً. قلت وما يمنعه من ذلك مع جهاده وقرابته وسابقته وعلمه قال: صدقت ولكنّه امرؤ فيه دعابة.... ويبدو من أجوبة ابن الخطاب أنّه كان يفتش عن سبب يبرر موقفهم من علي (ع) فمرة يعتذر منه بأنّ قريشاً لا تريد أن تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد، وأخرى بحداثة سنة وحبه لبني عبد المطلب وثالثة بأنّ فيه دعابة إلى غير ذلك مما يرويه الرواة عنه في حين أنّه لأكثر من مناسبة كان يقول: (أما والله لو وليها علي بن طالب لحملهم على المحجة البيضاء والحق الواضح) ومع ذلك فقد انتحل له صفة الدعابة وعدّها سبباً كافياً لإقصائه عن الخلافة هذا مع العلم أنّ ابن الخطاب كان معروفاً بين جميع المسلمين بالفظاظة والغلظة وخشونة المعشر وأكثر الذين استشارهم أبو بكر بشأنه وصفوه بذلك وهي من الصفات القبيحة التي تنفر وتفرق كما نصت على ذلك الآية الكريمة التي وصف بها أخلاق النبي بقوله (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) ومع ذلك فقد أصر أبو بكر على استخلافه وتم له ذلك.... ومع ذلك فهو يرى أنّ ابتسامة علي (ع) للفقراء والضعفاء ومواساته لهم وأنسهم إليه بالإضافة إلى جميع الصفات الفاضلة المتوفرة لديه يرى ذلك سبباً كافياً لعدم استخلافه من بعده... وقد وصفه ابن العاص بهذه الصفة وكان يردد كلمة ابن الخطاب في مجالس معاوية بقصد انتقاصه وحينما بلغ أمير المؤمنين ذلك قال كما جاء في نهج البلاغة: عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أنّ في دعابة وامرؤ تلعابه أعافس وأمارس لقد قال باطلاً ونطق آثماً أما وشر القول الكذب أنّه يقول فيكذب ويعد فيخلف ويسأل فيلحف ويُسأل فيبخل ويخون العهد ويقطع الآل.

فإذا كان عند الحرب فأي زاجر وآمر هو ما لم تأخذ السيوف مأخذها فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يتيح القوم سبته أما والله أنّه ليمنعني من اللعب ذكر الموت وأنّه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة. وأنّه لم يبايع معاوية حتى

شرط له أن يؤتيه أتية ويرضخ له على ترك الدين رضيخة.... وكان معاوية كما جاء في شرح النهج يذكر أحياناً دعابة علي بقصد انتقاصه أيضاً فلقد قال يوماً بعد أن استتب له الأمر لقيس بن سعد بن عبادة رحمه الله - رحم الله أبا الحسن لقد كان هشاً بشاً ذا فكاهة فأدرك قيس قصده وقال له: لقد كان رسول الله (ص) يمزح ويبتسم لأصحابه وأراك تسرح في اترغاء أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذي لبدتين قد مسّه الطوى تلك هيبة التقوى ليس كما يهابك أهل الشام... وقد بقي هذا الخلق متوازناً متناقلاً في محبيه وأوليائه إلى الآن كما بقي الجفاء والخشونة والوعورة في الجانب الآخر[1].......

وفي حوار آخر بين عبد الله وعمر بن الخطاب: يا ابن عباس أتدري ما منع الناس منكم قال: لا يا أمير المؤمنين فقال: ولكني أدري لقد كرهت قريش أن تجمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفاً. فنظرت قريش لنفسها فاختارت ووفقت وأصابت، فقال له ابن عباس: أيميط عني أمير المؤمنين غضبه ويسمع، قال له: قل ما تشاء قال: يا أمير المؤمنين إن كانت قريش كرهت فقد قال الله لقوم: ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط الله عملهم.... وأمّا قولك إنّا كنّا نجحف فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة ولكنّا قوم أخلاقنا مشتقة من أخلاق رسول الله الذي قال الله فيه: وإنّك لعلى خلق عظيم وقال له: واخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين.... وأمّا قولك أنّ قريشاً اختارت فإنّ الله يقول: وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة وقد علمت يا أمير المؤمنين إنّ الله اختار من خلقه لذلك من اختار، فلو نظرت قريش حيث نظر لها الله لوفقت وأصابت.

ويبدو أنّ كلمة عبد الله: ولقد علمت بأنّ الله اختار لذلك من خلقه من اختار، هذه الفقرة قد احرجت الخليفة لأنها توحي بالنص على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وتدين الخليفة مباشرة لأنه كان العقل المدبر لمصير

1- انظر المجلد الأول طبع مصر ص8

الخلافة على النحو الذي صارت عليه، فراح يتلمس الهروب مما اوقعه فيه ابن عباس فرد عليه بقوله: على رسلك ياعبد الله أبت قلوبكم يابني هاشم إلّا غشاً في أمر قريش لا يزول وحقداً عليها لا يحول وهنا أنبرى له ابن عباس بالحجة الواقعة وقال له لا تنسب قلوب بني هاشم الى الغش فإنها من قلب رسول الله(ص) الذي طهّره الله وزكاه وأنزل فيه وفي آله:(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) وأما وصفك لقلوبهم بالحقد على قريش فكيف لا يحقد من غصب شيئاً ويراه في يد غيره.... فغضب عمر بن الخطاب لهذه الصراحة التي لم يعتد عليها من ابن عباس خلال أحاديثهما عن الخلافة من قبل واعتبرها تحدياً سافراً له ولسلفه الراحل فراح يطالبه بأمر قد بلغه عنه وكتمه عليه لتبقى مودته، أمّا وقد بلغ به الحال إلى هذا الحد من الصراحة فلم يعد مايوجب السكوت عنه فقال يا ابن عباس بلغني عنك كلام أكره أن اخبرك به فتزول منزلتك عندي، فقال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ اخبرني عنه فإن يكن باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه، وان يكن حقاً فإن منزلتي منك لاتزول به، فقال: بلغني أنك لا تزال تقول: أُخذ هذا الأمر منا حسداً وظلماً، فلم ينكص ابن عباس عن جوابه ولم يتراجع عن موقفه وأجابه على الفور: نعم لقد اخذ حسداً وظلماً وقد حسد ابليس آدم فأخرجه الله من الجنة ونحن بنو آدم المحسود، وقد أخذ ظالماً وأنت أمير المؤمنين تعلم من هو صاحب الحق ومضى يقول: لقد احتج العرب على العجم بحق رسول الله واحتجت قريش على العرب بحقه ونحن أحق برسول الله من قريش وغيرها... ويبدو أن عمر ابن الخطاب قد ضاق صدره بهذه الصراحة ولم يجد ما يرد عليه فأراد أن يقطع الحوار فقال له: قم واذهب إلى منزلك ياعبد الله فادرك غايته وترك المجلس لأهله وانصرف، وأدرك ابن الخطاب بأنه كان فظاً في أسلوبه وخشي أن يكون قد أساء إليه وهو يأمره بالانصراف وترك المجلس وقبل أن يغيب عنه قال له: أيها المنصرف إني على ما كان منك لراع حقك فالتفت إليه وهو غير متهيب لمقام ولا مأخوذ بلين أسلوبه الأخير وقال: إن لي عليك وعلى كل مسلم حقاً برسول الله فمن حفظه فحق نفسه حفظ، ومن أضاعه فحق نفسه أضاع...

ومضى في طريقه وهو مرتاح النفس والضمير لكلمة الحق التي نطق بها في هذا المجلس غير متهيب سلطان خصمه ولا فظاظته وكثرة انصاره...

وجاء في الرواية التي وصفت هذا الحوار أن عمر بن الخطاب لم يمتنع عن تقريظه والثناء عليه بالرغم من أنه تحداه وأدانه ولم يحترم سلطانه فقال: واهاً لابن عباس مارأيته لاحى أحداً إلّا خصمه الى غير ذلك مما يرويه المؤرخون عما كان يدور بين الخليفة وعبد الله بن العباس من حوار وجدل حول الخلافة ونصيب علي (ع) منها ولم يكن ابن الخطاب مع ماعرف عنه من الفظاظة والغلظة عنيفاً مع ابن عباس الذي كان يعبر في مواقفه هذه عن رأي الهاشميين وكثير من الصحابة.... وكان الخليفة يصرح أحياناً بأنَّ علياً كان ولا يزال أولى المسلمين بالخلافة ويضع تبعة إقصائه عنها على قريش [2] لأنها أبت أن تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد على حد تعبيره، وظل عمر بن الخطاب ينوّه باسم علي ابن أبي طالب ويردد اسمه عندما يجري حديث الخلافة وكأنه المتعين لها من بعده حتى ظن أكثر المسلمين أنها لن تعدوه ولن يقع اختيار ابن الخطاب على غيره لا سيما وقد صاهره وتزوج من ابنته أم كلثوم كما يدعي المؤرخون ولا أرى في ذلك مايدعو إلى استبعاد هذا الأمر وأن استبعده بعض محدثي الشيعة وعلمائهم

2- كأنه لم يكن هو الذي خطط مع أصحاب الصحيفة لقريش طريقة إبعاد سيدنا علي عن الخلافة ولكنه يضع الملامة على قريش لذر الرماد في العيون.

وفاة عمر بن الخطاب

لابد لنا ونحن بصدد الحديث عن مصير الخلافة بعد تلك المواقف التي كان ابن الخطاب يلوح فيها بعودة الحق الى (أصحابه ويقول) لقد أجمعت أن أولي عليكم أحراكم أن يحملكم على الحق وظل يلوح ويصرح أحياناً حتى جاءت الأيام الأخيرة من حياته وإذا به يجعلها لواحد من ستة اختارهم من أصحاب رسول الله ولم يختر أحد منهم بصراحة ولكنه رسم حدود الاختيار وأوصى إلى الرجل المختار من أولئك الستة كما يومئ إليه عهد مكتوب، وستعرض لذلك خلال حديثنا عن الشورى ونتائجها أما حادثة اغتياله ومن كان وراءها وما هي ملابساتها فسوف ندعها إلى كتابنا الجديد الذي سوف أصدره قريباً بعنوان (عمر بن الخطاب في الإسلام) علماً أنه قد اتفق المؤرخون أنَّ عمر بن الخطاب مات أثر طعنة أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة وقد حُمل ابن الخطاب ودماؤه تنزف من جراحاته وهو واهن القوى لكثرة الدماء التي سالت منه ووقف الناس من حوله مابين باك وباكية ومدهوش، وقيل له وهو مهيض قد انهكته جراحاته لو استخلفت على الناس ياأمير المؤمنين فتفكر ملياً ثم قال: إن استخلف فلقد استخلف من هو خير مني وإن اترك فقد ترك من هو خير مني. يشير إلى النبي وأبو بكر [7] فلقد استخلفه أبو بكر. وترك النبي (ص) الأمر للمسلمين يختارون لأنفسهم من يريدون على حد زعمه، ثم التفت إلى من كان حوله من الصحابة والأسف يقطع أنفاسه وقال: لو كان أبو

7- انظروا إلى هذا التضليل حتى وهو على فراش الموت كأنَّ الرسول لم يوصِ بخلافة سيدنا علي وكأنّه لم يقل لمولانا علي في غدير خم عندما بايعه بخٍ بخٍ لك يا ابن أبي طالب ولكنها الأهواء التي تطيح بعقول الرجال.

عبيدة حياً لاستحلفة وقلت لربي لو سألني. لقد سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولى ابي حذيفة حياً لاستخلفته وقلت لربي لو سألني لقد سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله[2] اقول: إن أمر هذا الرجل في منتهى الغرابة يجمع بين المتناقضات، ويقول الشيىء على ملأ من الناس ويعمل بخلافه لقد احتج هو وأبو بكر على الانصار يوم السقيفة بما رواه عن النبي (ص) أنه قال الخلافة في قريش ومع ذلك يقول: لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوليته لأنَّ النبي قال إنه كان شديد الحب لله، ونسي ما قاله النبي لعلي في عشرات المناسبات مما لم يقله أحد من الناس، بل نسي ما قاله هو نفسه لابن عباس وغيره، لو ولّيها علي لحملهم على المحجة البيضاء وعلى كتاب الله وسنة رسول الله (ص)....

وعندما وصل الكاتب الكبير المنصف عبد الفتاح عبد المقصود إلى قوله لو كان أبو عبيدة حياً ولو كان سالم مولى أبي حذيفة لوليتهما لم يدع الفرصة تفوته ليبدي ما في نفسه من التآمر المخطط والمدروس على إقصاء علي عن الخلافة بكل الوسائل، فقال بلهجته الهادئة التي اعتاد أن يخاطب بها الحزب القرشي المتآمر على آل الرسول فقال: فهلاّ ذكر إذن في هذا المقام قليلاً من الكثير الذي قيل في علي بن أبي طالب على لسان الرسول (ص) ومضى يقول: إنّه بلا ريب ذكره وذكر معه كل ما حدث به من قبل، ثم ذكر إلى جانب هذا وذاك قدر علي (ع) لا كما جرت به سيرته على شفاه محبيه بل كما علمه هو وخبره وقدره القدر الذي يعلو به على الآخرين، ولكنه أيضاً ذكر السياسة العليا التي استنتها قريش لنفسها، وكان إمّا ترسمها برغبته إذ يراها الصواب وإمّا دفع مستكرها [3] إلى ترسمها فعداه في كلا الحالين التوفيق ولم يلتزم النهج الأقوم.

2- انظروا وتأملوا كيف يتمنى أن يكون أصحاب الصحيفة أحياء لكي يوليهم وينالوا حصتهم من مائدة الانقلاب الذي خططوا له ولكنّ الموت كان لهم بالمرصاد قبل أن يتولوا الخلافة ويتنعموا في ظلالها فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.... وأستغرب كيف لم يذكر المتآمر الخامس الذي هو معاذ بن جبل.

3- لم يدفع مستكرها وإنما كان هو المخطط والمنفذ لإقصاء آل البيت عن حقهم في الخلافة ولم يلتزم النهج الأقوم.

الشورى

لقد حاول المغيرة بن شعبة أن يجعل الخلافة لابن عمر عندما قال له: اجعلها يا أمير المؤمنين لولدك عبد الله، فرماه بنظرة كالشهاب وصاح فيه: قاتلك الله. والله ما أردت بهذا إلّا الشر، أتشير علي أن أجعلها لرجل يعجز عن طلاق زوجته، وأردف ذلك بقوله لا يليها رجلان من ولد الخطاب حسب عمر ما حمل، والله لا أتحملها حياً وميتاً... أقول إنَّ الخليفة عمر كان يخطط لما هو أدهى وأمر فلذلك رفض تولية ابنه عبد الله أولاً لأنَّه ضعيف وثانياً لكي يضع البيت الأموي على سدّة الخلافة لأنهم هم الوحيدون الذين يقدرون على إبقاء البيت الهاشمي وعلى رأسهم سيدنا علي (ع) بعيداً عن الخلافة ولكي يقلبوا الدين الإسلامي رأساً على عقب ويفرّغونه من محتواه الروحي وجعله قالباً تعبدياً كما أصبح فعلاً فلهذا افتعل قصة الشورى وإليك الحادثة كما رواها أكثر من مؤرخ.... فقد استدعى عمر بن الخطاب قبيل وفاته علي بن أبي طالب - وعثمان بن عفان - وسعد بن أبي وقاص - وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وقال لهم: إذا مت تشاوروا ثلاثة أيام وليصلّ بالناس صهيب[7] ولا يأتينّ اليوم الرابع إلّا وعليكم أمير منكم وليحضر عبد الله بن عمر مشيراً وطلحة بن عبيد الله شريككم في الأمر فإن قدم الثلاثة فاحضروه أمركم.....

7- صهيب كان من المتآمرين معهم وكان رجلهم في بيت الرسول والواسطة بينهم وبين عائشة عندما كانوا في جيش أسامة.

وقال لأبي طلحة الأنصاري[2] اختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا منهم رجلاً وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشرخ رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما وإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر فإن لم يرضوا فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع عليه الناس فلما مات عمر وأخرجت جثته صلى عليه صهيب فلما دفن جمع المقداد أصحاب الشورى فقال عبد الرحمن أيكم يخرج منها نفسه على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد فقال: أنا أنخلع منها فقال عثمان أنا أول من رضي وقال القوم رضيناه، وعليٌ ساكت فقال ما تقول يا أبا الحسن قال: أعطني موثقاً لتؤثرنّ الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألُ الأمة نصحاً فأعطاه الموثق المطلوب.... وبعد نقاش طويل بين الحاضرين نظر ابن عوف إلى علي (ع) وقال: أبايعك على كتاب الله وسنة رسول الله وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر فقال (ع) بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي - فعدل عنه إلى عثمان فعرض عليه ذلك فقال نعم فعاد على علي (ع) فأعاد قوله، فعل ذلك عبد الرحمن ثلاثاً فبايعوا عثمان بن عفان وسلموا عليه بإمرة المؤمنين وقال علي (ع) والله ما فعلتها إلّا لأنّك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه دق الله بينكما عطر منشم....

وهناك رواية أخرى مفصلة أكثر لحادثة الشورى تقول: إنَّ عمر قال: إنَّ رسول الله مات وهو راض عن هؤلاء الستة من قريش علي وعثمان وطلحة وسعد بن أبي وقاص والزبير وعبد الرحمن بن عوف وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم، ثم قال: ادعوهم لي فدعوهم ودخلوا عليه وهو ملقى على فراشه يجود نفسه من الألم فنظر إليهم وقال: أكلكم يطمع في الخلافة بعدي فلم يردوا له الجواب، ولما كرر عليهم القول أجابه الزبير وقال

2- أبو طلحة الأنصاري كان من الأربع عشرة الذين تآمروا على رسول الله في عقبة الدباب لهذا سلّمه هو هذا المنصب الخطير.

كما في رواية شرح النهج: وما الذي يبعدنا منها وقد وليتها أنت ولسنا دونك في قريش لا في السابقة ولا في الإسلام فقال: أفلا أخبركم عن أنفسكم، قالوا قل فإنَّا لو استعفيناك لم تعفنا فقال: أما أنت يا زبير فوعق لقس مؤمن الرضا كافر الغضب يوما إنسان ويوماً شيطان. ولعلها لو أفضت إليك ظلت يومك تلاطم في البطحاء على مد من شعير. أفرأيت إن أفضت إليك فليت شعري من يكون للناس يوم تكون شيطاناً ويوم تغضب وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة وأنت على هذه الصفة.... ثم التفت إلى طلحة وكان له مبغضاً على حد تعبير ابن أبي الحديد في شرح النهج فقد قال لأبي بكر يوم وفاته ما قال في عمر[3].

التفت إليه وقال: أقول أم أسكت، فقال طلحة: قل فإنَّك لا تقول من الخير شيئاً[4] قال أما أني أعرفك منذ أصيبت إصبعك يوم أحد والبأو الذي حدث لك ولقد مات رسول الله ساخطاً عليك للكلمة التي قلتها يوم نزلت آية الحجاب[5]..... لقد ناقض نفسه عمر بن الخطاب وهو لا يزال في الحديث عن الستة الذين اختارهم للخلافة ففي صدر حديثه عنهم قال: إنَّ رسول الله مات وهو راضٍ عنهم، وها هو يقول لطلحة: لقد مات رسول الله ساخطاً عليك للكلمة التي قلتها يوم نزلت آية الحجاب، وعلى أنَّ الصفات التي وصف بها الزبير لو صح أنها كانت فيه لا يعقل أن يموت رسول الله (ص) وهو راضٍ عنه مع وجود تلك الصفات فيه التي لا ترضي أحداً من الناس.... إنَّ الباحث لا يكاد ينتهي من فصل من فصول متناقضاته حتى يقع على فصل آخر، لقد أمر صهيباً أن يصلي بالناس في مرضه لإنَّ إمامة المصلين لا ترتبط بالخلافة ولا

3- لقد كان يطمع يوم ذاك أن يتولاها بعد ابن عمه ولكنه غاب عنه اتفاقهم ومعاهدتهم على الصحيفة فقال له عندما أحسّ برغبته في عمر ماذا تقول لربك وقد وليت علينا فظاً غليظاً.

4- انظر ما مدى قيمته عند كبار الصحابة من قريش وكيف جابهه طلحة بقوله: قل فإنَّك لا تقول من الخير شيئاً فمن لا يقول الخير لا يكون عنده إلَّا الشر.

5- وكان قد قال: ماذا يغنيه حجابهم اليوم وسيموت غداً فننكحهن من بعده.....

ملازمة بينهما. وبالأمس يوم كان يناضل من أجل استيلاء أبي بكر على الخلافة كانت صلاته المزعومة بالناس في مرض النبي الدليل الأول على أهليته للخلافة واستحقاقه لها، وقال إنَّ رسول الله مات وهو راض عن الستة ويقول عن الزبير بأنّه يوماً إنسان ويوماً شيطان. ويلاطم في البطحاء على مد من شعير ويقول إنَّ رسول الله مات ساخطاً على طلحة ويصف عثمان وسعد بن أبي وقاص بأقبح الصفات ومع ذلك فرسول الله مات وهو راض عنهم على حد زعمه.... ثم أقبل على سعد بن أبي وقاص وقال له: إنما أنت صاحب مقنب من هذه المقانب تقاتل به وصاحب قنص وقوس وسهم وما زهرة والخلافة وأمور الناس[6]....

وقال لعبد الرحمن بن عوف: وأما أنت يا عبد الرحمن فلو وزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك به ولكن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك وما زهرة وهذا الأمر وقال لعلي (ع): لله أنت لولا دعابة فيك، أما والله لو وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء.

وقال لعثمان: هيها إليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً، والله لئن فعلوا لتفعلنّ، ولئن فعلت ليفعلنّ بك ثم أخذ بناصيته وقال: فإذا كان ذلك فاذكر قولي... أقول: هذه الصورة التي أعطاها عمر بن الخطاب عن الستة يرويها

6- إذا كان الخليفة يعلم أنّه لا يصلح هذا الأمر لبني زهرة لماذا رشح سعد وعبد الرحمن. ومن كان ذا الهو وضعف كسعد وعبد الرحمن فكيف يجوز أن يؤهل لخلافة المسلمين. ولكن والله العالم أنّه أهلهما من أجل خلافة عثمان الأموي لأنَّ عبد الرحمن صهره وسعد لا يترك ابن عمه عبد الرحمن بأي حال من الأحوال وحيث أنهى الأمر الخليفة إلى رجحان الكفة التي فيها عبد الرحمن فقد تحققت خلافة عثمان بدون شك ولهذا رشح الخليفة بني زهرة ليكونا أعواناً للخليفة عمر في تعيين عثمان، فعثمان في الحقيقة خليفة عمر بالتعيين إلّا أنّه كان بالواسطة شكلياً وهذا الاستنتاج لم يكن خفياً على أكثر العقلاء لولا الهوى والغرض.

أكثر المؤرخين عندما يتحدثون عن موقفه من الخلافة في المرحلة الأخيرة من حياته، وإذا صح بأنّه كان على ثقة بأنّ عثمان سيحمل بني أمية على رقاب الناس وسيسلطهم على خيرات البلاد وأموال العباد، فلا أدري كيف رشحه لها واختاره بذلك الأسلوب الذي لا يختلف عن التعيين إلّا بالصورة وكيف تحملها حياً وميتاً وقبل ساعات، قال لمن أشار عليه أن يستخلف ولده عبد الله: لا أتحملها حياً وميتاً...

لقد وصف عثمان بن عفان بأقبح الصفات ونسب إليه ما لم ينسبه لأحد من الستة ومع ذلك فقد اختاره للخلافة باسم الشورى، ووصف علياً بأنّه لو تولاها لحملهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء ومع ذلك فقد وضع في طريقه العراقيل والصعاب ومهدها لعثمان، في حين أنّ القلوب التي كانت تهفوا إلى علي (ع) ولا ترى لها غيره قد وصفه هو بالصفات التي لا تؤهل سواه لها كما ذكرنا لقد وضع ابن الخطاب الخلافة بين أولئك الستة واستدعى إليه أبا طلحة الأنصاري وقال له: يا أبا طلحة إذا عدتم من حفرتي فكن في خمسين رجلاً من الأنصار حاملي سيوفكم وخذ هؤلاء النفر بامضاء الأمر وتعجيله واجمعهم في بيت واحد وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم فإن اتفق خمسة وأبى واحد فاضرب عنقه وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب عنقيهما. وإن اتفق ثلاثة فانظر الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف وارجع إلى ما اتفقوا عليه، فإن أصرّ الثلاثة على خلافهم فاضرب أعناقهم وإن مضى الثلاثة أيام ولم يتفقوا على أمر فاضرب أعناق الستة ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم.....

وتمت وصية عمر بن الخطاب على هذا النحو وخرج علي والجماعة من البيت بانتظار الموعد المعين وقد أدرك أنّ الأمر لا يعدو عثمان بن عفان ومضى صامتاً في زحمة الناس وكان ألمه بادياً في عينيه وغضبه نمّ عنه عرق في وجهه كاد ينبجس منه الدم وما لبث أن جاءه عمه العباس بن عبد المطلب يسأله عما جرى فقال له: جعلها في جماعة زعم أني أحدهم ومضى يقص عليه أنباء الشورى وتفاصيلها، فملكته الدهشة وهو يستمع إليه يقول: إن اجتمع ثلاثة

وخالف ثلاثة فكونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف لعلمه أنَّ عبد الرحمن صهر لعثمان على أخته أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط لأمه، فهز العباس رأسه وقال: يا ابن أخي لا تدخل معهم وترفع عنهم ولم يغب عن علي (ع) صواب هذا الرأي ولا ساوره شك في أنَّ الخلافة صائرة لغيره ولا حظ له فيها ما دام بين أصحاب الشورى طلحة بن عبيد وهو الحقود الحسود لبيت هاشم وإليه أشار بقوله في الشقشقية: فصغا رجل منهم لضغنه، وفيهم سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وسعد لا يفارق ابن عمه وتشده إلى البيت الأموي أواصر القربى القريبة، وعبد الرحمن بن عوف صهر عثمان كما أسلفنا.... وفيما كان العباس يحاوله الخروج عنها وإذا بولده عبد الله يؤيد رأي أبيه ويقول: إنَّ عمر بن الخطاب يريد الأمر لعثمان فقال لهما أمير المؤمنين وأنا أعلم ذلك ولكني أدخل معهم في الشورى لأنَّ عمر بن الخطاب أهّلني الآن للخلافة وكان قبل ذلك يقول: إنَّ رسول الله (ص) قال: إنَّ الخلافة والنبوة لا يجتمعان في بيت واحد وأنا أدخل معهم لأظهر للناس منافقة فعله لروايته....

واتفق المؤرخون أنَّ المؤتمرين لم ينتهوا إلى نتيجة حاسمة خلال يومين كاملين من التشاور فيما بينهم وكان كل منهم يرجوها لنفسه وفي اليوم الثالث ذكّرهم أبو طلحة بنهاية الموعد وهددهم بما سينجم عن تباين آرائهم واختلافهم من النتائج السيئة التي لا يرجوها لهم وأدرك طلحة أنَّ الصراع الحقيقي يدور بين اثنين لا ثالث لهما وهما علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان. ولعبت الأحقاد القديمة بين تيم وعلي بن أبي طالب - والتي كانت عائشة لا تزال تغذيها - دورها في هذا الصراع كما وأنَّ الميزة التي كان يتمتع بها ابن أبي طالب وهي الصرامة في الحق والسير بالخلافة على الطريق الواضح يأباها طلحة وأمثاله من أهل الثراء الواسع والطامعين والنفعيين كل الإباء.... هذه الميزة كان لها دورها في إقصاء علي واتجاه الطامعين من القرشيين وغيرهم إلى عثمان كما أكدت الأحداث التي رافقت خلافته منذ الأيام الأولى..... ومهما يكن الحال فقد جاء - في شرح النهج وغيره أنَّ أول عمل قام به طلحة أن أخرج نفسه منها ووهب حقه فيها لعثمان بن عفان، بعد أن أيقن أنّه

سيكون صفر اليدين في هذا المؤتمر. وأنَّ الناس لا يبدلونه بأحد الرجلين فأراد أن يدعم جانب عثمان في الصراع الحالي كرهاً منه بعلي بن أبي طالب على حد تعبير المؤرخين، وأدرك الزبير في الحال أن طلحة لم يقدم على هذا التصرف إلّا بوحي من عصبيته وأحقاده فثارت في نفسه نزعة القرابة التي تشده إلى علي (ع) في الوقت الذي يعلم فيه أنَّ الأمر سوف ينتهي إلى غيره فوقف وقال: وأنا أشهدكم على نفسي أني قد وهبت حقي في الخلافة لعلي ابن أبي طالب وبقي الصراع فيها بين أربعة من أهل الشورى. فوقف سعد بن أبي وقاص وقال لقد وهبت حقي لعبد الرحمن بن عوف - وكلاهما من بني زهرة - وبقي في الساحة ثلاثة كل واحد منهم يمثل اثنين، فقال عبد الرحمن لعثمان وعلي: أيكما يخرج منها للآخر؟ فلم يجيبا على حد تعبير الراوي فأخرج نفسه منها على أن يجعلها في أفضلهما، والتفت إلى علي وعثمان قبل أن يبت بالأمر لأحدهما وعرض على كل منهما أن يتولاها شريطة أن يؤثر الحق ولا يتبع الهوى ولا يخص ذا رحم ولا يألوا الأمة نصحاً... وردد مقالته هذه عليهما فوافق كل منهما على هذه الشروط.... ويبدو أنَّ علياً (ع) قد أحرجه بموافقته على شروطه ومن غير المعقول أن يتنازل عن صهره عثمان ويسلمها لعلي بن أبي طالب، كما وأنَّ سعداً لا يتنازل عن أخواله الأمويين مهما كانت الظروف....

فاختلى عبد الرحمن بسعد بن أبي وقاص مرة وبالمسوّر بن مخرمة الزهري أخرى، وأدرك علي (ع) أنَّ خلوة سعد بعبد الرحمن للبحث عن مخرج يسهل لعبد الرحمن إعطاءها لعثمان فقال له: يا سعد اتقوا الله الذي تسألون به والأرحام. أسألك برحم النبي هذا من رسول ورحم عمي الحمزة منك أن لا تكون لعبد الرحمن ظهيراً[7].

7- ويتصل حمزة بسعد بن أبي وقاص بأمه هالة بنة أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وهالة هذه هي عمة سعد، وقد أولدت لعبد المطلب بالإضافة إلى حمزة أم المقوّم والمغيرة والعوام وسعد بن أبي وقاص هو ابن خال الحمزة بن عبد المطلب.....

ويبدوا أن عبد الرحمن في خلوته مع سعد وابن أخته المسور بن مخرمة الزهري قد خرج بشرط جديد قد اتفق عليه الثلاثة يحرج علياً ولا يمكن أن يقبل منه، وكانت الأصوات قد ارتفعت من خارج الدار فالزهاد والفقراء والمحرومون وبنو هاشم وأنصارهم الذين يمثلون الجمهور كانوا يهتفون باسم علي(ع)، والمترفون وأصحاب الامتيازات والأطماع والأمويون يهتفون لعثمان، وعمار بن ياسر والمقداد كادا أن يشتبكا مع ابن أبي سرج وعبد الله بن ربيعة المخزومي فقال سعد لعبد الرحمن: أفرغ أمرك يا عبد الرحمن قبل أن يقتتل الناس فعندها عرض على عليّ (ع) بالإضافة إلى الشروط السابقة العمل بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر فرفض علي (ع) وقال اعمل بكتاب الله وسنة نبيه وبرأيي فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة فالتفت عبد الرحمن وعرض شروطه على ابن عفان فوافق عليها بلهفة ورغبة، وكرر عبد الرحمن شروطه على أمير المؤمنين لعلمه بأنّه لا يقبل الشرط الأخير منها مهما كانت الظروف، فعرضها على عثمان فتقبلها فتمت لعثمان حسب التخطيط الذي أراده ابن الخطاب لها....

نظرة على حادثة الشورى

أقول: بأي قانون أو ميزان عدل يجوز حصرُ انتخاب لخليفةٍ بهؤلاء الستة أولاً ومن أين جاز إلزامهم وإجبارهم على الدخول بهذه الشورى؟ ثم كيف حكم بقتلهم وإعدامهم لمجرد امتناعهم وأية آية أو رواية استند عليها ورجع إليها في هذا الحكم بالقتل والإعدام؟

وكيف يجوز أن يأمر بقتل جماعة حكم لهم رسول الله (ص) بالجنة بشهادة عمر بن الخطاب؟

ثم كيف صح جواز تنفيذ هذا الوضع والترتيب وقتل المخالف بمجرد مخالفته ولو كان مصيباً؟

ثم ماذا يقصد من الترتيب البديع والحكم المبرم وتوكيل الأمر إلى أبي طلحة دون سواه ومن أين علم عمر إصابة أبي طلحة وعدم انحرافه أو عدم انخداعه فينتهز هذه الفرصة ويميل مع هواه، ومن الذي يردع هذا المكلف من قبل الخليفة الراحل أن يفعل كل ما يشاء ويختار ومعه القوة المسلحة. والنفوس كلها متحفزة لنيل الخلافة التي لأجلها تسفك الدماء وتهتك الحرمات.... ثم ما هو الهدف لعمر بن الخطاب في هذا الترتيب الفريد في بابه حتى أمر رئيس الشرطة بأن يقتل واحداً إن خالف. ويقتل اثنين إن خالفا، ويقتل الثلاثة الذين ليس فيهم عبد الرحمن بن عوف. وهل لنا أن نلتمس وجهاً وجيهاً لهذا الترتيب ومن هو الذي يحتمل مخالفته لأمر الخليفة أو لرجال الشورى الذين شهد لهم جميعاً رسول الله (ص) بالجنة حسب قول الخليفة نفسه.... والذي يغلب على الظن ويقوى في النفس أنّ أول رجل يحتمل أن يخالف بما سيدور

عليه الموضوع المقرر المرسوم المخطط هو علي بن أبي طالب (ع) لأنّه هو الذي لا يوافقه إلّا سلوك طريق النبي المرسوم ومخططه لا يحيد عنه قيد شعرة، فإذا خالف الجماعة وانفرد هو برأيه ناله القانون ونُفِّذ في حقه المخطط الخاص واستراح المجتمع الإسلامي من تشدده في الدين. وعدم مراعاته للمخلوقين بما يرغبون ويشتهون والله العالم....

ومن هو الرجل الثاني الذي يحتمل أن يخالف ويمانع معه يا ترى حتى ينفذ في حقه المخطط أيضاً - الذي يغلب على الظن وتطمأن به النفس - هو الزبير لأنّه ابن عمّته وليس له صلة قوية مع سواه أكثر منه خصوصاً بعد ثبوته معه يوم السقيفة حتى اضطر عمر إلى كسر سيفه كما مرّ آنفاً..... ومن المحتمل حصول المخالفة منه من الباقين في هذا الموضوع أيضاً والذي يقوي في النفس ولا يبعد هذا الاحتمال - أن يكون المخالف بعد الاثنين الأولين - طلحة بن عبيد الله، لأنّه ممن كان كارهاً لخلافة عمر وتكلم في حقه ما تكلم أولاً وأخيراً كما سمعت من قريب، ولأنّه قد لا يوافق مع عثمان وبني زهرة اتباع عثمان وحينئذ إذا حصل الخلاف من هؤلاء الثلاثة، نفذ أبو طلحة الأنصاري في حقهم وصية الخليفة.وصفي الأمر للأموي عثمان بدون أدنى منازع....وإذا قضي على هؤلاء الثلاثة وبنو زهرة لا حظ لهم في هذا الأمر بشهادة الخليفة تعين الأمر لعثمان يسرح ويمرح كيفما طاب له الهوى.... ولكن سيدنا علي كان أبعد نظراً وأعمق غوراً من أن يقع تحت وطأة هذا المخطط ويخفى عليه حتى يسلط عليه مثل أبي طلحة الأنصاري يقتله صبراً ويحدث في الإسلام ثلمة يكون وبالها عليه أدهى وأمر، ولكنه أسف إذا أسفوا وطار إذا طاروا وإن صغا رجل إلى ضغنه - يعني طلحة - لأنه من بني تيم ومعلوم ماذا جرى منهم على بني هاشم يوم السقيفة...... ومال الآخر لصهره - يعني عبد الرحمن بن عوف مال إلى صهره عثمان والمفروض أنّ سعداً لا يفارق ابن عمه عبد الرحمن، فتمت الشبكة واستحكم المخطط لصيد أبي الحسن علي مع الزبير ابن عمته أو هما مع طلحة ابن عبيد الله المناوئ للخليفة الثاني بكل جرأة ووقاحة حتى قال له: قل فإنّك لا تقول من الخير شيئاً..... فالشبكة نصبت والمخطط رسم لاقتناص هؤلاء الثلاثة أو بعضهم كما ذكرنا تفصيلاً وكانت خطة عمر لايذاء

سيدنا علي تنقسم إلى شقين الشق الأول ما ذكرناه حول اصطياده لقتله وإذا نجا كما أصبح واقعاً فهناك الشق الآخر من الخطة المؤامرة وهي التي سوف نفصلها الآن.... وهو أنه لما كانت غاية ابن الخطاب أن لا يدع ابن أبي طالب يصل إلى سدة الخلافة نهائياً مهما كلّفه الأمر، وخاف بعد موته أن تدور الدائرة ويرجع الأمر إلى علي بن أبي طالب (ع) فيكون قد رجع الحق إلى أهله واستقر الأمر في محله وهذا خلاف ما يبتغيه الخليفة عمر إذن فليخطط تدابير لا يسلم منها ابن أبي طالب على أي وجه من الوجوه..... فحبك خطته بحيث أنه إذا سلم من القتل على يد أبي طلحة كما أسلفنا فهذا شق من الخطة وهناك شق آخر لا بد من حصوله كيفما كان الحال ومهما تحذر منه علي (ع) فهو واقع وقوع أحد النقيضين اللذان لا يرتفعان أبداً.... فهيأ رجال الشورى الخمسة وجعلهم في صف علي (ع) بعد أن كانوا يعتقدون أنهم لا نسبة بينهم وبين علي بن أبي طالب فارس الهيجاء ومجندل الشجعان وبطل الخندق والأحزاب وداحي باب خيبر - فأصبحوا بطبيعة هذا الوضع من الخلافة يرون أنفسهم بمثابة علي وبصف علي وأقراناً لعلي (ع) وأهلّهم الخليفة أمام الخاص والعام حتى أصبح الناس يرونهم جميعاً بمرتبة واحدة ومعدل واحد..... وهنا تحطمت معنويات سيدنا علي (ع) الذي هو دون الخالق وفوق المخلوق - أمام الناس - لأنَّ أهل الشورى الذين أهّلهم الخليفة للخلافة وجعلهم في مصاف علي بن أبي طالب لم يكونوا بنظر الناس ذا ميزة فائقة ولا أصحاب مرتبة عالية بل هم من عامة المسلمين لا بل هناك كثير من الناس من يرى نفسه ويراه الناس أعلى قدراً وأعظم شأناً من أصحاب الشورى الخمسة فإذا صار - ابن أبي طالب - رجلاً مثلهم فهناك كثير من الناس أعلى منه شأناً وأعظم قدراً وعلى أقل العقادير مساوياً له في جميع المؤهلات خصوصاً - ملك الشام وابن زعيم الأمويين معاوية - فإنّه استطاع بواسطة هبوط علي من سموه العالي وجعله بمصاف هؤلاء العوام يرى نفسه أولى من جميع أهل الشورى بخلافة المسلمين ويستطيع أيضاً أن يبرهن للناس ويثبت لهم بالأدلة القطعية أنّه أولى الناس بخلافة المسلمين لأنّه زعيم بن زعيم مقابل هؤلاء الذين ليس لهم ذكر يعرف ولا فخر يذكر فمن هو طلحة بن عبيد الله ومن هو سعد بن أبي وقاص ومن هو عبد

الرحمن ومن هو الزبير وعثمان الذين لا نسبة لهم مقابل معاوية سلطان الشام وابن الزعيم أبي سفيان الذي جمع الجموع وحزّب الأحزاب حتى أرهب المسلمين وجاءهم من فوقهم ومن تحتهم وملأ قلوبهم خوفاً ورعباً وبلغت قلوبهم الحناجر... عدا عن أنّ عمر بن الخطاب قد أهّله للخلافة. وقد يستغرب القارئ ويقول ومتى أهّله عمر فنقول له: لقد أهّله ابن الخطاب عن طريقين: الطريق الأول ما ذكرناه من انحطاط مقام سيدنا علي (ع) - أمام عامة الناس - عندما قرنه إلى بقية أعضاء الشورى..... والطريق الثاني هو من (البرقية اللاسلكية) التي أرسلها إليه، وإليكها كما جاء عن ابن عباس قال: سمعت عمر ابن الخطاب يقول لأهل الشورى: إنكم إن تعاونتم وتوازرتم وتناصحتم أكلتموها وأولادكم، وإن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم غلبكم على هذا الأمر معاوية بن أبي سفيان وكان معاوية حينئذ أميراً على الشام.

وذكرها بطريق آخر ابن أبي الحديد في شرحه (ج3 ص99) ما هذا نصه حرفياً قال ابن ديزيل: وحدثنا عمر وبن الربيع قال: حدثنا السري بن شيبان عن عبد الكريم: أنّ عمر بن الخطاب قال لما طعن: يا أصحاب محمد تناصحوا فإنكم إن لم تفعلوا غلبكم عليها عمرو بن العاص أو معاوية بن أبي سفيان - قلت - القول للشارح - إنّ محمد بن النعمان المعروف بالمفيد أحد علماء الإمامية قال في بعض كتبه: إنما أراد عمر بهذا القول إغراء معاوية وعمرو بن العاص بطلب الخلافة وأطماعهما فيها لأنّ معاوية كان عامله وأميره على الشام. وعمرو بن العاص كان عامله وأميره على مصر وخاف أن يضعف عثمان عنها وأن تصير إلى علي بن أبي طالب فألقى هذه الكلمة إلى الناس لتنقل إليهما وهما بمصر والشام فيتغلبان على هذين الإقليمين إن أفضت إلى علي (ع).

وبإرساله هذه البرقية أصبح معاوية من مؤهلات الخليفة عمر لخلافة المسلمين لأنّه لو لم يكن قد رآه أهلاً لما خاف على أهل الشورى عند نزاعهم الأمر أن يتغلب عليهم معاوية ملك الشام وابن زعيم الأمويين.... بل يمكن أن يستفاد من كلمة ابن الخطاب، أنّ معاوية أعلى قدراً وأقوى إدارة للقيام بشأن خلافة المسلمين من أهل الشورى. ولذلك يمكنه سلب الأمر من بين يدي أهل

الشورى وخسرانهم جميعاً هذه هي البغية الوحيدة للخليفة من مخطط الشورى الذي هو واقع لا محالة إذا لم ينجح المخطط الأول الذي أولج تنفيذه لأبي طلحة الأنصاري للقضاء النهائي على علي بن أبي طالب (ع) فبواسطة المخطط الثاني قد تحطمت جميع معالي علي بن أبي طالب وتهدمت معنوياته التي لا نظير له فيها ولا شبيه، حتى أصبح رجلاً من الناس لا ميزة له عن عوامهم وأصاغرهم، ولهذا نكث طلحة والزبير بيعته وجيشوا الجيوش طالبين تلك الرئاسة التي أهلهما لها الخليفة الثاني ولا تنظر الناس إليهما بالاستنكار والاستغراب لأنهم يرون أنَّ الخليفة عمر قد أهلهما فليس هما بأقل من عثمان ولا أنزل مرتبة من علي بن أبي طالب فلماذا لا يطالبان بها ويحاربان علياً، ويستغلان الموقف بإظهار الطلب بثأر عثمان بن عفان.....

ويقول ابن أبي الحديد بما يقارب ما قلناه عن إفرازات الشورى: وأمَّا السبب الثاني للاختلاف فهو جعل عمر الأمر شورى في الستة. ولم ينص على واحد بعينه إمَّا منهم وإمَّا من غيرهم فبقي في نفس كل واحد منهم أنَّه قد رشح للخلافة وأهّل للملك والسلطنة فلم يزل ذلك في نفوسهم طامحة نحوه عيونهم حتى كان من الشقاق بين علي (ع) وعثمان ما كان وحتى أفضى الأمر إلى قتل عثمان.... وكان أعظم الأسباب في قتله طلحة وكان لا يشك أنَّ الأمر له من بعده لوجوه... فما زال يفتل في الذروة والغارب في أمر عثمان وينكر له القلوب ويكدر عليه النفوس ويغري أهل المدينة والأعراب وأهل الأمصار به.... وساعده الزبير وكان أيضاً يرجو الأمر لنفسه ولم يكن رجاؤهما الأمر بدون رجاء علي بل رجاؤهما كان أقوى.... لأنَّ علياً (ع) دحضه الأولان وأسقطاه وكسرا ناموسه بين الناس فصار نسياً منسياً ومات الأكثر ممن يعرف خصائصه ونشأ قوم لا يعرفونه ولا يرونه إلّا رجلاً من عرض المسلمين ولم يبق له مما يمت به إلّا أنه ابن عمّ الرسول وزوج ابنته وأبو سبطيه ونسي ما وراء ذلك كله.

أقول: هذا اعتراف صريح من ابن أبي الحديد بأنَّ أبا بكر وعمر قد تعمدا الحط من قدر سيدنا علي وقيمته وأبعداه عن الناس والوعظ والإرشاد وعن

الأمور الأساسية في الدولة حتى مات أكثر من يعرف خصائصه وأنّه بطل الإسلام وأول الناس إسلاماً وأكثرهم جهاداً وأنّه المنصوص عليه فلهذا عندما شاققاه طلحة والزبير وعائشة كان كثير من الناس لا يعرفون عنه إلّا أنه صهر الرسول وليس له من الفضائل أكثر من ذلك فاسمعوا يا أولي الأبصار...

ولقد أحسن الأديب المصري في كتابته عن الشورى وأجاد قال: لقد ألّب عمر - عامداً - على سليل هاشم أحقاد قريش وكتب له - إذا ودع الشورى أولئك الخمسة - مصيراً مآله الفشل ومن لعلي يرضا بني تيم... ومن له بمحو الأحقاد على بني هاشم من قلوب أصحابها بعد أن ظلوا أجيالاً يربون هذه الأحقاد في قلوب الأبناء عسى أن يثأر ذات يوم سليل أمية من سليل غريمهم الهاشمي.... لقد كان يكفي أن تجمع شورى عمر بين علي وبين التيمي طلحة والأموي عثمان...... ولكنّا نرى عهد الخليفة الطعين بادياً في صورة من الإمعان في تأليف قوى العصبية كلها ضد ابن أبي طالب. فلقد ضمت الشورى سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وكلا الرجلين من زهرة ولكليهما نسب موصول ببني أمية. الأول من ناحية أمه بنت أبي سفيان، والثاني من ناحية زوجه أم كلثوم أخت عثمان.... فإذا علمنا هذا فماذا بعده يدع لعلي فرصة واحدة للفوز.... وكذلك كانت وصية عمر بالشورى تومئ إلى الرجل المغلوب كما يومئ عهد مكتوب....

وقال في مكان آخر ص 256 من كتابه القيم علي بن أبي طالب: وفي الحق لقد كانت الشورى العمرية ضرباً جديداً من العهود ولم يكن لها مثيل من قبلها في الإسلام وهي بنحوها هذا نوع غريب من الاختيار قبل الانتخاب....

وقال ص 258: قصة الشورى جديرة بأن يتلكأ عندها برهة ذهن المتدبر لأنّ فيها برسمها المعروف شتات.... فيها خروج على مبدأ الشورى الذي أملاه على النفس البشرية حب الحرية قبل أن يمليه دين أو تسنه قوانين، وفيها تحكم الفرد في الجماعة إذ يلزمها أن ترسم رأياً رآه في نفر اختارهم وفق تقديره إن لم يكن وفق هواه.... وفيها تعسف التسوية بين ستة تجاهر المزايا

والفوارق بأنهم ليسوا على درجة واحدة في شرعة المزايا والفوارق وبأنهم ليسوا على درجة واحدة في شرعة المساواة، وفيها تكتل للقوى العصبية وللأحقاد القبلية وتجييشها ضغناء يرجح ميزانها ويمد لها في حبل الطغيان فيها قبل هذا وذاك قلوص عن الرأي الصائب الذي كانت تفرضه منذ البدء مصلحة الشعب ورأي متعثر لم يكن قرين الصواب....

وقال كاتب آخر عن حادثة الشورى: فمنذ البداية كان عمر بن الخطاب يمهد لخلافة عثمان ولكن الحرص على إحضار الستة له أسبابه التكتيكية. لقد حاول عمر من خلال هذا الترتيب أن يظهر للناس من بعده أنّ علياً (ع) على الرغم من حضوره فإنّه لم يستطع الفوز بها - أي الخلافة - لعدم جدارته ورفض الناس له وبهذا سيسلب منه ورقة الخلافة ويسقطه سياسياً كما أنّه أراد أن يسقط معه مناوئيه القدامى وهما طلحة والزبير وما وجود سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن سوى لتحقيق التوازن في المخطط ليفضي الأمر في نهاية الجولة إلى عثمان بن عفان...

لقد ذكرنا كيف تمت مسرحية الشورى وكيف بايع عبد الرحمن عثمان... ولم ير أمير المؤمنين وهناً عليه في ذلك ما دام يؤثر حرية رأيه وما يراه حقاً على الدنيا وما فيها ولقد كان ابن عوف يعلم منه ذلك ولذلك عرض عليه الشرط الأخير بعد أن اتفق مع سعد وابن مخرمة الزهري،... لقد كان علي بن أبي طالب المرجع الأول والأخير لابن أبي قحافة وابن الخطاب في كل ما يستعصي عليهما من مشكلات الأمور ما يتعلق منها بأمور الدين والدنيا، وقد اختلفا في سيرتهما وسياستهما وخالفا من سبقهما فبأي السيرتين أراد ابن عوف أن يلزم علياً ليدلي له بالبيعة وبأيهما كان عليه أن يقتدي والأمور لديهما كانت تختلف حسب مصالحهما وحسب نظرتهما إلى الأمور والأحداث التي توالت في تلك الفترات من تاريخ الإسلام. وهنا لا بد من الاستفهام وهو لماذا قرن عبد الرحمن قبول الخلافة لعلي بشرط أن يعمل بسيرة الشيخين مع كتاب الله وسنة رسوله؟ ونحن نعلم أن كتاب الله هو قانون الله وأساس الشريعة وأمّا سنة الرسول فهي أيضاً قانون الله تعالى وشريعته على لسان نبيه الذي لا ينطق

عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى. ولقد ألزم الناس بإطاعته فقال عز وجل ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وأخبر أنَّ طاعة الرسول طاعته فقال سبحانه (من أطاع الرسول فقد أطاع الله) فقد تحقق لدينا وجوب العمل بالكتاب والسنة ولكن من أين جاء وجوب الالتزام بسيرة الشيخين وتقييد الخلافة بها فهل كان جبرائيل ينزل على أبي بكر وعمر كما كان ينزل على رسول الله (ص) حتى يصبح كلامهما كلام الله تعالى الذي هو واجب العمل به وعدم جواز مخالفته؟، أم نزل بالقرآن المجيد آيات توجب اتباعهما والالتزام بسنتهما كما نزل في رسول الله (ص) فما ندري بماذا يجيب الأتباع على هذا السؤال.... ثم لو غضينا النظر عن هذا كله وتساءلنا لماذا علي بن أبي طالب الذي كان يتحرق لهباً ويتجرع الغصص ويصطبر على طخية عمياء كأنَّ في عينيه قذىً وفي حلقه شجاً - يترك هذا الأمر ويزهد فيه مع شدة تلهفه عليه وقد أتاه بكل سلم وسلام ولم يكلفه سوى كلمة نعم، فما بال هذا الحكيم ترك الأمر الجليل وزهد فيه حينما أراد عبد الرحمن أن يلزمه بسيرة الشيخين وما الذي كان يقع فيه من الخطر لو التزم؟ وما هي الخسارة التي تكلفه لو قال نعم مقابل ما فاته من خلافة المسلمين التي بها تصبح الصفراء والبيضاء تحت تصرفه ورهن إرادته سبحانك ربنا ما هي الداهية العظمى التي كانت تترتب على كلمة نعم من علي (ع) وما قيمة لفظة نعم وأي بلاء كان يدهم علياً لو قالها ونال رئاسة المسلمين؟ فهل هناك من يمكنه من الإجابة على هذا الاستفهام؟ ونحن إذا أظهرنا السبب الذي دعا علياً (ع) لعدم قبول الخلافة بشرط العمل بسيرة الشيخين فلا داعي لقائل أن يقول هذا يتحدّى بعض الناس ويجرّح عواطفهم لأنه أظهر الحقيقة بالبراهين القطعية والأدلة اليقينية.... ونحن نقول ونسأل أولاً هل كانت سيرة الشيخين مأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله أم لا؟ فإن كانت مأخوذة منهما فلا داعي لاشتراطها لأن العمل بهما عمل بها، وعلى فرض أنّها ليست مأخوذة منهما فنسأل هل هي موافقة لكتاب الله وسنة رسوله فإن كانت موافقة فلا مانع من عدم قبول الشرط بها ولا داعي لامتناع علي من قبولها وفوات الخلافة وتركها مقابل الالتزام بما تتنافى مع كتاب الله وسنة رسوله؟ وعلي حكيم وعالم غير معلم، لا يجوز أن يدع

الخلافة تتلاعب بها الأهواء والجهال وهي من حقوقه الخاصة وهو يعلم ما سيؤول إليه الحال بخروجها من تحت سلطته، إذن فتعين أنَّ الشرط الذي أراده عبد الرحمن بن عوف يتنافى مع كتاب الله وسنة رسوله والالتزام به خروج عمّا يريده الله ورسوله، وعلي يستحيل أن يدع الله ورسوله لأجل الخلافة مهما علا قدرها وعظم شأنها وهل كانت غاية علي إلّا مرضاة الله ورسوله.

وهل كانت رغبته في الخلافة إلّا المحافظة على قانون الله وشريعته وحفظ بيضة الإسلام والسير المستقيم الذي يقربُه لله رب العالمين وإذا كان الالتزام بسيرة الشيخين - المستكشفة من امتناع علي - يبعده عن الله ورسوله فقد انعكس الأمر وذهب المطلوب وبعدت الغاية المطلوبة لعلي (ع) وهذا علي يخاطب ابن عباس حينما آلت إليه الخلافة راغمة مذغنة بدون منازع له قال الراوي: دخل ابن عباس عليه وهو يرقع نعلاً له من ليف فقال يا ابن عباس ما قيمة هذا النعل؟ قال ابن عباس لا شيء يا أمير المؤمنين؟ قال (ع) إنَّ أمرتكم أقل قيمة عندي من هذا النعل لولا أن أقيم حقاً أو أهدم باطلاً.... فلهذا حاشاه أن يلتزم بما لا يتلاءم مع كتاب الله وسنة رسوله أو يخلف ما وعد فلتذهب الخلافة أينما ذهبت وليبقى علي محافظاً على مبدأه وعقيدته مطيعاً لربه وخالقه. وليلعب اللاعبون ما شاؤوا فإنَّ مردهم إلى الله فينبؤهم بما كانوا يعملون.... وبرأيي أن سيدنا علي (ع) لو وافقهما - لا سمح الله - وإن كان مستحيلاً هذا الاحتمال - على الشرط الأخير - أي العمل بسيرة الشيخين - لوضعا له شرطاً آخر وهكذا حتى ينسحب منها وتتم لابن عفان بلا منازع.... ومضى علي (ع) بعد انتهاء تلك المسرحية ولم يعارض كعادته مع الخليفة الراحل ولكنه قال كما جاء في بعض المرويات: نحن أهل بيت النبوة ومعدن الحكمة أمان لأهل الأرض ونجاة لمن طلب، إن لنا حقاً أن نعطه أخذناه وأن نمنعه نركب إعجاز الإبل.... والتفت إلى ابن عوف وقال: ليس هذا بأول يوم تظاهر تم فيه علينا فصبر جميل وبالله المستعان على ما تصنعون. والله ما وليته الأمر إلّا ليرده عليك، وفي رواية ثانية لقد رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه[7] دق الله بينكما عطر منشم....

7- يشير بذلك إلى بيعة عمر يوم السقيفة لأبي بكر ليكون الأمر له من بعده.

وقد قال أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل: إنَّ الله استجاب دعاء علي(ع) في عبد الرحمن وعثمان بن عفان، فما ماتا إلا متهاجرين متباعدين وأرسل إليه عبد الرحمن يعاتبه على سوء تصرفاته وما أحدثه من البدع والمنكرات فازداد الأمر بينهما بعداً وسوءاً وجاء في شرح النهج أنَّ عثمان بن عفان لما بنى قصره طمار الزهراء وضع طعاماً كثيراً ودعا الناس إليه كان فيهم عبد الرحمن بن عوف فلما نظر إلى البناء والطعام قال: يا ابن عفان لقد صدقنا عليك ما كنّا نكذب فيك أني أستعيذ بالله من بيعتك، فغضب عثمان وقال لغلمانه أخرجوه فأخرجوه وأمر الناس أن لا يجالسوه، فلم يكن يأتيه أحد إلّا ابن عباس كان يأتيه فيتعلم منه الفرائض والقرآن، ولما مرض عبد الرحمن مرضه الأخير عاده عثمان فلم يكلمه حتى مات كما يدعي الرواة[2].....

وانتهت قبيل مساء اليوم الثالث من الأيام الثلاثة تلك المسرحية التي وضعها وخطط لها ابن الخطاب ومثّلها ابن عوف ومن جمعتهم الأضغان والأنساب والمصاهرة على هدف واحد وفاز سليل أمية بالمجد الذي كان يحلم به أجداده قبل عشرات السنين وحاربوا من أجله الإسلام وظلوا يحاربوه بضراوة وحقد حتى أرغموا على الاستسلام له فأظهروه على ألسنتهم ينتظرون الظروف والمناسبات. ولما تم لهم ذلك بمشيئة ابن الخطاب التفوا حول ابن عفان كالسوار وانطلقوا به يزفونه خفافاً وكأنهم يسيرون على الهواء العاصف. وطغت عليهم نشوة الفرح بعد الهزائم المريرة التي مني بها هذا البيت من عهد هاشم وتوالت في معارك الإسلام التي سالت فيها دماؤهم بيد واترهم بأشياخهم علي بن أبي طالب. وحين دخلوا به المسجد أقبل زعيمهم أبو سفيان يتلمس طريقه بعد أن شاخ وفقد ناظريه ليعبر عن مشاعره التي سيطرت عليه وأفقدته وعيه وتوجه نحو بني أمية منفرج الفم عن بسمة الشامت الحقود التي لم تنفرج عن مثلها شدقه إلّا يوم وقف على جسد الحمزة بن عبد المطلب أسد

2- ج1 ص66 أقول إنَّ عبد الرحمن بن عوف خسر الدنيا بطرد عثمان له من مجلسه كما أنّه خسر الآخرة بتغليبه الهوى والعصبية على الحق بانتخابه عثمان وخذلانه سيدنا علي (ع).

الله وأسد الإسلام وزوجته هند تعبث بأحشائه وجوارحه بأسوأ ما تعبث الوحوش الضارية في فريستها، فانفرج شدقه يوم ذاك عن مثل تلك البسمة ووضع الرمح في الجسد الطهور واتكأ عليه وهو يقول: ذق عقق ذق عقق، ثم قال لقومه الذين سيطر عليهم الفرج وأعماهم حتى عن الناس الذين كانوا يراقبون كل تصرفاتهم: أفيكم أحد من غيركم؟ قالوا: كلا، فنصب قامته التي كان قد طواها عمره الطويل واستعاد أحلام شبابه وطموح أسلافه. ونسي أنه كان قد أقر بلسانه يوم أُرغم على الإسلام بنبوة محمد وبكل ما جاء به، فقال: تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة فوالذي يحلف به أبو سفيان[3] لا من جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب، ولقد كنت أرجوها لكم ولتصيرنَّ إلى صبيانكم وراثة..... ولم يقف عند هذا الحد بل قام من مجلس الخليفة الجديد يقوده غلامه وهو يتمايل عن تيه وخيلاء وأمر غلامه أن يسير به إلى خارج المدينة والغلام لا يعلم الغاية من ذلك. ومضى به الغلام باتجاه جبال أحد حتى انتهى إلى مقبرة المسلمين، فقال لغلامه دلني على قبر الحمزة بن عبد المطلب وانفرج فمه عن أخبث بسمة تستطيع أن تصوغها شفتاه ثم قال: يا أبا عمارة إنَّ الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى بيد غلماننا يتلعبون به، وركل القبر برجله ومضى وهو يحسب أنَّه قد أصاب ثأره وثارات أسلافه الأولين من هاشم وبنيه هذا اليوم.

وانطوى علي (ع) على نفسه كما فعل من قبل وآثر هو ومن معه من

3- أتمنى على القارئ الواعي أن يعرف ما هذا الذي يحلف به أبو سفيان - إذا كان لا يؤمن لا بجنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب - وهل هذا الذي يحلف به إلّا اللات والعزى ومناة ومن سوء حظ المسلمين أن ينبري كتاب في هذا العصر يدافعون وينافحون عن هذا الكافر الملحد.... وكذلك من سوء حظ المسلمين أن يكون هناك خلفاء وأمراء للمؤمنين عندهم يسمعون كلام هذا الفاجر ثم لا أحد يردعه وإنْ ادّعوا أنَّ عثمان ردعه وهذا مما لا يقره المنطق ولا يثبته الحديث الصحيح والدليل على ذلك أنّه أخذ غلامه وذهب إلى قبر أسد الله وأسد رسوله وأخذ يتشفى به ويقول له أنّ الذي قاتلتنا عليه أصبح بيدنا نلعب به ونمسخ أغراضه ونفرغه من محتواه ونشوه صورته ونغير كل صحيحه.... هذا ما أوصلنا إليه أصحاب الانقلاب الأول في السقيفة.

المؤمنين بالله وبمحمد بن عبد الله وبما جاء به من عند الله الذين وهبوا حياتهم للحق والعمل لخير الناس لا يخشون بطش الظالمين ولا سيوفهم المسلولة على من ينكر عليهم سوء صنيعهم واستئثارهم بخيرات البلاد وأموال الفقراء والمساكين..... لقد وقف علي (ع) بين تلك الجماهير التي احتشدت في ذلك اليوم يخاطبهم بالمنطق السليم الذي اعتاد أن يخاطب به الناس، ليكشف لهم الخط الذي سيمضي عليه في العهد الجديد، فقال: أيها الناس لقد علمتم أني أحق الناس بهذا الأمر من غيري، أما وقد انتهى الأمر إلىّ ما ترون فوالله لأسالمنّ ما سلمت أمور الناس ولم يكن جور إلّا علي خاصة التماساً لأجر ذلك وفضله وزهداً فيما تنافستموه من زخرفة.

وهكذا سالم أمير المؤمنين (ع) وبايع لعثمان كما بايعه الناس ومضى في السبيل الذي اختاره لنفسه يعمل ما وسعه العمل في سبيل الصالح العام لا يبخل عليهم بآرائه ولا بكل امكانياته إذا أرادوها في سبيل الإسلام وانتشاره كما سالم وساير ونصح من كان قبله.... ولكن الخليفة الجديد أبى هو وطغمته المحدقون به من بني أمية أن يسيروا حتى بسيرة من تقدمهم ومهد لهم الطريق فاستأثروا بالأموال والمراكز وجميع خيرات البلاد وكأنها إرث لهم من أمية وعبد شمس يقضمون مال الله قضم الإبل نبتة الربيع كما وصفهم أمير المؤمنين (ع) في أخريات أيامه حيث قال في خطبته المعروفة بالشقشقية، إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه وقام معه بنو أمية يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث عليه فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته...... لقد أوجز أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) مصير الخلافة إلى ابن عفان وكيف تعثرت سياسته حتى انتهى الأمر إلى أسرته وبقي هو مسلوب الإرادة لا يملك منها إلّا أن يأكل ويشرب وهم يعبثون ويفسدون إلى أن انتفضت عليه الأمة وسارت الأمور إلى النهاية التي لقي فيها مصرعه.

وحسبما روينا وروى المؤرخون: لقد حذّره ابن الخطاب من سياسته تلك قبل أن يصل إليها وقال له: كأني بك وقد قلدتك قريش هذا الأمر فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء فسارت إليك عصابة

من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك وقد أوجز بعض المؤرخين أبرز ما ارتكبه هو وبنو أمية من الأعمال والمنكرات فقال لقد أوطأ بني أمية رقاب الناس وولاهم الولايات وأقطعهم القطائع، وافتتحت أرمينية في زمانه فأخذ الخمس كله ووهبه لمروان فقال عبد الرحمن بن جنيد الجمحي:

أحلف بالله رب الأنام ... ما ترك الله شيءاً سدى

ولكن خلقت لنا فتنة ... لكي نبتلي بك أو تبتلى

وأعطيت مروان خمس البلاد ... فهيهات سعيك فيمن سعى

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد خلة فأعطاه أربعمائة ألف درهم وكان أشد مما وجه الأنظار إليه وأثار غضب المهاجرين والأنصار أن افتتح خلافته بإرجاع الحكم بن أبي العاص وبنيه وأسرته إلى المدينة بعد أن طردهم رسول الله منها ولم يقبل بهم شفاعة أحد أبداً، كما رفض الشيخان أبا بكر وعمر شفاعة المتشفعين لهم وإرجاعهم إليها وكان الحكم مؤذياً لرسول الله يشتمه ويسمعه مما يؤذيه، وفيما كان رسول الله يمشي ذات يوم والحكم يمشي من خلفه يغمز به ويحكيه في حركاته ومشيته مستهزئاً ويخلج بأنفه وفمه، وإذا صلى قام خلفه مشيراً إليه بإصبعه، فالتفت إليه يوماً فوجده يخلج بأنفه وفمه فقال: كن كذلك فبقي على حالته تلك كالمخبول[4].... وقد أظهر الإسلام هو وولده يوم الفتح وقدم المدينة بعده وكان مطعوناً في دينه، واطلع على رسول الله يوماً وهو في بعض حجر نسائه فخرج إليه وقال: من عذيري من هذه الوزغة اللعين لو أدركته لفقأت عينيه والله لا يساكنني وولده في بلد واحد، وأخرجهم جميعاً إلى الطائف في موضع يقال له (بطن وج) كما جاء في أنساب الأشراف للبلاذري، وأضاف إلى ذلك أنّه لم يزل خارج المدينة إلى

4- انظر إلى هذا الخليفة الذي يعد من الخلفاء الراشدين كيف يؤذي الرسول بتقريب أعدائه وإعطائهم أموال المسلمين مع العلم أنّ الرسول طرده ولم يقبل شفاعة عثمان فيه فمامعنى إرجاعه وهل هو إلّا مخالفة للرسول (ص) فانظروا يا أولي الألباب.

5- وما همه إن أنكر المسلمون أم لم ينكروا وإنما هو وأصحابه قاموا بانقلابهم في السقيفة من أجل أن يحلوا عرى الإسلام عروة عروة ويقربوا إليهم الطلقاء والمنافقين ويصبوا جام غضبهم على الأتقياء والصحابة المؤمنين وهذا ما صار كما سنبينه.

أن استخلف عثمان فرده وولده وكان ذلك مما أنكره المسلمون[5]. ولما مات في خلافة عثمان ضرب عليه فسطاطاً فقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت لمروان:

إن اللعين أباك فارم عظامه   إن ترم ترم مخلجاً مجنونا

يضحي خميص البطن من عمل التقى   ويظل من عمل الخبيث بطينا

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه علي بن أبي طالب يحدثنا عن الحكم فقال: لما رده عثمان إلى المدينة أنكر عليه المسلمون ذلك ثم ولاّه صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف درهم فوهبها له، ومضى يقول: إنَّ رسول الله كان يوم فتح مكّة قد أهدر دمه وعفا عنه بشفاعة عثمان، ولكنه هاجر إلى المدينة ليكيد لرسول الله (ص) وأخرجه من المدينة بعد أن ظهر من حاله ما ذكرنا وقال: والله لا يساكنني ولا ولده، وبالرغم من أنَّ عثمان قد توسط له عند أبي بكر وعمر فلم يقبلا وساطته وقال كل منهما: ما كنت لآوي طريد رسول الله.... وقال ابن أبي الحديد في شرح النهج: إنَّ رسول الله تصدق بموضع سوق في المدينة - يعرف بنهرون - على المسلمين فأقطعه ابن عفان إلى الحرث بن الحكم شقيق مروان، وأقطع مروان - الذي قال عنه الرسول (ص) الوزغ بن الوزغ - فدكاً وكانت لفاطمة الزهراء وقد أخذت منها بعد وفاة أبيها وطلبتها فردوا طلبها ودفعت عنها[6]، وحمى المراعي حول المدينة كلها ومنع عنها مواشي المسلمين وأباحها لمواشي بني أمية، وأعطى عبد الله بن سرح وهو أخوه من الرضاعة جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية بالمغرب وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين على حد تعبير ابن أبي الحديد وغيره من المؤرخين.... وعبد الله بن

6- طبعاً لا يقبلوا أن يعطوا فدكاً لبنت الرسول وهي من حقها أنحلها إياها أبوها لأنهم يريدون أن يسيئوا إلى الرسول في بضعته وأهل بيته ولئلا تتقوى بهم على المطالبة بحق زوجها في الخلافة التي اغتصبوها بانقلابهم في السقيفة والآن يعطونها لعدو الله وعدو رسوله وعدو المسلمين فتابعوا أيها المسلمون هذه المهازل من خليفة المسلمين.

سرح هذا الذي أعطاه كل هذا العطاء - كان قد أسلم قبل الفتح وهاجر إلى المدينة فكتب إلى رسول الله برهة من الزمن، ثم ارتد مشركاً وعاد إلى مكة يحدث قريشاً الكذب على رسول الله (ص) ويقول لهم: أني كنت أصرف محمداً حيث أريد وكان يملي عليّ من قرآنه عزيز حكيم فأقول عليم حكيم فيقول: نعم كله صواب ويملي علي لعنة الله على الكافرين فأكتبها على الظالمين فأنا أقول كما يقول محمد وآتي بمثل ما يأتي به فأنزل الله فيه كما جاء في أنساب الأشراف ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء﴾ ومن قال: ﴿سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذا الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون....﴾ ولما كان عام الفتح أهدر رسول الله دمه فيمن أهدر دماءهم من المشركين والمنافقين وقال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن غير عدو الله بن سرح." فتشفع فيه عثمان وكان أخاه من الرضاعة وألحّ على رسول الله في طلبه فسكت رسول الله (ص) فانطلق به عثمان إلى النبي فصرف وجهه عنه ثلاث مرات وعثمان يلح في طلبه، وأخيراً لم يزد رسول الله على قوله نعم فانصرف به عثمان فقال النبي لمن حوله من المسلمين: أما كان فيكم من يقوم إلى هذا الكلب ويقتله. وأني ما سكت إلّا ليقوم أحدكم إليه فيقتله قبل أن أؤمنه فقال له أحدهم: لو أومأت إلينا قتلناه فقال: إني لا أقتل بالإشارة وإن الأنبياء لا يكون لهم خائنة الأعين.... ولما تولى ابن عفان الخلافة ولاه على مصر[7] سنة خمس وعشرين من الهجرة وبقي عليها إلى سنة أربع وثلاثين حيث ثار عليه محمد بن أبي حذيفة بن عتبة فذهب ابن أبي سرح إلى عسقلان وأقام بها حتى قتل عثمان... ويذهب بعض الرواة إلى أنّه مات بإفريقية...

لقد وصفه النبي (ص) بعداوته لله ولرسوله وأمر بقتله ولو وجد متعلقاً

7- انظروا إلى المفارقات رسول الله (ص) يهدر دمه ويغتاظ عندما أتى به عثمان ألا يكون هناك أحد من المسلمين قام وقتله ثم بعد ذلك إمعاناً وكيداً للرسول ومخالفة يوليه عثمان مصر مدة تسع سنوات يأكل خيرها.

بأستار الكعبة ولائذاً بها. وفي ذلك دلالة على أنّه لن يكون من المؤمنين أبداً وهو تزيّ بزي المسلمين ولبس لباس القديسين وظل حتى النفس الأخير من ألد الاعداء لله ورسوله كما أخبر عنه الصادق الأمين[8]

ومضى ابن أبي الحديد في شرحه لفقرات الشقشقية يقول: وأعطى أبا سفيان بن حرب - رأس النفاق والملحد الكبير والذي لم يسلم يوماً في حياته- مائتي ألف من بيت المال في اليوم الذي أمر فيه لمروان بمائة ألف، وكان قد زوجه ابنته أم ابان. فجاءه زيد بن أرقم - صاحب بيت المال - بالمفاتيح ووضعها بين يدي عثمان وبكى، فقال له: أتبكي إن وصلت رحمي، فقال، لا ولكني أبكي لأني ظننت أنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت تنفقه في حياة رسول الله، والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً عليه[9] فقال له: الق المفاتيح يا ابن أرقم فإنّا سنجد غيرك.... وأتاه أبو موسى بأموال كثيرة من العراق فوزعها كلها على بني أمية وأنكح الحرث بن الحكم ابنته عائشة وأعطاه مائة ألف من بيت المال بعد أن صرف عنه زيد بن أرقم.... وهكذا أصبحت مقدرات الأمة بيد شيوخ الأمويين وغلمانهم يتلاعبون بها بلا حسيب ولا رقيب... فمروان بن الحكم في المدينة وأبوه وأخوته بيدهم إدارة الأمور ومنهم تصدر المراسيم للداخل والخارج ومعاوية على بلاد الشام، وابن أبي سرح الذي أنزل الله فيه كما أسلفنا ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ على مصر طيلة تسع سنوات والوليد بن عقبة على الكوفة. وقد تعاقب

8- انظر المجلد الأول من أنساب الأشراف ص 353 وعلي ابن أبي طالب لعبد الكريم الخطيب....

9- لله در هذا المسلم العظيم الذي رفض أن يكون شاهد زور على خيانة المسلمين في أموالهم وأطلقها صرخة عالية جريئة في وجه الخليفة بأنّ من تعطيه مئات الألوف كثير عليه أن يأخذ مئات الدراهم فكيف بمئات الألوف... ولا يخلوا الدهر من هذا المؤمن وأمثاله في كل زمان ينطقون كلمة الحق ولو كانت تعود عليهم بالطرد من وظائفهم وبالمضائقة عليهم.....

عليها منذ تأسيسها وتمصيرها جماعة من أجلاء الصحابة كعمار بن ياسر وابن مسعود وسلمان القارسي وغيرهم إلى أن جاء دور عثمان فولاها للوليد بن عقبة وكان يعرف هو وإخوته بصبية النار وعقبة بن أبي معيط كان جده ابن أبي عمر عبداً لأمية بن عبد شمس ثم تبناه وتزوج من أروى بنت كريز فأولدها الوليد وخالد وعمارة وأم كلثوم وبعدها تزوجها عفان فأولدها عثمان وكان عقبة جاراً لرسول الله في مكة ويكثر مجالسته ومعشره وأسلم في السنين الأولى لبعثة النبي، وجاء في سبب إسلامه أنّه صنع طعاماً ودعا إليه رسول الله(ص) فأبى أن يأكل منه إلا إذا نطق عقبة بالشهادتين فنطق بهما. فأكل رسول الله (ص) ولما بلغ قريشاً أنَّ عقبة قد أسلم قالت: لقد صبا عقبة، وكان له صاحب غائب عن مكة فلما عاد إليها وأخبر بإسلامه أعرض عنه وقاطعه فأتاه عقبة بن أبي معيط وسلم عليه فلم يرد عليه فالحّ عليه بن أبي معيط، فقال له لا أرد عليك تحيتك وقد صبوت فقال: افعلتها قريش فما يبرئ صدورهم إذن، قال: تأتيه وتبزق في وجهه وتشتمه بأقبح ماتعلم من الشتم، ففعل عقبة مع النبي (ص) ذلك فلم يزد رسول الله على أن مسح وجهه، ثم التفت إليه وقال: إن وجدتك خارجاً من مكة سأضرب عنقك، ومضى عقبة في جحوده وموقفه المتصلب من الإسلام وإيذائه للنبي وبلغ من أمره أنّه كان يأتي بالفرن والنفايات فيطرحها على باب رسول الله وفيه نزلت الآية:﴿يوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، ياليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً لقد اضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾ وروى البلاذري في الانساب: انَّ النبي (ص) لما هاجر إلى المدينة قال عقبة يخاطب النبي:

ياصاحب الناقة القصواء هاجرنا   عما قليل تراني راكب الفرس

اعلى رمحي فيكم بعد تهلته   والسيف يأخذ منكم كل ملتمس

وقد خرج مع المشركين إلى بدر ووقع اسيراً بين يدي المسلمين فلما أمر بقتله قال من للصبية يارسول الله؟ قال: النار فلذلك سمي صبية بني أبي معيط صبية النار[10].

وجاء في انساب الاشراف عن عامر الشعبي أنَّ رسول الله قال لعقبة بعد أن وقع اسيراً في أيدي المسلمين: والله لأقتلنّك، فقيل له أتقتله من بين الأسرى من قريش فقال نعم: لقد بلغ به العداء لله أنّه وطئ على عنقي وأنا ساجد فما رفع رجله حتى ظننت أنَّ عينيَّ سقطتا، وجاء يوماً بصلاة وأنا ساجد فألقاه على رأسي، وابنه الوليد شقيق عثمان لأمه قد نشأ في أحضانه ومن بعده في أحضان الأمويين وتأثر بتلك الروح التي لم تكن تعرف الروح العربية ألأم ولا أخبث منها وهو من الطلقاء الذين أسلموا مع من أسلم من هذا البيت يوم الفتح مكرهاً كأبي سفيان وغيره، وبالرغم من أنَّ النبي (ص) كان يتألفهم ويحسن إليهم في بعض الأعمال على أمل أن يخففوا مما يضمرونه للإسلام من حقد وكراهية، فقد كانوا يتحينون الفرص والمناسبات لإظهار ماتنطوي عليه نفوسهم من كراهية للإسلام.....

فقد روى ابن الأثير عن عبد الله بن الزبير أنه قال: كنت باليرموك وأنا شاب لا أقاتل فلما اقتتل الناس نظرت إلى ناس على تل لا يتقاتلون فركبت وذهبت إليهم وإذا أبو سفيان ابن حرب ومشيخة من قريش من مهاجرة الفتح فرأوني حدثاً فلم يتقوني فجعلوا والله إذا مال المسلمون وركبتهم الروم يقولون إيه بني الأصفر فإذا مالت الروم وركبهم المسلمون قالوا ويح بني الأصفر فلما

10- انظروا أيها المسلمون وتبصروا هؤلاء هم بطانة عثمان وجلاوزته وهم ممن عادى الله ورسوله منهم الذي أهدر دمه الرسول ومنهم من قتل اباءهم وقال إن جميع أولاده هم من صبية النار وكلهم من الذين كانت عداوتهم للإسلام ولنبي الإسلام ظاهرة ثم من بعد ذلك يأتي خلفاء الإسلام ويولونهم على رقاب المسلمين مخالفين كلام الرسول أليس هذا معناه أنهم تعمدوا الإيذاء للمسلمين وتفريغ الإسلام من محتواه وجعله مشوهاً حتى وصل إلينا بهذه الصورة.

هزم الله الروم أخبرت أبي فضحك وقال: قاتلهم الله أبوا الاّ ضغناً لنحن والله خير لهم من الروم[11] ولقد تولى الوليد بن عقبة جباية صدقات بني المصطلق للنبي (ص) فعاد إلي المدينة وأخبر النبي بارتدادهم زوراً وكذباً فارسل النبي(ص) سرية من المسلمين لاستطلاع الحال ومساعدته على جباية الصدقات فلما وصلوا إليهم وجدوهم على الإسلام كما تركهم النبي لم يغيروا شيءاً وبهذه المناسبة نزلت الآية كما يدعي المحدثون:

﴿ ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾

وكما ذكرنا فلقد أحاط الوليد وزمرته من الأمويين بعثمان واستغلوا خلافته لصالحهم، وكان الأمير على الكوفة خلال السنتين الأوائل من خلافته سعد بن أبي وقاص، فطمع فيها الوليد بن عقبة الذي سماه الله بالفاسق كما في الآية الكريمة وظل يتلطف بأخيه عثمان حتى عزل عنها ابن أبي وقاص وولاه عليها....

وقال صاحب الأغاني: أنه لم يكن يجلس مع عثمان على سريره إلا العباس ابن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب والحكم بن العاص طريد رسول الله والوليد بن عقبة الفاسق، فأقبل الوليد يوماً فجلس، ثم أقبل الحكم فلما رآه عثمان تنحى له واجلسه في مجلسه، فلما قام الحكم قال الوليد لأخيه عثمان: ياأمير المؤمنين لقد تلجلج في صدري بيتان قلتهما حين رأيتك آثرت عمك

11- ما أشبه موقفه هذا بموقفه في معركة حنين يوم كانت الجولة الأولى لصالح هوازن وأحلافها وقد تفرق المسلمون عن النبي (ص) ولم يبق معه سوى علي ونفر من بني هاشم فانفرج شدقه عن بسمة الشامت وأخرج صنمه من جيبه وقال: واللات، لا تنتهي بهم الهزيمة دون البحر كما روى ذلك أكثر المؤرخين.

12- يا لمهزلة القدر ويا لخيبة المسلمين المؤمنين إذا كان طريد رسول الله - الذي منعه الرسول حتى من مجاورته ومنعه أبو بكر وعمر من بعده - إذا كان هذا الكافر أصبح عند عثمان شيخ قريش هل هذا الكلام ينبؤ إلّا عن دعوى الجاهلية وإلّا فكيف يجوز لمن يسميه بشيخ قريش ولقد أعز الله الإنسان بالإسلام وأذل آخرين كالحكم بالنفاق.

على ابن أمك، فقال له عثمان أنّه شيخ قريش[12] فما هما البيتان اللذان قلتهما؟ قال لقد قلت:

رأيت لعم المرء زلفى قرابة   دوين أخيه حادثاً لم يكن قدما

فاملت عمراً أن يشب وخالداً   لكي يدعواني يوم مرحمة عما

وعمر وخالد ولدان لعثمان فما مضت أيام حتى أرسله والياً على الكوفة وعزل عنها سعداً.... ويدعي الرواة أنّ الوليد حين بلغ الكوفة والياً عليها لأخيه عثمان ودخل على سعد بن أبي وقاص قال له: والله لا أدري أكسبت بعدنا أم حمقنا بعدك، قال له ذلك لأنّ الوليد كان معروفاً لدى عامة المسلمين بالاستخفاف والاستهتار بالدين وكانوا يسمونه الفاسق، فقال له الوليد: لا تجزعنّ يا أبا سحاق إنّه الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون، ورأى المسلمون استبدال سعد بن أبي وقاص وهو من الصحابة البارزين بالوليد بن عقبة الفاسق الفاجر، الذي يبقى تائهاً من السكر في أكثر أوقاته، حدثاً من الأحداث الخطيرة التي لا يجوز السكوت عليها لا سيما وقد ظهر امره في الكوفة واشتهر في فسقه وفجوره بين اهلها

وروى اليعقوبي في تاريخه أنّ الوليد صلى بالناس الصبح أربع ركعات ثم تهوع في المحراب، والتفت إلى من كان خلفه من المصلين وقال: أزيدكم أن شئتم، وجلس يوماً في المسجد ومعه ساحر يستعمل الشعوذة ويفعل الأعاجيب فاجتمع الناس عليه حتى كاد أن يفسد على الناس عقائدهم فقام إليه رجل من الأزد يقال له جندب بن كعب وأخذ سيفاً وتستر بالناس حتى دنا منه ضرب عنقه وقال له: احم نفسك إن كان ما تفعله حقاً، فأغضب ذلك الوليد وأراد أن يقتل الأزدي بالساحر لولا أنّ قبيلته حالت بينه وبين ذلك فوضعه في حبسه، ولما رآه آمر السجن منصرفاً إلى العبادة ليله ونهاره أطلقه من سجنه فذهب إلى المدينة وأخبر أهلها باستهتار الوالي وبما جرى له، فأخذ الوليد آمر السجن وضربه مائتي سوط لأنه أطلق العبد الصالح من سجنه فضجّ أهل الكوفة من كثرة منكراته وسوء تصرفاته، فكتبوا إلى عثمان بن عفان في أمره فأبى أن يعزله.... وأخيراً لما توالت عليه الوفود وشاع أمره في بقية المقاطعات

الإسلامية عزله عنها وولاها أموياً آخر هو سعيد بن العاص... وولى الوليد صدقات كلب وبلقين كما نص على ذلك اليعقوبي في تاريخه[13]

وكان معاوية والياً على الشام تولاّها لابن الخطاب بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان[14] ولعله كان أسوأ منهم جميعاً من حيث نواياه، السيئة التي كان يضمرها للإسلام في حين أنه لم يكن في أكثر حالاته عنيفاً في سياسته مع الناس، فقد دله ذكاؤه أن يصطنع الحلم والرفق والجود وسعة الصدر أحياناً لأنّ هذا الأسلوب كان يقربه من الناس ويهيئ له ما يريد من ملك وسلطان وإذا عوتب على تبذير الأموال وشراء الضمائر والأنصار بها يقول: إنّ الأرض لله ونحن خلفاء الله في أرضه فما أخذناه من الأموال فهو لنا وما تركناه فهو جائز لنا.....

وقد ورث معاوية - من أبيه أبي سفيان وأمه هند بنت عتبة التي لم يعرف تاريخ المرأة نظيراً في شراستها وأنانيتها وقسوتها - أكثر مزاياهما وخصائصهما بالإضافة إلى ما في نفسه من مزايا قومه وآبائه الأولين وأظهرها حب الرياسة عن أي طريق كانت، وكما ذكرنا لقد وجد في خلافة عثمان مجالاً للعمل لنفسه ولأهل بيته، واستطاع أن يحقق في ظل خلافته الكثير لصالح تلك الأسرة التي استقبلت فجراً جديداً من أحلامها في تلك الفترة من تاريخ الإسلام، هذا والمسلمون والصفوة المختارة من الصحابة يراقبون ما يحدث من ابن عفان وولاته بمرارة وألم، ويتعرضون للضرب والشتم والطرد منه ومن طغمته الفاسدة كلما استنكروا أمراً أو حاولوا الحدَّ من تصرفاتهم فلقد روى اليعقوبي وغيره من المؤرخين: أنَّ عثمان بن عفان لما كلّف زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بجمع القرآن وكتابته بلغة قريش وأكملوا عملهم أرسله إلى جميع المناطق التي كانت تخضع لحكم

13- انظر ص 142 من المجلد الثاني طبع النجف

14- هذه الولاية كانت مقابل الصفقة التي عقدوها مع أبي سفيان حين قاموا بانقلابهم في السقيفة وحاول هو أن يثير الفتنة فأعطوه الصدقات التي أتى بها ووعدوه بتولية أبنائه وهكذا كان فانظر إلى هذا الدين الذي أصبح نوعاً من التجارة والمبايعة والصفقة.

الإسلام وأمر ولاته أن يجمعوا المصاحف التي كانت في أيدي الناس ويحرقوها فباشر ولاته ذلك فور وصول الصورة التي جمعها الأربعة بلغة قريش على حد زعم الرواة....

فامتنع عبد الله بن مسعود من تسليم النسخة التي كانت بيده فكتب عبد الله بن عامر إلى عثمان يخبره بذلك، فرد عليه بكتاب يأمره فيه بأن يرسل ابن مسعود إلى المدينة وعدَّ ذلك جرأة عليه.... وكان مروان بن الحكم ومن معه من أسرته يدفعونه إلى استعمال الشدة والقسوة وخنق جميع التحركات والأصوات التي كانت ترتفع من هنا وهناك منكرة أعمالهم وتصرفاتهم - ولما وصله كتاب الخليفة أمره ابن عامر بالذهاب إلى المدينة فشد الرحال إليها بعد أن وصلها دخل على عثمان وهو يخطب الناس في مسجد رسول الله (ص) فالتفت إلى الناس وقال: لقد قدمت عليكم دويبة سوء وتكلم مع ابن مسعود وهو على المنبر بكلام أغلظ له فيه، ثم أشار إلى غلمانه أن يجلدوه ويجروه برجله إلى خارج المسجد ففعلوا ذلك وكسروا ضلعاً من أضلاعه واتبع هذه العقوبة بقطع العطاء عنه، فأنكر المسلمون منه هذا التصرف الجائر مع صحابي من أجلاء الصحابة، وحتى عائشة أغضبها ذلك وأطلقت لسانها في عثمان وزمرته ومضى ابن مسعود إلى بيته يكابد الآلام والمتاعب التي ألمت بجسمه النحيل الذي أنهكته الشيخوخة وحطمته سياط العبيد ولكماتهم والكسور التي أصابت أضلاعه، وظل يعاني من ذلك حتى اعتل وأنهكه المرض وانقطع الأمل من ذويه بشفائه....

فخفَّ عثمان لعيادته، وجعل يعاتبه ويقول: لقد بلغني عنك كلام كثير، فرد عليه ابن مسعود بصوته الضعيف: لقد أمرت غلمانك وعبيدك ففعلوا بي ما فعلوا وكسروا أضلاعي حتى لم أعد أفرّق بين صلاة الظهر وصلاة العصر ولا أعقل مواعيدها وانتهى حالي إلى ما ترى.... فقال له: - وكان يريد أن يواسيه ويكفر عن سوء عمله - ما تشتكي يا أبا عبد الرحمن؛ فرد عليه بصوت هادئ وحرف وجهه عنه: لا أشتكي غير ذنوبي ولا أشتهي غير رحمة ربي، فقال له عثمان: ألا أدعو لك طبيباً، فقال: الطبيب أمرضني ومضى

يحاول معه أن يتدارك ما سبق منه فقال له: إني أقيدك من نفسي فافعل بي مثل ما فعلته بك فقال: اترك ذلك لمن هو أشد نقمة وأعظم نكالاً وما كنت بالذي أفتح باب القصاص على الخلفاء ثم قال له عثمان: ألا آمر لك بعطائك؟ فرد عليه: لقد منعتنيه يوم كنت محتاجاً إليه، وتعطينيه اليوم وأنا مستغن عنه لا حاجة لي فيه فقال له: يكون لولدك من بعدك، فأجابه بلغة الواثق المطمئن بما وعد الله عباده الصابرين المظلومين، إنَّ الذي خلق أولادي سيرزقهم ويغنيهم عنك وعن غيرك، وعاد عثمان يسأله أن يكون في حل مما أصاب منه فأبى عليه ذلك وسأل الله أن يأخذ له بحقه منه فانصرف عنه خائباً... وظل ابن مسعود يعاني مما أصابه حتى لحق بربه فصلى عليه عمار بن ياسر ودفنه وعثمان غائب عن المدينة كما جاء في بعض المرويات....

وفي رواية أخرى: أنَّه أوصى أن لا يحضر جنازته عثمان بن عفان، وتوفي بعده المقداد بن الأسود الكندي فصلى عليه عمار بن ياسر أيضاً ولما بلغ عثمان خبر وفاتهما وعلم أنَّ عمّاراً صلى عليهما اشتد غضبه عليه فقال ويلي على ابن السوداء أما لقد كنت به عليماً، ولما استدعاه وسأله عمّا منعه أن يخبره بموته أجابه: لقد عهد إليّ أن لا أخبرك بموته وأن لا تصلي عليه كما جاء في أنساب الأشراف والمجلد الأول من شرح النهج.....

ويرى بعض المؤرخين أنّ الذي أغضب عثمان بن عفان على ابن مسعود أنَّ ابن مسعود كان على بيت مال الكوفة فأخذ الوليد من بيت المال مبلغاً وأبى أن يرده فلمّا ألحّ عليه ابن مسعود في إرجاعه كتب الوليد إلى عثمان بذلك فكتب إليه: إنّما أنت خازن لنا فلا تتعرض للوليد فيما أخذ من بيت المال.... فطرح مفتاح بيت المال وقال: إني كنت أظن أنّي خازن للمسلمين، فأمّا إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك، فكتب إليه الوليد إنّه يعيبك ويطعن فيك، فكتب إليه يأمره باشخاصه إلى المدينة فخرج من الكوفة مشيعاً من أهلها. ولما دخل على عثمان فعل به ما ذكرنا فأنكر علي (ع) وجماعة من الصحابة الأخيار وكانت نهايته بسبب ذلك.... وراح عثمان بعد وفاته يترحم عليه ويقول لمن كان حاضراً: لقد رفعتم والله أيديكم عن خير من بقي منكم

وغادر مكانه فقال الزبير:

لألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

وهكذا كان عثمان يفعل مع كل من يشكو إليه عاملاً من عماله أو أحد أقربائه، وحتى من كان يخصه بالنصيحة ويرشده إلى محاسن الأمور حسبما يوصي إليه مروان بن الحكم لأنه يعلم أنّ استجابة عثمان لنصيحة الناصحين لا بدّ وأن تودي إلى إقصائه وإقصاء من لفّ لفّه من بني أمية، ولو أنه استطاع أن يقطع ألسنة الناس ليأمن سماع ما كانت تفيض به النفوس من الشكوى، والقلوب من المرارة لم يقصر ولكنه وبدلاً من أن يقطع الألسن استطاع أن يتصرف بعثمان كما يريد ويوجهه حيث يرضى ويغضب - مهما كان الثمن الذي يدفعه عثمان غالياً....

لقد وجد المسلمون في المدينة أنّ ولاة عثمان وبني أمية لا يرعون حرمة لأحد والأمور تسير من سيئ إلى أسوأ.. بعد أن وجدوا ذلك اجتمع فريق منهم استعرضوا الوضع العام على ضوء ما تقوم به بطانة عثمان من استهتار بالقيم ومخالفات لكتاب الله وسنّة رسوله وبعد التداول فيما يجب اتخاذه اتفقوا على أن يرفعوا كتاباً لعثمان يتضمن صورة عن الأوضاع معززة بالأرقام التي لا تقبل المراجعة. وأرسلوا الكتاب إليه مع عمار بن ياسر، فلما أتاه بالكتاب وقرأ شطراً منه قال له: أين أصحابك الذين وقّعوا الكتاب؟ فقال: لقد تفرقوا خوفاً منك، فقال عليّ تقدم من بينهم فقال: لأني أنصحهم لك، فرد عليه عثمان بقوله: كذبت يا ابن سمية[15] فأجابه عمار بن ياسر أنا ابن سمية وأبي ياسر، فغضب عثمان من جوابه، وكان مروان بن الحكم حاضراً فقال له: إنّ هذا

15- انظروا أيها المسلمون إلى كلام الخليفة لقطب من أقطاب الصحابة الذي أنزل فيه (إلّا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) وقال فيه الرسول ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعوه إلى النار.... ثم بعد ذلك هل يعتبر الخليفة أنّ أمه سمية إهانة لهم وكل مسلم يفتخر بأن تكون أمه أول شهيدة في الإسلام والتي صبرت وزوجها وابنها على الأذى ما لم يصبره كبار الأحرار.

العبد الأسود قد جرّأ عليك الناس ولو قتلته هابك من وراءه فأقره على رأيه وتناول عصاً فضرب بها عمار بن ياسر وأمر غلمانه فطرحوه وقام عثمان فرفسه برجليه على مذاكيره فأصيب بفتق ورضوض في بدنه فغشي عليه ثم أمر غلمانه فأخرجوه من الدار وألقوه على جانب الطريق وهو غائب عن الدنيا، فحمله جماعة من المسلمين وأدخلوه إلى بيت أم سلمة زوجة النبي (ص) وفاتته صلاة ذلك اليوم لأنّه بقي مغشياً عليه حتى انتهى النهار فأنكرت أم سلمة على عثمان هذا التصرف، وأخرجت عائشة شعرة من شعر رسول الله(ص) ونعلاً من نعاله وثوباً من ثيابه وقالت: إن شعر رسول الله لم يبلَ وإنَّ ثيابه لم تُبلَ وقد أبلى عثمان سنته.....

وجاء في رواية ثانية أنَّ السبب الذي حدا بعثمان أن يصنع بعمار ذلك، هو أنّه كان في بيت مال المدينة سفط فيه حلي وجواهر فأخذ منه عثمان السفط وأعطاه لنسائه فأنكر المسلمون عليه هذا التصرف الذي لم يعهدوه من أحد قبله فخطب الناس وقال: أنّا سنأخذ حاجتنا من هذا المال وإن رغمت به أنوف أقوام، وكان أمير المؤمنين (ع) ممن أنكر عليه ذلك فقال: إذن تمنع منه ويحال بينك وبينه وقال عمار بن ياسر: إنَّ أنفي أول راغم من ذلك فقال عثمان: عليَّ يا ابن ياسر تجترئ وأمر غلمانه فأخذوه ودخل عليه ابن عفان وهو مطروح بين أيديهم فضربه حتى غشي عليه وأصابه فتق في بطنه.... ولما أفاق بعد أن مضى شطر من الليل حمد الله وتذكر أبا جهل وأبا سفيان وأبا لهب وغيرهم من جبابرة قريش الذين آذوه وعذبوه لأنّه آمن برسالة محمد (ص) وها هو اليوم يتعرض لسياط عثمان وجلاوزته للسبب نفسه الذي كانت تنهال عليه سياط أولئك من أجله لقد تذكر رضي الله عنه كل ما كان يلاقيه من جبابرة قريش في تلك اللحظات وقال: ليس هذا بأول يوم أوذينا في الله، وقد أحدث عمل عثمان ضجة في أوساط المسلمين على اختلاف طبقاتهم وقد سمعوا رسول الله يقول: عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، ومن أبغض عمار ابن ياسر فقد أبغض الله أنَّ عمار قد ملئ إيماناً إلى أخمص قدميه طوبى لعمار تقتله الفئة الباغية وهو مع الحق يدور معه كيفما دار.... إلى كثير مما سمعوه منه في عمار بن ياسر وآل يأسر واعتبروا ذلك تحدياً لله ولرسوله وللعدالة التي

ينادي بها صحابة الرسول الأوفياء ولرسالته ولتعاليمها، وبخاصة أولئك الذين رافقوها منذ البداية وتحملوا أشد الأذى في سبيلها....

وتحركت العصبية في نفس هشام بن الوليد المغيرة المخزومي وكان عمار بن ياسر حليفاً لبني مخزوم، فاندفع نحو عثمان ثائراً لحليفه القديم وهو يقول: أمّا علياً فقد اتقيته واجترأت علينا فضربت أخانا حتى أشفيت به على التلف أما والله لئن مات لأقتلنّ به رجلاً من بني أمية عظيم الشأن فقال له عثمان وإنّك ها هنا يا ابن القيسرية، قال: فإنهما قسريتان، وكانت أم هشام وجدته قسريتين من بجيلة[16].... وليس موقفه من عمار بالمرة الأولى بل اجترأ عليه مرة قبلها في حياة النبي (ص) فلقد حدث الرواة أنّ النبي (ص) لما شرع في بناء مسجده كان عمار وجميع المسلمين يعملون وعلي يرتجز ويقول:

لا يستوي من يعمر المساجدا   يدأب فيها قائماً وقاعداً

16- انظر شرح النهج ج1 ص 239

ومن يرى عن الغبار حائداً

فأخذها منه عمار بن ياسر وجعل يرددها فظن ابن عفان أنَّه يعرض به - كما صرح بذلك المعلق على سيرة ابن هشام - فقال له:
لقد سمعت ما تقول يا ابن سمية والله إني سأعرض هذا العصا لأنفك، وكان في يده عصا يعبث فيها، فلما سمع رسول الله ذلك من عثمان قال: ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار إنَّ عمارً جلدة ما بين عيني وأنفي....

لقد أضاف المسلمون هذا الحدث العظيم الذي ارتكبه الخليفة مع عمار بن ياسر إلى أحداثه الكبار التي لم تكن خلافته لتخلوا منها يوماً من الأيام بالرغم من نصح الناصحين الذين كانوا يحاسبونه على كل صغيرة وكبيرة ويناشدونه الرجوع عن هذه السياسة التي ستفجر الجماهير عليه إن هو استمر عليها، ولم يكن عمار بن ياسر وغيره ممن وهبوا أنفسهم لله ونصرة الحق والعدالة لترهبهم سياط عثمان وغلمانه الجفاة الطغاة وما هي بأشد وأوجع من سياط أبي سفيان وأبي جهل التي كانت تنهال عليهم ليكفروا بمحمد ورسالته ولكنهم صبروا وانتصروا على أبي جهل وأبي سفيان وطواغيت قريش وانتصر محمد وانتصرت رسالته وسينتصرون اليوم كما انتصروا بالأمس.



موقف أبي ذر الغفاري من عثمان وحاشيته

لا أظن أنّ أحداً حاول تصوير موقف أبي ذر من حكام زمانه وموقفهم منه يستطيع أن يأتي بصورة أكثر عطاء وأوجز من الصور التي صور فيها الموقفين أمير المؤمنين (ع) حينما خرج لوداعه في كلماته القصار التالية: يا أبا ذر إنّك غضبت لله فارج من غضبت له أنّ القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فاترك في أيديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه فما أحوجهم إلى ما منعتهم وما أغناك عمّا منعوك.... لا يؤنسنّك إلّا الحق ولا يوحشنّك إلّا الباطل فلو قبلت دنياهم لأحبوك ولو قرضت منها لأمنوك لقد دخل أبو ذر في الإسلام في مطلع الدعوة ورافق جميع تطوراتها وتحمل من أعبائها بمقدار نصيبه منها فكان في الطليعة بين أنصارها ومن المقربين إلى صاحبها لإخلاصه وصدقه وتفانيه في سبيل الله وقال فيه رسول الله (ص): ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر.... وقال له في غزوة تبوك وقد تخلف به بعيره، ولحق بالنبي بعد يأس من بعيره وقد رآه يجد السير حاملاً متاعه على كتفه: يا أبا ذر تعيش وحدك وتحشر وحدك ويسعد بك قوم من أهل العراق يتولون غسلك ودفنك.

وظل بعد وفاة النبي (ص) وفياً للإسلام وحماته حريصاً على تنفيذ تعاليمه لا يأنس إلا بالحق وأهله ولا يستوحشه إلّا الباطل ودعاته يقتفي أثر علي (ع) في جميع أموره ويناصر المظلومين والمضطهدين لم ترهبه سطوة الجبابرة وسياطهم ولم يلن وينحني للعروض والمغريات على ضخامتها...... لقد سمع من خليفة المسلمين وهو بحكم مركزه الأمين على أموال العباد وخيرات البلاد ليسلمها إلى أهلها سمعه يقول لخازن بيت المال: إنما المال مالنا والفيء فيؤنا

فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه... ورأى الوليد بن عقبة ومروان بن الحكم وابن أبي سرح وأمثالهم من الطغاة يعبثون ويفسدون ويستهترون بالقيم والدين وبكل ما جاء به الإسلام لا يرعون حرمة لأحد ولا شرفاً لعرض، ويتمتعون بالحصانة التي تحميهم من غضبة الشعوب لأنهم من الأسرة الحاكمة، ورأى مع ذلك كله التفاوت الطبقي والروح القبلية والعنصرية الجاهلية التي حاربها الإسلام، ولم يعد لأحد من المسلمين على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم مكان بين الطبقة الحاكمة إلّا إذا كان بطانة أو تابعاً يسير في ركابهم، ولم يعد فرق في عهد عثمان بين الدولة التي أسسها محمد بن عبد الله وشقت طريقها إلى القلوب والنفوس بأنظمتها التي تحفظ لكل إنسان حقه في الحياة كاملاً غير منقوص، وتحارب الاستغلال وجميع الامتيازات التي كانت تحمي الجبابرة والطغاة ولا تفضل أحداً على أحد إلّا بالتقوى والعمل الذي ينفع وإن اسودّ لون العامل وابيضّ لون الخامل المتكاسل، لم يعد فرق بين الدولة التي كان على رأسها عثمان ودولة أبي جهل وأبي سفيان والفرس والرومان....

كل ذلك قد كان في عهد عثمان وقد رآه أبو ذر كما رآه غيره ووقف إلى جانب غيره من الحريصين على مصلحة الإسلام يعملون بكل ما يملكون لتصحيح الانحرافات فلم يجدوا من يصغي إليهم ولا من يسمع لهم فارتفع صوت أبي ذر مدوياً عالياً في أنحاء الدولة، والله إني لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا وصادقاً مكذباً وأثرة بغير تقى وصالحاً مستأثراً عليه.... فكان جزاؤه الضرب والشتم والتشريد....

ويروي المؤرخون أنّ من جملة الأسباب التي أثارت غضب عثمان على أبي ذر بالإضافة إلى تصريحاته وثورته على الباطل وأهله أنّ عثمان بن عفان لما أعطى مروان بن الحكم وغيره من بني العاص وبني أمية ما في بيت المال من الأموال وخصّ زيد بن ثابت بشيء منها ثار أبو ذر وجعل يقول كلما رأى جماعة من الناس: بشّر الكافرين بعذاب أليم.... ويتلوا قوله تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ فأرسل إليه ابن عفان مولى من مواليه وطلب منه أن يسكت ولا يعود لمثل

ذلك، فقال له أبو ذر رحمه الله أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله، وعيب من ترك أمر الله، فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحبّ أليّ وخير لي من أن أسخط الله برضا عثمان.... وأصرّ على موقفه منه ومن أسرته فأغضب بذلك عثمان وراح يفكر ماذا يصنع به وقدّر أنّه إذا قتله أو حبسه ستتسع النقمة عليه ويتطور الأمر بينه وبين الصحابة إلى ما لم يعد بالإمكان تلافيه، وفي نفس الوقت لم يعد بإمكانه أن يتركه بالمدينة لأنّ بقاءه بها قد يفجر الوضع لغير صالحه، فأرسل إليه يقول: لقد كثر أذاك لي ولأصحابي[7] اخرج عني إلى الشام فأخرجه إليها ليكون تحت رقابة معاوية وأوصاه بالشدة عليه ومراقبة جميع تصرفاته وفي الشام أنكر على معاوية بذخه وإسرافه، فبعث إليه معاوية ثلاثمائة دينار فقال لرسوله: إذا كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا أقبلها وإن كانت صلة لا حاجة لي بها وردها إليه....

ويروي ابن الأثير أنّه أرسل إليه ألف دينار فأنفقها أبو ذر على الفقراء في صبيحة الليلة التي قبضها فيه، فلمّا صلّى معاوية صلاة الصبح دعا رسوله الذي أرسل معه الدنانير وقال له: اذهب إلى أبي ذر وقل له: انقذ جسدي من عذاب معاوية فإنّه أرسلني بالمبلغ إلى غيرك وإني أخطأت بك، ولما ذهب إليه قال له أبو ذر: اذهب إليه وقل له ما بقي عندنا من دنانيرك شيء ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها لك. فرجع إليه وأخبره بمقالة أبي ذر رحمه الله وظل أبو ذر على موقفه المتصلب من معاوية وبذخه وإسرافه فكتب إلى عثمان يخبره بمواقف أبي ذر ويحذره من الأخطار التي ستنجم عن بقائه في الشام.... ولما بنى معاوية قصره الخضراء جاءه أبو ذر وقال له يا معاوية إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهو الإسراف... ولم يزل على موقفه الذي كان عليه في المدينة فقال حبيب بن سلمة الفهري لمعاوية: إنّ أبا ذر سيفسد عليك الشام فتدارك الأمر إن كان لك فيه حاجة....

7- طبعاً فإنّ الحاكم الجائر عندما يستمرئ المال الحرام في حكمه ويتعود على تملق بطانته لا يتمكن من سماع كلمة حق من أي جهة كانت ولو عن طريق النصح والموعظة.

وجاء في شرح النهج عن الجاحظ عن رجل من بني غفار أنه قال: كنت عاملاً لمعاوية على قنسرين والعواصم فجئت يوماً فسمعت صارخاً على باب داره يقول: اللّهم العن الآمرين بالمعروف التاركين له، اللّهم العن الناهين عن المنكر الفاعلين له..... فاربدّ معاوية وتغيّر لونه وقال: يا جلام أتعرف هذا الصارخ قلت: اللّهم لا، قال من عذيري من جندب بن جنادة يأتينا كل يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت، ثم قال ادخلوه عليَّ فجيء به بين قوم يقودونه حتى وقف بين يديه، فقال له معاوية: يا عدو الله وعدو رسوله[2] تأتينا كل يوم فتصنع ما تصنع. أما أني لو كنت قاتل رجل من أصحاب محمد بغير إذن أمير المؤمنين لقتلتك ولكني أستأذنه فيك.... قال جلام الغفاري: وكنت أحب أن أرى أبا ذر لأنّه من قومي فالتفت إليه وإذا هو رجل أسمر ضرب من الرجال خفيف العارضين محني الظهر. فأقبل على معاوية وقال: ما أنا عدو لله ولرسوله، بل أنت وأبوك عدوّان لله ولرسوله أظهرتما الإسلام وأبطنتما الشرك ولقد لعنك رسول الله (ص) ودعا عليك مرات أن لا تشبع، وسمعته يقول: إذا ولي الأمة اللعين الواسع البلعوم الذي يأكل ولا يشبع فلتأخذ الأمة حذرها منه..... فقال معاوية: ما أنا ذاك الرجل فقال أبو ذر: بل أنت هو أخبرني بذلك رسول الله وسمعته يقول: وقد مررت به اللّهم العنه ولا تشبعه إلّا بالتراب، وسمعته يقول: إست معاوية في النار....

فضحك معاوية وأمر بحبسه وكتب إلى عثمان يخبره بحاله فكتب إليه عثمان احمل جندب بن جنادة إليَّ على أغلظ مركب وأوعره، فحمله معاوية

2- يا لمهزلة التاريخ اسمعوا أيها المسلمون كيف أنَّ الطليق بن الطليق وابن آكلة الأكباد بكل وقاحة يقول لصاحب رسول الله الذي قال له: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر هذا اللعين يقول له يا عدو الله وعدو رسوله فما لكم كيف تحكمون.

على أسوأ حال وأمر من معه أن يسيروا به الليل والنهار حتى قدم المدينة[3] وقد سقط لحم فخذيه من الجهد.... ولما دخل على عثمان قال له: لا أنعم الله بك عيناً يا جنيدب... فقال أبو ذر: أنا جندب وقد سماني رسول الله عبد الله فاخترت اسم رسول الله الذي سماني به على اسمي، فقال له عثمان: أنت الذي تزعم إنا نقول يد الله مغلولة وإنّ الله فقير ونحن أغنياء، فقال أبو ذر: لو كنتم لا تقولون ذلك لأنفقتم مال الله على عباده، وأنا أشهد أني سمعت رسول الله (ص) يقول إذا بلغ بنو العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً وعباده خولاً ودينه دخلاً، فقال عثمان لمن كان حاضراً: أسمعتم ذلك من رسول الله؟ فأنكروا سماعه، فاستدعى عثمان علياً وسأله عما قال أبو ذر، فقال أمير المؤمنين (ع) إني لم أسمع ذلك من رسول الله (ص) ولكن أبا ذر صادق فيما يقول لأني سمعت رسول الله يقول فيه:

(ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر)

فقال من حضر: أمّا هذا فقد سمعناه من رسول الله....

وقد روى الواقدي أنّ الحوار قد اشتد بين عثمان وأبي ذر الغفاري وحاول عثمان إسكاته بكل الوسائل، وأبو ذر يزداد تصلباً في موقفه من عثمان وحاشيته الذين عاثوا في الأرض فساداً. ورأى عثمان نفسه بين أمرين لا ثالث لهما إمّا قتله أو إخراجه ورأى أن القتل يجر عليه غضب الجماهير في الحجاز وخارجها وكلهم يقدرون لأبي ذر مكانته في الإسلام وصلابته في الحق،

3- انظروا أيها المسلمون إلى هذه المفارقات أعداء الله وأعداء الرسول الذين حاربوه في كل موقعة والذين حاولوا المستحيل من أجل طمس هذا الدين الجديد هؤلاء أعداء الله يستلمون الولايات والمناصب العالية في ظل دولة موسومة باسم الإسلام والمؤمنون المخلصون الذن جاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الإسلام وفي سبيل نشر الدعوة الإسلامية وفي سبيل ترسيخ الدولة الإسلامية هؤلاء يصبحون في ظل ما يسمى بالدولة الإسلامية من المغضوب عليهم يجرون بالسلاسل ويقادون إلى حيث يشاء الحاكمون كما أنهم يزجون في السجون من أجل كلمة الحق.

ويؤيدون موقفه من الحاكمين، وقد سرى إلى أسماعهم ثناء رسول الله عليه وتقريظه له في مختلف المناسبات، فلا بد إذن من نفيه إلى خارج المدينةوإلى أين يا ترى؟ إلى المدن والعواصم وحيث يجتمع الناس، إنَّ ذلك لا يحل المشكلة لأنّه سيمثّل الدور الذي مثّله في الشام، فلم يبق غير الربذة حتى لا يتصل بالناس ولا يتصل به أحد من الناس، فأمره بالرحيل إليها بإشراف مروان ابن الحكم وهدد وتوعد كل من يخرج لوداعه من صحابة رسول الله...

ولما أخرجه مروان بن الحكم إليها عز ذلك على الناس أن يروا طريد رسول الله يطرد من مدينته صحابياً ممن اجتباهم رسول الله وفضلهم على كثير ممن صحبوه وتابعوه، ولكنهم تحاموا عن وداعه خوفاً من عثمان وحاشيته ولم يخرج لوداعه غير علي وأخيه عقيل والحسن والحسين وعمار بن ياسر. وتقدم الحسن بن علي لوداع أبي ذر....فقال له مروان بن الحكم: ألا تعلم بأنّ الأمير قد نهى عن كلام هذا الرجل، فتقدم إليه أمير المؤمنين (ع) وضرب بسوطه رأس راحلته وقال له: تنح نحاك الله إلى النار.... فرجع شاكياً فتلظى عليه عثمان غضباً على حد تعبير المؤرخين. وقال له أمير المؤمنين: يا أبا ذر إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فما أغناك عما منعوك وما أحوجهم إلى ما منعتهم.... وقال له عمار بن ياسر: والله لو أردت دنياهم لأمنوك ولو رضيت أعمالهم لأحبوك، وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلّا الرضا بالدنيا والجزع من الموت وتكلم كل واحد منهم بكلام يتناسب مع المقام، وبكى أبو ذر عند وداعهم وقال: لقد ثقلت على عثمان بالحجاز وعلى معاوية بالشام وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين فأفسد الناس عليهم فصيّرني إلى بلد ليس لي فيه ناصر ولا دافع إلّا الله، والله لا أريد إلّا الله صاحباً وعاش أبو ذر رحمه الله في الربذة[4] ما بقي من حياته غريباً بعيداً عن الناس في أرض مقفرة من السكان وحتى من الطير والوحوش إلى أن وافته منيته فيها ويسر الله له وفداً من أهل العراق كانوا في طريقهم لحج بيت الله الحرام فلوحت لهم

4- الربذة تقع على ثلاثة أميال من المدينة قريبة من ذات عرق.

زوجته فمالوا إليها وأصيبوا بالذهول والدهشة حينما علموا أنَّ الميت هو ذلك الصحابي الجليل الذي كان رسول الله يجلّه ويفضله على الكثير من أصحابه فتولوا تغسيله ودفنه وحملوا زوجته وابنته إلى المدينة وصدق فيه قول رسول الله(ص):

(يا أبا ذر تعيش وحدك وتدفن وحدك وتحشر وحدك ويسعد فيك أناس من أهل العراق يتولون غسلك ومواراتك في قبرك[4] فسلام عليك يا أبا ذر يوم ولدت ويوم تموت ويوم تبعث حياً....)

4- انظر ج2 من شرح النهج ص 404

الثورة على عثمان

وعندما تسامح الناس بنهاية ذلك الشيخ الجليل على النحو الذي تمت عليه تجسدت لهم أخطار ذلك النظام الفاسد الذي أصبح الحكم بن أبي العاص وأولاده أسياد الناس يأمرون وينهون ويتنعمون ويعبثون بخيرات البلاد.... وأولئك الذين كانوا من أقرب الناس وأخلصهم لله ولرسوله يعذبون ويطردون من بلده وحرمه عندما تسامعوا بذلك ورأوا أنّ القوم جادون في الذي اختاروه وأمعنوا في ضلالهم وغيهم والتنكيل بكل من يأمرهم بمعروف وينهاهم عن منكر.... هبّوا من جميع الأمصار لإنقاذ الأمة من تلك الطغمة الحاكمة فأحاطوا بالمدينة من أطرافها، هذا وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وآخرون ومعهم السيدة عائشة كانوا من أكثر الناس تحريضاً على قتله.... فلقد اتفق الرواة على أنّ طلحة والزبير كانا من أشد الناس عليه.... وعثمان بن عفان يقول: ويلي على ابن الحضرمية - يعني بذلك طلحة - لقد أعطيته كذا وكذا ذهباً وهو اليوم يروم دمي اللّهم لا تمتعه بذلك ولما اشتد الحصار على عثمان كان طلحة مقنعاً بثوب قد استتر به عن أعين الناس ويرمي دار عثمان بالسهام كما روى المؤرخون: أنّه لمّا تعثّر على المحاصرين الدخول عليه من باب الدار أخذ بهم طلحة إلى دار لبعض الأنصار فأصعدهم سطحها وتسوروا منها على دار عثمان ونزلوا إليها وقتلوه.... وأضاف الرواة إلى ذلك أنّ الزبير كان يقول للثوار: اقتلوه فقد بدّل سنتكم فقيل له: إنّ ابنك يحامي عنه بالباب فقال: ما أكره أن يقتل عثمان ولو بدئ بابني، إنّ عثمان لجيفة على الصراط غداً... وكانت عائشة تقول: اقتلوا نعثلاً فقد كفر ونعثل اسم لرجل

من بقايا يهود المدينة كان قذراً مفسداً - قد استعارته لعثمان بن عفان. ولما اشتد الحصار وأيقنت أن أمره قد انتهى، وأهل الأمصار لا يرجعون إلاّ بقتله أو تنحيته عن الخلافة تجهزت للخروج من المدينة إلى مكة فاستجار بها عثمان وأرسل إليها مروان بن الحكم فقالت لهما: قد قرنت ركابي وأوجبت علي الحج والله لا أفعل فنهض مروان وصاحبه وهو يقول:

وحرق قيس علي البلاد فلما أن اضطرمت أحجما

ثم قالت عائشة: يا مروان إني في شك من صاحبك والله لوددت أنّه في غرارة من غرائري هذه وأني أطيق حمله حتى ألقيه في البحر.... والتقت بعبد الله بن العباس وهي في طريقها إلى مكة فقالت له: يا ابن عباس إياك أن ترد عن هذه الطاغية وأن تشكك الناس في أمره فقد بانت لهم بصائرهم وتحلبوا من البلدان لأمر قد حم وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت المال والخزائن مفاتيح فإن يلها يسير بسيرة ابن عمه أبي بكر.... وحين سألت عن مصير عثمان بعد مصرعه وأخبرها الناس بقتله لم تملك نفسها وأظهرت كل ما كان يراودها من أماني وأحلام وهي لا تشك في أنّ الأمر بعده سيكون إلى قريبها طلحة فقالت على الفور بعداً لنعثل وسحقاً إيه يا صاحب الإصبع، إيه يا أبا شبل، إيه يا ابن عم، ومضت تقول: وقد أخذتها الفرحة، لكأني أنظر إلى إصبعه وهو يبايع له حثو الإبل.... ودهش الناس لحالها في تلك اللحظات التي عرفت فيها مصرع عثمان، وكيف استبد بها الفرح لأنها كانت على يقين من أنّ الناس لا يعدلون بقريبها أحد، ونظرت بعد أن هدأ روعها إلى من حولها وإذا بها تجد الشفاه تنم عن بسمات ساخرة من موقفها، فأيقنت أنّ وراء ذلك شيئاً لا ينسجم مع رغبتها فقالت: ما فعل الناس من بعده؟ فقالوا: بايعوا لعلي بن أبي طالب. فناقضت نفسها على الفور وقالت: لقد قتل عثمان مظلوماً لأنهم استتابوه ثم قتلوه.

وبدون أن تشعر أن وراءها أناساً يحصون عليها جميع تصرفاتها وأقوالها قالت: ليت هذه أطبقت على هذه..... بهذا النوع من الصلابة يحدثنا التاريخ عن موقف طلحة والزبير وعائشة من عثمان وأنصاره في ساعات المحنة التي

ألمت به، وعادوا بعد قليل يطالبون بدمه من علي بن أبي طالب وأعلنوها حرباً ضارية عليه كان من نتائجها معركة البصرة التي انتهت بفشل عائشة وقتل طلحة والزبير وعشرات الألوف ممن غرّرت بهم عائشة وطلحة والزبير، في حين أن التاريخ يؤكد أنّ علياً (ع) مع أنّه لم يكن من المرضيين عند الخليفة وأتباعه، وأنّ مروان بن الحكم كان يعد الخطط للتخلص منه ويشحن ابن عفان عليه وعلى كل من كانوا يراقبون تصرفات الأمويين وأعوانهم، مع أنّ حالة عثمان وأعوانه كان كذلك فقد وقف موقفاً يتناسب مع ما فطر عليه من التسامح والمحبة والإصلاح حتى لا ينتهي الحال إلى إراقة الدماء والفوضى.... وقد بلغه أنّ طلحة منع عنه الماء ومنع من إدخاله عليه، فأنكر عليه ذلك وأرسل إليه وكان في أرض له على بعد ميل من المدينة، أرسل إليه أن دع الرجل يشرب من ماله ومن بئره ولا تمنعوا عنه الماء.... فأصر طلحة على موقفه فأوصل إليه الماء كما جاء في رواية أنساب الأشراف للبلاذري، وقد منع عنه الغزاة مراراً وأخذ لهم مثلما دعوا بإصلاح كل ما أفسده ولاته على الأمصار وأعوانه وعزلهم وتعيين غيرهم وكان موقفه هذا يحز في نفس طلحة والزبير وعائشة فيعملون لإفساد ما أصلحه أمير المؤمنين لكي تزداد الأمور تعقيداً وتأزماً في حين أن مروان بن الحكم كان يعارض في كل محاولة تجري بواسطة علي(ع) من هذا النوع[1]....

وحدّث الطبري: أنّ الثوار كتبوا إلى عثمان يدعونه إلى التوبة وأقسموا له أنهم لا يرجعون عنه أبداً وغير تاركيه حتى يعطيهم ما يلزمهم من حق الله.... وأحسّ عثمان أنّ القوم جادون في طلبهم وسوف لا يتراجعون عنه إلاّ بقتله إذا لم يلب طلباتهم، فأرسل إلى علي (ع) فلما جاءه قال له: يا أبا الحسن أنّه قد كان من الناس ما رأيت وكان مني ما قد علمت ولست آمنهم على قتلي فارددهم عني فإنّ لهم الله أن أعفيهم من كل ما يكرهون وأن أعطيهم من نفسي ومن غيري ما يريدون وإن كان في ذلك سفك دمي.... فقال له أمير

1- انظر ص 139 من المجلد الرابع تاريخ الطبري.

المؤمنين (ع) أنّ الناس على عدلك أحوج منهم إلى قتلك، وإني لأرى القوم لا يرضون إلاّ بالرضا وقد كنت أعطيتهم في المرة الأولى عهد الله لترجعنّ عن جميع ما نقموا فرددتهم عنك، ولم تف لهم بشيء من ذلك فلا تغرنني هذه المرة من شيء فإني معطيهم عليك الحق، قال نعم فاعطهم الآن فوالله لأفينّ لهم بكل ما تريد، فخرج علي (ع) إلى الناس وقال: أيها الناس إنكم إنما طلبتم الحق وقد أعطيتموه أنّ عثمان زعم أنّه منصفكم من نفسه ومن غيره وراجع عن كل ما تكرهون فاقبلوا منه ووكدوا عليه....

فقال الناس: قد قبلنا فاستوثق لنا منه فإنّا والله لا نرضى بقول دون فعل، فقال لهم: ذلك لكم، ثم دخل عليه وأخبره بما يقولونه فقال عثمان: اضرب بيني وبينهم موعداً يكون لي فيه مهلة فإني لا أقدر على رد ما يكرهون في يوم واحد.... فقال له علي (ع) أما من حضر من الناس في المدينة فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك، فقال نعم أجلي في المدينة ثلاثة أيام فوافق أمير المؤمنين على ذلك وخرج إلى الناس وأخبرهم بذلك وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثة أيام على أن يرد كل مظلمة ويعزل كل عامل كرهوه وأخذ عليه في الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه ناساً من المهاجرين والأنصار فكفّ المسلمون عنه ورجعوا على أن يفي لهم بما أعطاهم من نفسه...

وجعل يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح وكان قد اتخذ جنداً عظيماً من رقيق الخميس على حد تعبير الخطيب في كتابه علي بن أبي طالب...

فلما مضت الأيام الثلاثة والوضع على حاله لم يغير منه شيئاً مما كرهوه ولم يعزل عاملاً من عماله ثار به الناس وخرج عمرو بن حزم الأنصاري حتى أتى المصريين وهم بذي خشب فأخبرهم الخبر فساروا وسار معهم حتى قدموا المدينة فأرسلوا إلى عثمان من يقول له: ألم نفارقك على أنّك تائب من أحداثك وراجع عما كرهنا وأعطينا على ذلك عهد الله وميثاقه قال بلى أنا على ذلك، قالوا فما هذا الكتاب الذي وجدناه مع رسولك وكانوا قد قبضوا

على رسول عثمان إلى عامله في مصر ومعه كتاب يأمره فيه بضرب رقاب عدد من رؤساء المصريين كما قبضوا على رسوله في الجولة الأولى التي هادنهم فيها كتاباً يأمر عامله في مصر أن يضرب عنق محمد بن أبي بكر، وكان قد هادنهم أيضاً على أن يعطيهم ما يريدون بواسطة أمير المؤمنين أيضاً كما حدّث بذلك المؤرخون....

فقال ما فعلت ولا لي علم بما تقولون قالوا: بريدك على جملك وكتاب كاتبك عليه خاتمك، فقال لهم: أمّا الجمل فمسروق والخطوط تتشابه، وأمّا الخاتم فقد نقش عليه فقالوا: إنّا لا نعجل عليك وإن كنّا قد اتهمناك، اعزل عنا عمالك الفساق واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا واردد علينا مظالمنا، فقال: ما أراني إذن في شيء من ذلك إن كنت أستعمل عليكم من هويتم وأعزل من كرهتم فالأمر إذن يكون لكم.... فقالوا: والله لتفعلنّ ولتعزلنّ أو لتقتلنّ فانظر لنفسك أو دع فأبى عليهم وقال لهم لم أكن لأخلع سربالاً سربلنيه الله كما جاء في رواية الطبري[2].

وتعقدت الأمور بين الثائرين والخليفة وضاعت فرص التسوية بين الطرفين وبات الثوار وهم على يقين من أنّ الخليفة حتى لو أراد التسوية وإنهاء الأزمة فإنّ المتسلطين عليه من الأمويين لا يريدون تسوية الأمور، ولا يتمكن هو من إبرام أمر لم يكن مروان من شهوده وواضعي بنوده....

ومع أنّ أمير المؤمنين كان من أوثق الناس عندهم وعند عامة المسلمين، وأكثرهم حرصاً على حل الصراع القائم بين الطرفين بما يحفظ لكل منهما حقه ويعود على الأمة بالخير فلم يعد لحديثه مع الثائرين من أثر.... ورأى من واجبه أن يعتزل الطرفين بعد أن جرّب مرتين وفي كل منهما يأخذ على عثمان العهود والمواثيق على الالتزام ببنود الاتفاق الذي يحفظ للدولة هيبتها وللأمة حقها، ولم ينفّذ عثمان شيئاً مما يتم عليه الاتفاق، ولقد قال لعبد الله بن عباس

2- ص 112 من المجلد الخامس.

وغيره: والله لقد دافعت عن عثمان حتى خشيت أن أكون أثمت ولم يكتف عثمان بعدم التزامه بما عاهد الله عليه، بل كتب بعد كل من الاتفاقين كتاباً إلى عماله أن يقتلوا قادة الثوار بعد رجوعهم إليهم لأنهم يطالبون بحقهم في الحياة كما فرضه لهم الإسلام واشتد الحصار على عثمان في الأيام الأخيرة بعد أن اعتزل علي (ع) وفشلت جميع محاولات التهدئة والإصلاح بين الطرفين ويئست تلك الوفود من تلبية مطالبها العادلة وراحت تضيق على عثمان، وهو مرة يحاورهم ومرة يعدهم أن يعطيهم ما يريدون ليستفيد من الوقت لأنّه كان يأمل أن تأتيه النجدة من الشام بعد أن طلب من معاوية أن يمده بالرجال بالسرعة القصوى.... تثاقل معاوية وتباطأ على أمل أن ينتهي الأمر بقتله ليكون وليّ الثائر من بعده.... وبالتالي خرج من الشام في جيش مؤلف من اثني عشر ألف مقاتل وقبل أن يصل إلى المدينة تركهم في مكان بعيد عنها ينتظرون صدور أوامره إليهم وسار بنفسه إلى المدينة ولما دخل على عثمان، سأله عن النجدة فقال: لقد تركتها ورائي وجئت إليك لأعرف رأيك وأعود إليهم فأجيئك بهم، فقال له ابن عفان: لا والله ولكنك أردت أن أقتل فتقول أنت، أنا ولي الثأر[3] ارجع فجئني بالناس حالاً.... فرجع ولم يعد حتى قتل عثمان كما جاء في رواية اليعقوبي[3]....

وقد أكّد هذه الحقيقة جماعة من المؤرخين والباحثين كما تؤكدها الظروف التي كانت تحيط بتلك الأحداث، فإنَّ الوفود التي أمَّت المدينة تطالب بالإصلاح ظلت أشهراً تروح وتغدو وتفاوض قبل أن تشدد الحصار عليه. وكان خلال ذلك على اتصال دائم بعماله وذويه وقد اتخذوا قراراً باستعمال الشدة وكان اعتمادهم على معاوية وجيش الشام، وكانت أخبار تلك الأحداث تصله بين الحين والآخر بمنتهى السرعة.... واتفق الطرفان كما ذكرنا

3- لقد كان واضحاً لعثمان ما يخطط له ابن آكلة الأكباد ولقد قال له صراحة بأنه سوف ينتظر قتله لكي يجعل طلبه بدمه حجة للتمرد على الخليفة الشرعي، ولكي يشنع عليه أمام رعاع الشام والطلقاء والمنافقين بأنّه قتل عثمان.

بعد أن أظهر ابن عفان رغبته الأكيدة في الإصلاح. ولكنّه كان يتراجع بعد أن توافق الوفود وتستعد للرحيل والرجوع إلى أمصارها. ولم يكن ذلك منه على ما يبدوا إلاّ كسب الوقت الذي يتيح لجنود الشام أن تقطع المسافة بين البلدين حسبما كان يمنيه معاوية بذلك.. وظل يماطله ويمنيه إلى آخر لحظة، ولو كان صادقاً وعازماً على إنقاذه من محنته لكان باستطاعته أن يحقق ذلك خلال أيام معدودات، وعلى ما يبدو أنّ ذلك لم يغب عن بال عثمان وقد صارحه به كما ذكرنا. ومع ذلك فقد أمره أن يرجع إلى الجيش ويسرع في العودة به بعد أن أنّبه على تباطئه وإهماله....

ويدعي أكثر المؤرخين بأنّ علياً (ع) في الأيام الأخيرة التي اشتد فيها الحصار على عثمان بن عفان أرسل ولديه الحسن والحسين (ع) ليدفعا الناس عنه كما أرسل طلحة والزبير ولديهما محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير[4] فلزموا مدخل الدار ومنعوا الثوار من الوصول إليه وأصيب بعضهم بجروح وهم يدافعون الثائرين عن اقتحامه وبالتالي دخلوها من ناحية ثانية بإشارة من طلحة.....

ويضيف المؤرخون إلى ذلك أنّ ابن أبي طالب (ع) لما علم بقتل عثمان أقبل على داره مسرعاً وقد اشتد غضبه فضرب الحسن والحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير واتهمهم بالتساهل والتقصير في الدفاع عن الخليفة....

ولكن المتتبع لسيرة الأحداث منذ بدأ المسلمون يتحسسون الأخطار التي أحدقت بهم من تصرفات عثمان وأسرته ومواقف أمير المؤمنين من الثائرين ومدى ما بذله من جهد لإصلاح الحال بما يضمن للخليفة هيبته وللأمة حقها

4- وقناعتي رغم ما قيل وما ذكره المؤرخون فإنّ ابن طلحة وابن الزبير كانا هناك لشيء آخر وهو متابعة الأحداث من داخل الدار وإخبار والديهما بكل جديد يحدث حتى يحاولا إمساك زمام الأمور وإلاّ فكيف يمثا أبناءهما وهما اللذان كانا يسعران عليه نار الحرب ويوقدان الفتنة....

المفروض لها وكان عثمان يعطيه من نفسه ما يريد، ثم يعود فينقض كل ما بناه علي (ع) كما يشير عليه مروان وبنو أمية وأخيراً ولما يئس منه ورآه مسيراً لحاشيته اعتزل المدينة وذهب إلى أرض له خارجها ليكون بعيداً عن كل ما يحدث بعد أن فشلت جميع مساعيه خلال شهرين تقريباً... فإن المتتبع لسير هذه الأحداث يطمئن إلى أنّه لم يرسل ولديه للدفاع عنه ولم يبال بكل ما يحدث بعد تلك الجهود التي بذلها في سبيل الخروج من تلك الأزمة بما يحفظ لجميع الأطراف حقوقها....وبعد أن أيقن أنّ عثمان وزمرته مصرون على السياسة التي اختطوها لأنفسهم مهما كانت التضحيات، التزم بيته تاركاً لأصحاب الحق أن يتصرفوا كما يريدون ما داموا يطالبون بالعدالة والحقوق المشروعة، ومن المستبعد أن يخرج بريحانتي رسول الله (ص) في تلك المعركة للدفاع عن الظالمين وهو الذي وهب نفسه وكل حياته للحق والعدالة وإنصاف المظلومين. ومهما كان الحال فقد انتهى الحصار الطويل والحوار الذي دام ثلاثة أشهر تقريباً كما يذهب إلى ذلك الرواة بقتل عثمان بواسطة جماعة ممن تسلقوا عليه الجدران بتخطيط من طلحة، ويدعي المؤرخون لهذا الحادث أنّ محمد بن أبي بكر أحد الذين استطاعوا الدخول عليه ولكنّه لم يباشر القتل....

ويبدو أن الثوار ظلوا إلى آخر لحظة يتهيبون قتله ويأملون أن يتراجع فيعتزل الناس ويعطيهم ما سألوه، فلما قتل مروان بن الحكم رجلاً منهم انقطعت جميع آمالهم ولم يعد لهم سبيل إلاّ بالتخلص منه...

فلقد جاء في رواية شرح النهج عن عبد الله بن عباس إنَّ أبا ربيعة المخزومي قال: دخلت على عثمان فأخذ بيدي وأسمعني كلام من على بابه من الناس فمنهم من كان يقول: ما تنتظرون به، ومنهم من يقول: لا تعجلوا عليه فعساه ينزع ويتراجع... فبينا نحن كذلك إذ مرّ طلحة فقام ابن عديس البلوي فناجاه، ورجع ابن عديس فقال لأصحابه لا تتركوا أحداً يدخل إلى عثمان أو يخرج من عنده، فقال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة اللهم اكفني طلحة فإنّه

حمل هؤلاء القوم وألّبهم عليّ والله لأرجو أن يكون منها صفر اليدين وأن يسفك دمه، ثم أردت أن أخرج فمنعوني حتى أمرهم محمد بن أبي بكر فتركوني أخرج،ومضى يقول الراوي: ولما طال الأمر قام رجل من الأنصار يدعى ابن فياض وكان صحابياً فنادى عثمان وأمره أن يخلع نفسه فبينما هو يناشده ويدعوه إلى خلع نفسه إذ رماه كثير بن الصلت الكندي[5] وكان من أصحاب عثمان بسهم فقتله فاشتد المصريون عند ذلك وطلبوا القاتل ليقتصوا منه فرفض عثمان تسليمه وقال: لم أكن لأدفع لكم رجلاً نصرني فهاجموه من كل جانب حتى دخلوا عليه واشترك في قتله جماعة من الثوار والأنصار.... وأضاف إلى ذلك في شرح النهج أنّ علياً (ع) لمّا رأى شدة طلحة قال له أنشدك الله ألا كففت عن عثمان فقال له: لا والله حتى يعطي بنو أمية الحق من أنفسهم....فكان أمير المؤمنين يقول بعد ذلك لحا الله بن الصعبة أعطاه عثمان ما أعطاه وفعل به ما فعل[6]....

لقد كان لقتل عثمان وقع حسن في أكثر الأوساط الإسلامية في المدينة وخارجها من الذين كانوا يؤلبون الناس عليه تلبية لرغباتهم الخاصة كطلحة والزبير وعائشة وسعد بن أبي وقاص ومعاوية ومن الذين كرهوه لتصرفاته وتسليطه مروان بن الحكم وبني أمية على رقاب الناس وموارد البلاد، هؤلاء وهؤلاء كان لمقتله وقع حسن في نفوسهم وإن اختلفت الغايات وتباينت الاتجاهات، أمّا علي (ع) فلقد كان له من ذلك الحدث موقف قد اختص به وحده فلقد كان يتمنى ويعمل بكل جهده لكي تسير الأمور في غير الاتجاه الذي صارت إليه، وحاول أكثر من مرة مع الخليفة والثوار ونصحهم بالاعتدال

5- هذا يظهر حقيقة أنّ هناك أصابع خفية وراءها زعنفة من الأمويين أرادت أن يقتل عثمان لأنّهم عرفوا أنّه إذا تم الاتفاق بين الثوار وعثمان ربما انحسر دورهم فرأوا أنّ أنجع وسيلة هو أن يبدأوا بقتل أحد الثوار من أجل أن يكون ردة فعل الثوار هو قتل عثمان وهذا ما حصل فعلاً.

6- شرح نهج البلاغة ص 167 من المجلد الأول.

واستعمال الحكمة وأن لا يسيئوا استعمال حقهم ويفسحوا المجال للغوغائيين والمخربين أن ينفذوا من خلال تلك الأحداث لأغراضهم الدنيئة، ونصح الخليفة بتطبيق العدالة وإنصاف المظلومين وإقصاء العابثين بمقدرات الأمة ومقدساتها عن مراكزهم وتسليمها لغيرهم من ذوي الكفاءات في الإدارة والاستقامة في الدين. وظل يعمل في ضمن هذه الحدود ويروح ويجيئ بين الثوار والحاكمين واستطاع أن يضع حداً للثوار ومطالبهم، ولكنَّه لم يستطع أن يغيّر موقف الخليفة وحاشيته ولما يئس منهم جلس في بيته وأغلق عليه بابه ينتظر حكم القضاء في الظالم والمظلوم، وكان يتمنّى أن تنتهي الأمور على غير ما انتهت إليه وأن تسير في الطريق الصحيح.... وقد وصف الموقف بكلمات قصار أبلغ من كتاب كامل فقال: وأنا جامع لكم أمره، لقد استأثر فأساء الأثرة وجزعتم فأسأتم الجزع و لله حكم واقع في المستأثر والجازع....

علي (ع) يقود السفينة

أوشكت السفينة على الغرق بعد أن مزقت رياح الانقلاب وذيوله اشرعتها واشرأبت أعناق الناس إلى المنقذ إلى العدل إلى الذي ينجي السفينة من الغرق إلى الذي يحمل بهم على الطريق المستقيم.... لقد كان عامة المسلمين ينظرون ويتطلعون بلهفة إلى ما وراء تلك الأحداث ومن سيخلف عثمان عندما تتمخض الاحداث عن قتله أو اعتزاله، ولقد كان الطامعون فيها أكثر من واحد، ومن بين اولئك من عمّق مجرى الأحداث ووسّع دائرتها وامدَّ النار المتأججة بالوقود كطلحة والزبير وعائشة وكان من أكثر الناس لهفة عليها - وبلغ به الحال أن سبق نتائج تلك الأحداث وأخذ لنفسه المكان الذي قدر أنَّ الأيام ستضعه فيه، فاستولى على بيت المال وأقام الصلاة بالناس وعثمان محصور في داره لا يزال على قيد الحياة..... وبلا شك فانَّ الاربعة الباقين من الستة اصحاب الشورى كانوا أوفر من سائر الناس حظاً، وكان نصيب علي (ع) أوفر من نصيب الجميع وإليه تتجه الجماهير في المدينة وخارجها وحتى الثوار لم يعدلوا به أحد، لأنهم يعلمون بأنه سيحقق لهم الأهداف التي ثاروا من أجلها، ويعلمون في الوقت ذاته أنَّ طلحة والزبير لم يغضبا للحق ولله وأنهما لا يختلفان عن عثمان وبطانته وتأكد ذلك لهم من موقفهما من عثمان خلال الأيام التي سبقت قتله.....

وحدث البلاذري في انساب الأشراف: أنَّ علياً (ع) لزم منزله بعد أن يئس من إصلاح الأمر بين الفريقين فلما قتل عثمان وفرغ الناس من أمره وأدركوا أنّه لابد لهم من إمام يجتمعون عليه جاء الناس كلهم إلى علي يهرعون وهم

يقولون: إنَّ اميرنا علي بن أبي طالب حتى دخلوا عليه الدار وقالوا امدد يدك حتى نبايعك.... فقال ليس ذلك إليكم، ذلك لأهل بدر فمن رضي به البدريون فهو الخليفة، فلم يبق أحد من أهل بدر إلا اتى علياً (ع) فقالوا: مانرى أحداً أحق بها منك يا أبا الحسن....

وقال الطبري في الجزء الخامس من تاريخه: إنَّ أصحاب رسول الله جاؤوه بعد مقتل عثمان فقالوا له:لابد للناس من إمام ولا نجد اليوم أحق بهذا الأمر منك، فقال: لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً.... فقالوا: لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك ومازالوا به حتى قبل بيعتهم، ولكنه أبى إلاّ أن تكون في المسجد ويرضى جميع الناس[7] وفي رواية ثالثة أنّه اصرَّ على رفض البيعة بالرغم من الالحاح الشديد عليه، فتوسلوا بالأشتر النخعي لإقناعه وكان على رأس وفد الكوفة، فقال له: ابسط يدك نبايعك فرفضها فألح عليه وخوَّفه الفتنة إن هو بقي على موقفه وما زال به حتى أقنعه، فبايعه الوجوه ثم انثال عليه الناس من كل جانب.... فقام الزبير فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس انَّ الله قد رضي لكم حكم الشورى فأذهب به الهوى وقد تشاورنا فرضينا علياً فبايعوه....

وجاء في الإمامة والسياسة عن أبي ثور أنّه قال: لما كانت البيعة بعد مصرع عثمان خرجت في أثر علي (ع) والناس حوله يبايعون فدخل حائطاً من حيطان بني مازن فالجأه إلى نخلة وحالوا بيني وبينه فنظرت إليهم وقد أخذت أيدي الناس ذراعه تختلف أيديهم على يده، ثم أقبلوا به إلى المسجد الشريف فكان أول من صعد المنبر في المسجد طلحة وبايعه بيده، وكانت أصابعه شلاءً فتطير منها علي (ع) وقال: ما أخلفها أن تنكث، ثم بايعه الزبير وأصحاب النبي وجميع من في المدينة من المسلمين.... وقد وصف هو (ع) موقف

7- هذا هو الحق الذي يطلبه إمام الأئمة هو أن يرضي جميع الناس وعلانية لا أن تكون بيعة واحد أو اثنين كما جرى في بيعة أبي بكر أو واحد كما جرى في وصية أبو بكر لعمر.

المسلمين منه وإصرارهم على بيعته في خطبته المعروفة بالشقشقية حيث قال: فما راعني إلا والناس كعرف الضبع ينثالون عليَّ من كل جانب مجتمعين حولي كربيضة الغنم حتى لقد وطيء الحسنان وشقَّ عطفاي فلما قمت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين... ومضى في خطبته هذه يصف موقفه من الخلافة فقال: أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز... لقد تمت البيعة لعلي (ع) بعدما رأى أن لا مفر له في ذلك الجو المشحون بالفتن والمضاربات وذلك بعد وفاة عثمان بثلاثة أيام أو خمسة وبايعه جميع المهاجرين والأنصار وغيرهم ممن وفدوا على المدينة من الأمصار الثلاثة، ولم يتخلف عن بيعته من القرشيين سوى أفراد قلائل كان من بينهم مروان بن الحكم وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر...

وليس بغريب على مروان بن الحكم والأمويين إذا هم تخلفوا عن بيعة علي أو كرهوها كما يبدو للمتتبع في تاريخ البيت الأموي مع الهاشميين وغيرهم من أصحاب الرسالات، وأمَّا سعد بن أبي وقاص، فلقد كان يتمناها لنفسه ولو وسعه العمل من أجلها لم يقصر، ولعله قد بدأ يفكر فيها فقد جعله ابن الخطاب أحد من تدور الخلافة في فلكهم وأعطاه أكثر مما يستحق ولا أظنه قبل ذلك كان يفكر فيها أو يتصور أنَّ المسلمين سيجعلونه إلى جانب علي في يوم من الأيام، ولكنه بعد أن رأى انصراف المسلمين حتى عن طلحة والزبير وهما أبرز منه ولهما مكانهما بين صحابة الرسول وفي المصريين والكوفة والبصرة لذلك لم يتعرض لها واكتفى أن يعتزل ولا يبايع لعلي (ع) تضامناً مع الأمويين الذين تربطه بهم القرابة من قبل أمه حمنة كما ذكرنا من قبل، وكان هواه معهم ولم يقف منهم موقفاًمعادياً حتى بعد أن عزله عثمان عن الكوفة وأعطاها لأخيه الوليد، وأمير المؤمنين (ع) يعلم منه ذلك كما يعلم بموقف الأمويين وبما

سيؤول إليه أمر طلحة والزبير وأكثر القرشيين وقد وصف موقفهم منه بعد البيعة بقوله: اللّهم إني أستعديك على قريش فإنهم قطعوا رحمي وأكفأوا إنائي فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا ذاب ولا ساعد إلّا أهل بيتي.

وقال مرة أخرى: مالي ولقريش والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم......

ومهما كان الحال فلما دعي سعد بن أبي وقاص إلى البيعة- تمنع منها تضامناً مع الأمويين وقال لأمير المؤمنين: ماعليك من بأس، فتركة أمير المؤمنين ولم يسمح للثائرين أن يستعملوا معه العنف، ولما دعي إليها عبد الله بن عمر ابن الخطاب[2] وامتنع منها طلب منه كفيلاً بأن لا يشترك مع أحد في عمل ضده، ولما امتنع عن تقديم الكفيل تركه وقال للناس خلوه فأنا كفيله، ثم التفت إليه وقال: اذهب فاني ماعلمتك إلّا سيء الخلق كبيراً وصغيراً....

ولما تمت البيعة انصرف أمير المؤمنين منذ اليوم الأول يجند كل إمكاناته لإصلاح ما أفسدته بطانة عثمان في جميع شؤون الدولة، تلك البطانة التي تركت جميع الأجهزة تنخر بالفساد والانحلال، وكان يرى أنَّ الواجب يدعوه لمعالجة الأهم فالأهم من المشاكل المستعجلة التي يتضجر منها الناس وتأتي في طليعتها مشكلة الولاة التي أثارت تلك الضجة على الخليفة الراحل وأودت بحياته.... حتى إذا فرغ منها اتجه إلى غيرها من المشاكل التي يراها أكثر إلحاحاً وأعم نفعاً، لم يكن ذلك ليمنعه من أن يبسط للناس السياسة التي سينتهجها في عهده الجديد وبعد أيام قلائل من خلافته وقف على المنبر ليعلن على الملأ المحتشد من حوله إلغاء بعض الأنظمة التي اتبعها أسلافه خلال عشرين عاماً أو تزيد، وكان على ثقة بأن عمر بن الخطاب حينما قسم الفيء

2- هذا عبد الله بن عمر يمتنع عن بيعة إمام الحق وبعد فترة من الزمن يلهث راكضاً إلى عند الحجاج لمبايعة عبد الملك بن مروان فما كان من الحجاج إلا أن ناوله رجله بدل يده وهو يقول أنّه سمع من الرسول أنّه قال: من مات ولم يبايع إمام زمانه مات ميتة جاهلية.

حسب اقدار الناس وقدمهم في الإسلام قد استجاب لمصالحه وعواطفه أكثر مما استجاب لمبادئ الإسلام، وأن عثمان بن عفان حينما ترك أهله يعبثون به ويفسدون في الأرض قد استجاب للعنصرية الجاهلية وللروح الأموية الحاقدة على الإسلام الذي لا يعطي أحداً على حساب أحد من الناس.....

لقد وقف بين الجموع المحتشدة التي كانت تنتظر منه غير ما ألفته من قبل فقال: أيها الناس إنما أنا رجل منكم لي مالكم وعليّ ما عليكم وأني حاملكم على منهج نبيكم ومنفّذ فيكم ما أُمرت به، ومضى يعلن على ذلك الملأ الخطوط العريضة لسياسته، فكان مما قال: ألا أنَّ كل قطيعة أقطعها عثمان بن عفان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت الله فإنَّ الحق لا يبطله شيء ولو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء وفرق في البلدان لرددته فإنَّ في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق.... أيها الناس لا يقولنَّ رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجروا الأنهار وركبوا الخيل واتخذوا الوصائف إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم على حقوقهم التي يعلمون، حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا، ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله (ص) يرى أنَّ الفضل له على سواه بصحبته، فإنَّ الفضل غداً عند الله وثوابه وأجره على الله، ألا وأيما رجل استجاب لله ورسوله فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية ولا فضل فيه لأحد على أحد، للمتقين عند الله أحسن الجزاء، فإذا كان الغد فاغدوا علينا إن شاء الله ولا يتخلفنَّ أحد منكم عربي أو عجمي كان من أهل العطاء..... فرسم لهم بهذا البيان سياسته التي ستقام على العدالة والتي تتسع لجميع الناس ولا تعطي امتيازاً لأحد على أحد فعز على كثير من المهاجرين من قريش وغيرهم أن يكونوا كغيرهم من الموالي والعبيد وبخاصة طلحة والزبير اللذين وضعهما ابن الخطاب في مستوى علي وكانا يطمعان وقد فاتتهما الخلافة في ولاية المصرين البصرة والكوفة، وها هو اليوم في بيانه التاريخي يضعهما في مستوى العبيد والموالي ويأبى لهما مع ذلك أن يتوليا أي عمل له،

وقد قال برفق ولين حينما طلبا منه ذلك أحب أن تكونا معي أتجمل بكما وأستأنس برأيكما، فاني أستوحش لفراقكما....

وأصر علي (ع) على موقفه ذلك لأنَّ أطماعهما لم تكن لتخفي عليه وقد عرفهما صغيرين وكبيرين، ورآهما بالأمس القريب يحرضان على عثمان لا غضباً لله ولا حرصاً على مصلحة الإسلام بل طمعاً في السلطة من بعده.... أما وقد سمعا بيانه ورفض أن يجعل لهما ميزة على غيرهما وأنهما في عهده الجديد لا ينالان منه غير العطاء الهزيل، وسيستأنف سيرة ابن الخطاب في فرض الأقامة الجبرية عليهما ولا يمكن أن يحققا شيئاً من أطماعهما في عهده بعد أن أدركا جميع ذلك سكتا على مضض وجعلا يعملان للثورة ضد الحكم الجديد وانضما إلى الحزب الأموي، واستغلا سخط عائشة على بيعة علي(ع) ومواقفها العدائية منه، وكادت أن تموت غماً منذ أن بلغها أنَّ الناس قد بايعوا علياً، واستقبلت نبأ استخلافه بقولها: ليت هذه أطبقت على هذه ورجعت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان، مظلوماً وسأطالب بدمه..... فقال لها أبا عبيدة بن سلمة: والله إنَّ أول من أمال حرفه لأنت وقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر، فردت عليه بقولها: إنهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولي الأخير خير من قولي الأول......

ويروي الطبري أنَّ عبيدة بن أبي سلمة حينما سمع من عائشة ما سمع رد عليها بالأبيات التالية

فمنك البدء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر

وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا أنَّه قد كفر

فهبنا أطعناك في قتله وقاتله عندنا من أمر

ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنا والقمر

لقد فرقت الأهواء والمصالح بين طلحة والزبير وعائشة، وبين الأمويين وحزبهم....

واستباح كل من الطرفين دماء الاخرين وكانت عائشة أشد من قريبها طلحة على عثمان بن عفان، وقد سمعها أكثر المسلمين تقول: اقتلوا نعثلاً فقد كفر.... وهاهي المصالح والأهواء تجمع بين أعداء الأمس القريب فيقفون صفاً واحداً في وجه الدولة الجديدة ويستنفرون كل الفئات التي كانت تتنعم على حساب الفقراء وتتمتع بكل الامتيازات للثورة على النظام الجديد الذي يضع كل إنسان في مكانه ولا يسمح لأحد أن يتنعم على حساب غيره...

وكانت السيدة عائشة من أشد المعارضين لعلي(ع) وأكثرهم تحريضاً عليه كما تصف مواقفها منه أكثر المرويات التي تعرضت للأحداث المتسلسلة منذ استيلائه على السلطة وخلال معارك البصرة وغيرها..... ويرى جماعة من المؤرخين أنَّ موقفها العدائي منه يعود لأكثر من سبب واحد يتصل أولها بحياة النبي (ص) يوم كان يدنيه إليه ويفضله على جميع المسلمين كما يُدني بضعته الزهراء ويفضلها على جميع النساء وتستأثر مع ذلك بعطفه وحنانه، وبلا شك فلقد كانت تتمنى لها ولأبيها هذه المنزلة من النبي (ص)، هذا بالإضافة إلى أنَّ علياً زوج لفاطمة بنت خديجة التي شغلت وجدانه بنبلها وسموا أخلاقها وتضحياتها في سبيل رسالته، وما استطاعت طيلة حياتها مع النبي (ص) أن تكتم ما بنفسها على خديجة وغيرتها منها، وبخاصة عندما كان يذكرها ويتلهف على أيامها، وعلي (ع) مع ذلك لقد برأ مارية القبطية مما حاولت عائشة الصاقه بها ورجح للنبي طلاقها يوم لاكتها الألسن خلال رجوع النبي من غزوة بني المصطلق فيما يسمونه بحديث الافك وظلت تراكم الأسباب حتى بلغ عداؤها لعلي حداً أفقدها وعيها ورشدها ووقفت منه موقفها الأخير بعد مصرع الخليفة الراحل....

ومهما كان الحال فلقد كانت عائشة من أكثر الناس تحريضاً على عثمان. وقد اتهمته بالكفر والارتداد عن الدين، وحينما بلغها ماجرى عليه غلبتها الفرحة وأخرجتها عن حدود الأناة والصبر فهتفت باسم طلحة والمخبر لا يزال يتابع حديثه حتى إذا انتهى إلى مصير الخلافة قالت: ليت هذه اطبقت على هذه قتل عثمان مظلوماً، وبلا شك لو أنَّ أحداً غير علي (ع)تولى الخلافة بعد

مصرع عثمان لم تقف منه نفس الموقف ولم تشترك في معركة ضده، أي أنَّ معركتها مع أمير المؤمنين (ع) لم تكن لأجل قريبها طلحة بل لأكثر من سبب كما ذكرنا....

وقد أشار إلى ذلك علي (ع) في بعض خطبه فقال وهو يتحدث عن الناكثين: أما عائشة فقد أدركها ضعف في النساء وضغن غلا في صدورها ولو دعيت لتنال من غيري ما أتت إليّ لم تفعل. ولها مع ذلك حرمتها الأولى والحساب على الله[3]...

ولم تقتصر المشاكل التي اعترضت خلافة علي (ع) منذ بدايتها على ما كان من طلحة والزبير وعائشة وأنصارهم من الأمويين وغيرهم.... بل واجهتها مشكلة أخرى هي من أكثر المشاكل تعقيداً وخطراً على مصير الخلافة، تلك هي مشكلة معاوية أشد الطامعين في الحكم صلابة، والذي كانت أطماعه امتداداً لأطماع أسلافه الذين ظلّوا يحاربون الإسلام طيلة حياتهم من أجل السلطة، ومنذ وطئت قدماه أرض الشام جعل يعد العدة لذلك، وتيسر له في عهد قريبه عثمان مالم يتيسر له من قبل فترك له الشام يتصرف بها كما يريد فنثر الأموال على أنصاره واشترى بها الضمائر والرجال، حتى استطاع أن يكوّن بها جيشاً من المرتزقة وذوي الأطماع يصرفه لصالحه لا لصالح الدولة

واستنجد به عثمان أكثر من مرة لإحباط حركة الثوار وظل يمنيه ويعده بالنجدة حتى فات الأوان كما ذكرنا من قبل[4]

3- وقد أشار في شرح النهج إلى أسباب موقفها من علي (ع) في حديث طويل نسبه إلى شيخه يوسف بن اسماعيل اللمعاني وقد ذكرنا خلاصته من قبل.

4- ومعاوية هذا أحد نتائج انقلاب السقيفة وأحداث الشورى. إن أصحاب الانقلاب خافوا من أبيه أبي سفيان أن يقف ضد انقلابهم فتحالفوا معه على أن يولوا أبناءه الولايات مقابل سكوته - رغم أنّه كان يناور من أجل الفتنة وليس من أجل الدين - هذا من جهة ومن جهة أخرى كان أصحاب الانقلاب يتمنون التحالف مع البيت الأموي لأنّه من ألد أعداء البيت الهاشمي الذي هم اغتصبوا حقه وأرادوا من هذا التحالف أن يقف البيتان في مواجهة بعضهم كما في السابق وتخلوا لهم الحلبة.

وكان أمير المؤمنين (ع) يعلم كل ذلك من معاوية ويعلم بأنه سيعلن العصيان المسلح ويتخذ دم عثمان وسيلة لتضليل الرأي العام، ويعلم بأنه لا يستسلم له حتى ولو ولاه العراقين بالإضافة إلى الشام. ويعلم في الوقت ذاته بأنه لو وافق ابن عباس والمغيرة بن شعبة واقره على الشام كما أشارا عليه - بذلك ولو لفترة قصيرة - سيمدّه بالقوة ويطلق لسانه بالحجة ولا يمكن أن يصل معه إلى النتيجة المرجوة ما دام جيش الشام أطوع له من بنانه هذا بالإضافة إلى أن السياسة الحكيمة كانت تفرض عليه هذا الموقف المتصلب من معاوية وغيره من ولاة عثمان على الأمصار، لأنه ظل حتى اللحظات الأخيرة من حياة عثمان يلح عليه بعزلهم وتولية الأكفاء من المسلمين، وعرف منه ذلك القريب والبعيد والعدو والصديق، فكيف ينكر عليه بقاءهم في الحكم بالأمس ويطالبه مع الثائرين بإقصائهم ويندد به من أجلهم مع عامة المسلمين، ويقر معاوية اليوم على عمله وهو أخطرهم وأسوأهم حالاً، وماذا يقول للناقمين على سياسة عثمان وقد كان إلى الأمس القريب أشد منهم نقمة عليها

إن علياً (ع) لم يكن طالب ملك ولم تكن السلطة بنظره إلا وسيلة للحق والعدالة وإنصاف المظلومين وهو يرى أن إقرار معاوية على عمله ولو يوماً واحداً إقرار للباطل وتضليل للناس ومداهنة في الدين وتوسل بالباطل لبلوغ الهدف والغاية..... ومحال على أميرالمؤمنين(ع) أن ينحدر إلى هذا المستوى الرخيص الشائع بين الساسة والسياسيين...

وقد أجاب أولئك المشيرين عليه بترك معاوية في مركزه بقوله: ماكنت لأتخذ المضلين عضداً.

وقال الأستاذ عبد الفتاح حول سياسة علي (ع) من أنصار عثمان وولاته: إنَّ الناظر إلى سياسة علي (ع) حيال ولاة عثمان ليعلم مدى صوابه حين أبى إلاّ خلعهم وتولية سواهم ممن يؤمنون بمبادئه ومثله، ويعلم أنه أيضاً كان نافذ البصيرة مؤمناً باستجابة البلاد كلها له. لأنّه لم يعمل إلاّ ما أملاه عليه شعور أهل الأمصار نحو أولئك الولاة، وها هو الزمن قد أثبت فراسته فجاءته الطاعة

من كل إقليم... أما الشام فلها وحدها شأن تنفرد به لأنها في قبضة رجل مفتون بالسلطة إقراره عليها وعدم إقراره بسواء بسواء لن يسفر إلاّ عن تمرد لأنه لا يرضى بغير احتلاب السلطان الذي وقع في كف غريمه القديم.... ومضى يقول: ولعلّه لو أثبته الإمام في حكم الشام لوسعه أن يبدو في أنظار الجماهير أقوى منه في حالة العزل، لأنّه يستطيع أن يقول للناس: أنّه يأبى البيعة لمن ولاّه ولا يعتبرها إلاّ ثمناً يشتري أمير المؤمنين صمته عن اتهامه بمقتل عثمان....

ومجمل القول أنّ أمير المؤمنين قد واجه جميع تلك المشاكل التي اعترضت خلافته بمنتهى الحكمة والسياسة الرشيدة، وإذا لم يكتب له النجاح في خلافته فمرد ذلك يعود إلى أسباب أخرى من أهمها أنّه تولّى الخلافة بعد عثمان والمسلمون داخل المدينة مع أنهم اشتركوا في التذمر من سياسته وساعد بعضهم على التخلص منه، إلاّ أنّهم لم يجتمعوا على هدف واحد وغاية واحدة بل تفرقت أهدافهم وغاياتهم أشدَّ الاختلاف ولم يكن رائدهم الحق والإخلاص لرسالة الإسلام باستثناء أفراد قلائل قد غضبوا لله وللحق ولعباده المظلومين والمستضعفين، في هذا الجو المحموم ووسط تمرد وتحد وكره شديد له من أكثر القرشيين ومن الأمويين بصورة خاصة وفي مناخ سادت فيه المصالح على جميع القيم واستعملت فيه الأموال لشراء الضمائر والأنصار...

ولم يكن أحد يتصور أنَّ علياً (ع) يهادن أحداً على حساب الإسلام أو يستعمل قرشاً واحداً من بيت المال في غير موضعه، وكان من الطبيعي أن تعترضه المشاكل من هنا وهناك وهو يحاول أن يحمل الناس على كتاب الله وسنة رسوله وتأسيس خلافة جديدة لم يعهد المسلمون نظيراً لها من قبل......

إنَّ علياً (ع) كان يرى أنَّ أقل ما يطلب من خليفة رسول الله (ص) أن يحمي شريعة الله من التلاعب والأرض من الفساد ويحتفظ بخيرات الأرض لا لفئة من الحاكمين ولا لفريق دون فريق، وقد عمل على ترسيخ هذه المبادئ وتنفيذها بدون هوادة ولم ينحرف عن سيرة رسول الله (ص) كما انحرف غيره وسلك طريق الجبابرة والطغاة لقد حاول إقصاء معاوية عن الشام فأرسل

إليها سهل بن حنيف والياً مكانه، ولما دخل حدودها اعترضته خيل معاوية، ولما أنبأهم بمهمته قالوا له ارجع إلى من أرسلك، فرجع إلى المدينة وأثار رجوعه قلق المسلمين، وأيقنوا أنّ معاوية لن يتراجع وسيفتح جبهة في الشام ضد العهد الجديد ويجنّد لها كل الإمكانات التي تضافرت لديه خلال عشرين عاماً مضت على ولايته فيها، وكان الأمر كذلك، فقد أصر على العصيان وتذرع بدم عثمان الذي ساعد على قتله هو وأسرته بسوء تصرفاتهم، وخذله في ساعات المحنة يوم كان في أمسّ الحاجة إلى نجدته، واستغل معاوية تمرد الحلف الثلاثي المؤلف من طلحة والزبير وعائشة، وبذل الأموال الطائلة لتأييدهم واتساع جبهتهم ومضى يحثهم على المعارضة ويغريهم بكل أنواع الدعم وإتمام البيعة لهم بالشام ونواحيها.....

وجاء في شرح النهج: أنّ علياً (ع) كتب إلى معاوية أنّ الناس قتلوا عثمان بدون مشورة مني وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع، فإذا أتاك كتابي فبايع لي وأوفد لي أشراف الشام قبلك، فلما قدم رسوله على معاوية وقرأ كتابه بعث رجلاً من عميس ومعه كتاب إلى الزبير بن العوام يقول فيه: لعبد الله أمير المؤمنين الزبير بن العوام من معاوية بن أبي سفيان أما بعد فإني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الحلب فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليهما ابن أبي طالب فإنّه لا شيء بعد هذين المصرين وقد بايعت لطلحة من بعدك فأظهرا الطلب بدم عثمان وادعوا الناس إلى ذلك وليكن منكما الجد والتشمير أظفركما الله وخذل مناوئكما وخصمكما، وأضاف الراوي إلى ذلك أنّه لما وصل الكتاب إلى الزبير سرّ به وأخبر طلحة وأطلعه عليه فلم يشكا في نصح معاوية لهما على حد تعبير الراوي....

وهنا يؤرّخ المؤرخون أنّ طلحة والزبير بعد أن يئسا من المشاركة في الحكم وأيقنا أنهما لن يحققا شيئاً من أطماعهما في ظل الحكومة الجديدة أضمرا الخلاف وإعلان الثورة وكانت عائشة قد اختارت الإقامة في مكة ورجعت إليها بعد أن بلغها أنّ مصرع عثمان قد انتهى باستيلاء علي على السلطة كما ذكرنا... وانضم إليها الحاقدون من بني أمية وعبد الله بن عامر الحضرمي

عامل عثمان على مكة وجعلت تدعو الناس للخروج والثورة وكلما اجتمع عليها ملأ من الناس تقول: أيها الناس إنَّ هذا حدث عظيم وأمر منكر فانهضوا إلى إخوانكم من أهل البصرة فانكروه فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم ولعلَّ الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين ثارهم....

وكان عبد الله بن عامر قد رجّح لها الخروج إلى البصرة وزعم أنَّ له فيها أنصاراً يستجيبون لطلبه ويتداعون لنصرته، فاستجابت لطلبه بعد أن اتصلت بالزبير وطلحة واتفقوا جميعاً على ذلك، وأرسلت إلى نساء النبي (ص) تدعوهنَّ إلى نصرتها والخروج معها لحرب علي بن أبي طالب فوافقت على طلبها حفصة بنت عمر بن الخطاب كما يروي المؤرخون وما أن علم أخوها عبد الله بن عمر بذلك حتى جاء وأقنعها بالعدول عن رأيها وتلا عليها الآية: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجنَّ تبرج الجاهلية الأولى﴾.

وجاء في رواية شرح النهج: أنَّ علياً لما نزل بذي قار كتبت عائشة إلى حفصة كتاباً تقول فيه أنَّ علياً قد نزل ذي قار وأقام بها مرعوباً خائفاً لما بلغه من عدتنا وجماعتنا فأصبح بمنزلة الأشقر إن تقدم عقر وإن تأخر نحر، فدعت حفصة جواريها يتغنين ويضربن بالدفوف وأمرتهن أن يقلن في غنائهن: ما الخبر علي في السفر كالفرس الأشقر إن تقدم عقر وإن تأخر نحر.... وجعلن بنات الطلقاء يدخلن على حفصة لسماع ذلك الغناء فبلغ أم كلثوم بنت أمير المؤمنين (ع) فلبست جلابيبها ودخلت عليهن في نسوة متنكرات، ثم أسفرت عن وجهها، فلما عرفتها حفصة خجلت واسترجعت.... فقالت لها أم كلثوم: لئن تظاهرتما عليه منذ اليوم فقد تظاهرتما على أخيه من قبل فأنزل الله فيكن ما أنزل فقالت لها حفصة: كفي رحمك الله وأمرت بكتاب عائشة فمزقته....
وأمّا أم سلمة فحاولت أن تثنيها عن عزمها وناشدتها أن تعود إلى عقلها ورشدها وذكرتها بكتاب الله الذي أسقط الجهاد عن النساء وفرض على نساء النبي (ص) أن يقرّن في بيوتهنّ وذكّرتها بحديث لها مع رسول الله (ص) يوم كانت تغسل له رأسه وعائشة تصب لها الماء فقال لها يوم ذاك: أيتكن صاحبة الجمل الأدبب تنبحها كلاب الحوأب ومضت أم سلمة تقول: فقلت له أعوذ

بالله من ذلك يا رسول الله، فضرب على كتف عائشة وقال: إياك أن تكونيها يا حميراء وذهب المؤرخون أنها كتبت إليها كتاباً جاء فيه: من أم سلمة زوج النبي (ص) إلى عائشة أم المؤمنين فإني أحمد إليك الله الذي لا إله الّا هو أن رسول الله لو علم أنَّ النساء يتحملن الجهاد لعهد إليك في ذلك، أما علمت أنّه قد نهاك عن التفريط بالدين فإنَّ عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ولا يرأب بهنّ إن انصدع. إنّ جهاد النساء غض الأطراف وخم الذيول، ما كنت قائلة لرسول الله لو عارضك ببعض الفلوات ناحه قعوداً من بلدٍ إلى بلد وغداً تردين على رسول الله (ص)، وأقسم بالله لو قيل لي: يا أم سلمة أدخلي الجنة لاستحييت من رسول الله أن أدخلها وأنا هاتكة حجاباً ضربه عليّ.... ولكن عائشة ظلت في طريقها ولم تستجب لنصيحتها[5] ومضت تستعد للثورة وتجمع حولها الموتورين من بني أمية وغيرهم ممن أغراهم مروان بن الحكم وعبد الله بن عامر ويعلى بن أمية بالأموال والمراكز إذا نجحوا في معركتهم مع علي ابن أبي طالب..

5- وكيف تستجيب لنصيحتها وهي لا تطيق ذكر اسم علي بن أبي طالب فكيف تقبل بأن يتولى السلطة ويسير الناس على جادة الحق وطريق العدل وتصبح هي كأي إمرأة في البلاد الإسلامية.



عائشة وفتنتها في حرب الجمل

ويدعي المؤرخون أنها قد استدعت طلحة والزبير إلى مكة لكي ينطلقوا منها جميعاً إلى البصرة فجاءا إلى علي (ع) وطلبا منه أن يأذن لهما بالذهاب إلى مكة لأداء العمرة، فقال لهما: والله ما أردتما العمرة بل أردتما الغدر، وظلا يلحان عليه حتى أذن لهما فخرجا والتحقا بعائشة في مكة المكرمة حيث كان المناوئون لعلي (ع) قد تجمعوا بها، ولما أتموا عدتهم وتكامل عددهم اتجهوا نحو البصرة بناء لرغبة عبد الله بن عامر وطلحة....

وقال ابن قتيبة: لما اجتمع طلحة والزبير وعائشة ومن معهم على الذهاب إلى البصرة أتاهم سعيد بن العاص وقال لهم: إنَّ عبد الله بن عامر قد دعاكم إلى البصرة وقد فرَّ منها فرار العبد الآبق وأهلها في طاعة عثمان بن عفان، والآن يريد أن يقاتل بهما علياً وهم في طاعته وقد خرج من بينهم أميراً ويعود الآن إليهم طريداً، وقد وعدكم الرجال والأموال، أمّا الأموال فعنده ما وعدكم به وأما الرجال فلا رجل عنده....

وقال مروان بن الحكم: أيها الشيخان ما يمنعكما أن تدعوا الناس إلى بيعة مثل بيعة علي بن أبي طالب. فإن أجابوكما عارضتماه ببيعة مثل بيعته وإن لم يستجيبوا عرفتم ما لكما عند الناس، فقال طلحة: يمنعنا أن الناس بايعوا علياً بيعةً عامة فبما ننقضها....

وقال الزبير: ويمنعنا مع ذلك تثاقلنا عن نصرة عثمان وخفتنا إلى بيعة علي ابن أبي طالب، فقال له الوليد: إن كنتما أسأتما فلقد أحسنتما وإن كنتما

أخطأتما فلقد أصبحتما اليوم وأنتما اليوم خير منكما بالأمس.... وقال مروان أما أنا فهواي الشام وهواكما البصرة وأنا معكما وإن كانت الهلكة...

وأضاف الرواة إلى ذلك أنّه لما اجتمعت كلمتهم على المسير حاولا إقناع عبد الله بن عمر بالمسير معهما وعرضا عليه الأمر وقالا: يا أبا عبد الرحمن إنّ أمنا عائشة وقد خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس[1] فاذهب معنا فإنَّ لك بها أسوة، فإن بايعنا الناس فأنت أحق بالأمر. فقال لهما: أتريدان أن تخرجاني من بيتي وتلقياني بين مخالب ابن أبي طالب ويضيف الرواة إلى ذلك أنهما رجعا إليه في محاولة ثانية لإقناعه بالذهاب معهما فقال له طلحة: يا أبا عبد الرحمن إنّه والله لرب حق ضيعناه وتركناه فلما حضر الغدر قضينا بالحق وأخذنا بالحظ أنَّ علياً يرى نفاذ بيعته وأنَّ معاوية لا يرى أن يبايع له، وإنّا نرى أن نردها شورى فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهي الهلكة...

فرد عليهما بقوله: إن كان قولكما حقاً ففضلاً ضيعته، وإن يكن باطلاً فشر نجوت منه واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها، وأنتما المدينة خير لكما من البصرة، والذل خير لكما من السيف ولن يقاتل علياً الّا من كان خير منه.... وأمّا الشورى فقد والله كانت فقدّم وآخّرتما ولن يردها الّا أولئك الذين حكموا فيها فاكفياني أنفسكما.... ولم تأت هذه النصيحة من عبد الله بن عمر بالثمرة المرجوة ولا وجدت أذناً صاغية منهما - لأنّ الأطماع والأهواء كانت تدفعهما دفعاً إلى الطريق الذي اختاروه - وجهزوا جيشاً مؤلفاً من ثلاثة آلف مقاتل كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين، وكتبوا إلى ثلاثة من زعماء البصرة يستجدونهم المساعدة على علي بن أبي طالب، كعب بن المسور والأحنف بن قيس والمنذر بن ربيعة، ولكنهما لم يجدا في أجوبة الثلاثة ما يشجعهما على المضي في طريقهما ومع ذلك فقد تحرك موكب الناكثين بقيادة طلحة والزبير وعائشة باتجاه البصرة يحف به الطامعون والحاقدون الذين تستروا

1- كبرت كلمة تخرج من أفواههم الّا كذباً.

بالثأر لعثمان لتحقيق أطماعهم وانتزاع السلطة من أصحابها الشرعيين كما تؤكد ذلك جميع مواقفهم....

وجاء في الكامل لابن الأثير ما يشير إلى ذلك أيضاً: فقد قال إنّ مروان بن الحكم وقف على طلحة والزبير وقال: على أيكما أسلم بالأمرة وأؤذن للصلاة؟ فقال عبد الله بن الزبير على أبي، وقال محمد بن طلحة على أبي، ولما سمعت عائشة ما دار بينهما أرسلت إلى مروان وقالت له مالك أتريد أن تفرق بينهما: ليصلّ بالناس ابن أختي عبد الله فكان يصلي بهم حتى قدموا البصرة.... وقال معاد بن عبيد الله لو ظفرنا وانتصرنا على علي بن أبي طالب في وجهنا هذا سنقتتل فيما بيننا لأنّ الزبير لا يتركها لطلحة وطلحة لا يتركها للزبير.......

وقال لهما شخص ممن كان معهما: أخبراني وأصدقاني إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر قالا: لا نجعله لأحد أينا اختاره الناس.... فقال لهما: يجب أن يكون لولد عثمان لأنكم خرجتم تطلبون بدمه فقالا: لا ندع شيوخ المهاجرين ونسجله لأيتام عثمان....

وروى الطبري في تاريخه وابن قتيبة في الإمامة والسياسة وغيرهما أنّ القوم بينما هم يسيرون في طريقهم إلى البصرة وإذا بكلاب على الماء تعترض جمل عائشة وتنبحه فسألت عائشة أي ماء هذا؟ فقالوا لها: إنّه الحوأب. فقالت إنّا لله وإنّا إليه راجعون إني لهيه وما أراني الّا راجعة إلى المدينة فقالوا: ولما ذاك يا أم المؤمنين... قالت سمعت رسول الله(ص) يقول لنسائه: كأني بإحداكن تنبحها كلاب الحوأب... والتفت إليّ وقال: إياك أن تكونيها يا حميراء فقال لها محمد بن طلحة: تقدمي رحمك الله ودعي هذا القول فأصرت على موقفها فأحضر جماعة من الأعراب فشهدوا لها زوراً بأنّ هذا الماء ليس بالحوأب.... وجاءها عبد الله بن الزبير فحلف لها بأنهم قد اجتازوه من أول الليل[2]....

2- وما يهم الناكثين إذا أشهدوا الناس بالزور أو حلفوا كذباً ما دام كل ذلك يصب في مصلحتهم....

كما روى ابن قتيبة أن القوم لما نزلوا بأوطاس من أرض خيبر أقبل عليهم سعيد بن العاص ومعه المغيرة بن شعبة فنزل سعيد عن راحلته وأتى عائشة وقال لها: أين تريدين يا أم المؤمنين؟ فقالت أريد البصرة فقال لها وما تصنعين بها؟ قالت: أطلب بدم عثمان قال: هؤلاء قتلة عثمان معك[3]، والتفت إلى مروان ابن الحكم وأعاد عليه السؤال الذي وجهه إلى عائشة وقال له: إنَّ قتلة عثمان معكم. والله ما قتله إلا طلحة والزبير وهما يريدان الأمر لأنفسهما....

والتفت المغيرة بن شعبة إلى الناس وقال: إن كنتم خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خير لكم وإن كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان، وإن كنتم نقمتم على علي بن أبي طالب شيئاً فبيّنوا ما نقمتم عليه.... ومضى يقول على حد زعم الراوي: أنشدكم الله فتنتين في عام واحد فلم يسمع لهما أحد ولحق سعيد بن العاص باليمن والمغيرة بالطائف ولم يشهدا حرب الجمل وصفين مع أحد من الفريقين[4].....

وقبل أن تصل عائشة ومن معها البصرة أرسل عثمان بن حنيف أبا الأسود الدؤلي وعمران بن حصين وأوصاهما أن يقابلا القوم قبل دخولهم البصرة عسى أن يكف الله شرهما وكان أبو الأسود المتكلم الأول مع طلحة فقال له: إنكم قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا في قتله وبايعتم علياً غير مؤامرين لنا في بيعته فلم نغضب لعثمان إذ قتل ولم نغضب لعلي إذ بويع فأردتم خلع علي ونحن على الأمر الأول فعليكم المخرج مما دخلتم فيه،.... وتكلم بعده عمران بن حصين بما يشبه ذلك، وكان جواب طلحة لهما كما يدعي المؤرخون: إنَّ

3- وهذا يدل على أنّ تكونهم لم يكن من أجل المطالبة بدم عثمان ولكن من أجل العداء لسيدنا علي ومن أجل طمعهم في الحكم.

4- وعندي أكثر من الشك في هذه الرواية لأنّ المغيرة بن شعبة لم يترك فتنة إلا وكان من مثيريها أو شريكاً في إثارتها كما يبدوا ذلك لمن تتبع الأحداث التي وقعت في عصره وكان شريكاً لطلحة في التحريض على عثمان وبعيد عليه أن يصارح الجيش الزاحف بهذا الأسلوب بحضور طلحة والزبير وأن يدافع عن علي (ع) بتلك الصراحة التي لا ترضي المنشقين عليه....

صاحبكم لا يرى أنّ معه في هذا الأمر غيره وليس على هذا بايعناه والله ليسفكنّ دمه.... فقال أبو الأسود لعمران: أنّ طلحة قد غضب للملك، ثم تكلما مع الزبير فقال لهما: أنّ طلحة وإياي كروح واحدة في جسدين وأضاف إلى ذلك: لقد كان لنا مع عثمان بن عفان فلتات احتجنا فيها إلى المعاذير ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرناه لنصرناه....

ثم أتيا عائشة فقالا لها: يا أم المؤمنين ما هذا المسير أمعك من رسول الله عهد بذلك؟ فقالت: إنّ عثمان قتل مظلوماً لقد غضبنا لكم من السوط والعصا أفلا نغضب لقتل عثمان فرد عليها أبو الأسود بقوله: وما أنت من عصانا وسيفنا وسوطنا وأنت حبيس رسول الله أمرك أن تقرّي في بيتك فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض.... فقالت: وهل أحد يقاتلني؟ فقال: أي والله لتقاتلين قتالاً أهونه الشديد....

وقال لها جارية بن قدامة السعدي مرة أخرى: يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، لقد كان لك من رسول الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك، وإن من رأى قتالك فقد رأى قتلك فإن كنت قد أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك وإن كنت مستكرهة فاستعيني بالناس، إلى كثير من المواقف التي وقفها جماعة من أهل البصرة وغيرهم مع طلحة والزبير وعائشة وباءت جهودهم بالفشل، ومضى القوم على موقفهم المتصلب حتى دخلوا البصرة فانضم إليهم جماعة منها بين طامع وحاقد وبين من التبس عليهم الأمر وغرّهم موقف عائشة زوجة النبي وابنة الخليفة الأول....

وجاء في رواية الطبري أنهم لما دخلوا البصرة جاءهم عثمان بن حنيف عامل أمير المؤمنين عليها وقال لهم: ما الذي نقمتم على علي حتى خرجتم عليه تقاتلوه فقالوا: لأنّه ليس أولى بالخلافة منّا وقد صنع ما صنع فقال لهم: إنّ الرجل أمرني أن أسألكم وأكتب إليه بجوابكم، وطلب منهم أن يصلي بالناس حتى يأتي جوابه فوافقوا على ذلك.... ومضى الطبري يقول: أنهم لم يلبثوا الّا

يومين حتى وثبوا عليه فقاتلوه وأخذوه أسيراً ولولا خوف الأنصار لقتلوه ومع ذلك فقد مثلوا به ونتفوا شعر حاجبيه ولحيته وأشفار عينيه....

وقال ابن قتيبة: أنَّ الغزاة اتفقوا مع عثمان بن حنيف وأنصاره بعد معارك حصلت بين الطرفين وتم الاتفاق بعدها على أنَّ لعثمان بن حنيف دار الإمارة والمسجد وبيت المال وأن ينزل أصحابه حيث شاؤوا في البصرة، وأنّ لطلحة والزبير ومن معهما أن يقيما في البصرة إلى أن يدخلها علي بن أبي طالب.... فإذا اجتمعت كلمتهم بعد دخوله واتفقوا كفاهم الله شرَّ الفتنة. وإن لم تتفق لكل فريق أن يصنع ما يريد، وانصرف عثمان بن حنيف إلى عمله وتفرق أنصاره في أعمالهم ومضت أيام قلائل عاد فيها الهدوء إلى المدينة والتزم فيها الطرفان بالاتفاق.... ولكن الغزاة قد استغلوا انصراف أنصار ابن حنيف إلى أعمالهم والتزامهم ببنود الهدنة فهاجموا دار الوالي في ليلة مظلمة ممطرة فقتلوا الحرس المحيطين بالدار ومن هبَّ لنجدتهم في سواد الليل حتى بلغ عدد القتلى أربعين رجلاً وقبضوا على الوالي فنتف مروان شعر وجهه ورأسه وتركوه أسيراً في أيديهم واستولوا على بيت المال بما فيه.... وأضاف إلى ذلك اليعقوبي في تاريخه أنّه لما جاء وقت صلاة الفجر تنازع طلحة والزبير على الصلاة وجذب كل منهما الآخر من المصلّى واستمر النزاع بينهما حتى كاد أن يفوت وقتها فصاح الناس الصلاة الصلاة يا أصحاب محمد فتدخلت عائشة بينهما واقترحت أن يُصلّي بالناس محمد بن طلحة يوماً وعبد الله بن الزبير يوماً وانتهى الخلاف على الصلاة عند هذا الحد....

وروى المسعودي في مروجه: أنَّ الغزاة قتلوا سبعين رجلاً من أنصار عثمان ابن حنيف منهم خمسون رجلاً قُتلوا بعد الأسر جزاً وجرحوا عدداً كبيراً من الناس حتى تم لهم الاستيلاء على السلطة بكاملها في المدينة......

ومهما كان الحال فالنصوص التاريخية التي تحدثت عن طلحة والزبير وعائشة ومن معهم من المنشقين عن أمير المؤمنين كلها متفقة على أنَّ موجة من السخط كانت تتحدى أولئك الغزاة وتضطرهم إلى التضليل والكذب والصاق

التهم بالخليفة الشرعي لتبرير مواقفهم المعادية له وأنَّ عثمان بن حنيف بصفته المسؤول عن الأمن والنظام وصاحب السلطة على البصرة وما يتبعها من المقاطعات كان حريصاً في جداله معهم ومواقفه منهم على أن يردهم لرشدهم قبل أن يورطوا الأمة في صراع رهيب تراق فيه الدماء وتتلف فيه الأموال ويقطف ثماره معاوية وأمثاله من أعداء الإسلام، ولكنهم أصرّوا على موقفهم وبالتالي غدروا به فأسروه وقتلوا جماعة من أنصاره واستقرت السلطة في أيديهم لفترة قصيرة من الزمن، ووجدوا من بعض الفئات تجاوباً معهم ودعماً لموقفهم.... كان وجود عائشة من بعض أسبابه لأنها زوجة الرسول وابنة الخليفة الراحل وللمرأة أثرها في إثارة الجماهير لا سيما إذا كانت تتمتع بمركز اجتماعي وشخصية قوية كمركز السيدة عائشة وشخصيتها....

وكان أمير المؤمنين (ع) بعد أن أحيط علماً بمواقف طلحة والزبير وعائشة وبمسيرتهم إلى البصرة وإعلانهم العصيان المسلح عدل عمّا كان يخطط من أجله لاستدراج معاوية أو قتاله إذا بقي مصراً على موقفه فاتجه نحو البصرة بجيش ضم وجوه المهاجرين والأنصار ممن اشتركوا مع النبي (ص) في بدر وأحد والأحزاب وأكثر مواقفه مع المشركين. ومضى يجد السير باتجاه البصرة وهو يأمل أن يدرك الغزاة المتمردين قبل دخولهم إليها وفي نفسه بقية من الأمل أن يتراجعوا عن غيّهم وينضموا إلى جماعة المسلمين واستقبله عامله ابن حنيف وقد مثل به القوم كما ذكرنا فكظم غيظه وواصل مسيرته حتى إذا أصبح قريباً منها توقف عن المسير وأرسل رسله إلى القوم يحذرهم من عواقب هذا التمرد ومن الفتنة التي لو استمرت قد تمتد إلى أقطار الدولة كلها فرفضوا الانصياع لنصائحه وأصروا على موقفهم، وخلال تلك المدة التي كان يحاور فيها المتمردين أرسل رسله إلى الكوفة ليستعين بها على تلك الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله.... وبعد جدال عنيف وحوار طويل بين الوالي عليها أبي موسى الأشعري وحاشيته من جهة وبين الحسن بن علي والأشتر وجماعة من أهل الكوفة من جهة ثانية تطوع عدد كبير من أهل الكوفة لمساعدة الإمام علي (ع) على المتمردين وانضموا إلى الجيش الزاحف معه من المدينة. ولما يئس من تراجع

القوم وأيقن أنهم مصممون على المضي في طريقهم مهما كانت التكاليف والنتائج زحف بمن معه من المسلمين إلى البصرة..... ثم بعث إليهم من يناشدهم الله في الدماء والأموال فلم يستجيبوا له وأصروا على القتال، ولكن علياً (ع) ظلّ يحافظ على السلم ويؤكد على أصحابه أن يلتزموا الهدوء والصبر ولا يباشروا القتال إيثاراً للعافية وإتمام الحجة وأملاً منه في اجتماع الكلمة، هذا وعائشة تحرض الناس عليه وهي على جمل يحف بها أنصارها وتقول:

(أيها الناس لقد غضبنا لكم من سوط عثمان وعصاه، أفلا نغضب لعثمان من السيف إلا أن خليفتكم قتل مظلوماً لقد أنكرنا عليه أشياء وعاتبناه بها فأعتب وتاب إلى الله وما يطلب من المسلم إن أخطأ أكثر من أن يتوب إلى ربه ويعتب الناس، ولكن أعداءه سطوا عليه فقتلوه واستحلوا الحرمات الثلاث: حرمة الدم والشهر الحرام والبلد الحرام....

ولما يئس أمير المؤمنين من التوصل إلى السلم بالمناظرة والحجة أمر أحد رجاله أن يخرج من بين الصفين وبيده مصحف يدعوهم إلى الرجوع إليه، وقد أخبره بأنّ الناكثين قد يرمونه بالنبل وهو يدعوهم إلى الرجوع لحكم الكتاب..... فلم يتردد الفتى ومضى بيده المصحف حتى إذا كان بين الصفين رفعه بكلتا يديه ووقف باتجاه عائشة وجندها ودعاهم إلى الرجوع إلى حكمه، فكان جوابهم أن رموه بسهامهم من كل جانب حتى وقع قتيلاً فحملوه إلى أمير المؤمنين فاسترجع وترحم عليه وأمر أصحابه أن يدنوا من القوم فزحفوا نحوهم يتقدمهم عمار بن ياسر ووجوه المهاجرين والأنصار فتوجه عمار بن ياسر وقال: أيها الناس ما أنصفتم نبيكم حيث صنتم عقائلكم في خدورها وأبرزتم عقيلته للسيوف، فرشقوه بالنبال فأصابت نبالهم أخاً لعبد الله بن بديل فقتل بها فحمله أخوه إلى أمير المؤمنين، كما أصيب آخر فقتل أيضاً واحتدمت المعركة بين الفريقين وبلغت أشدها وبقي شيء في نفس أمير المؤمنين أراد أن يذكرهم به عساهم يعودون عن غيّهم وضلالهم فخرج بين الصفين واستدعى طلحة والزبير فخرجا إليه وتوقفا ثلاثتهم بين المعركتين فقال لهم ألم تبايعاني، قالا

بايعناك كارهين ولست أحق بهذا الأمر منّا، ثم التفت إلى طلحة وقال له: أحرزت عرسك وخرجت بعرس رسول الله تعرضها لما تتعرض له، وقال للزبير: كنّا نعدّك من آل عبد المطلب حتى نشأ ابنك ابن السوء ففرق بيننا وبينك.... ومضى يقول أتذكر يوم قال لك رسول الله ستقاتله وأنت ظالم له فقال الزبير: الآن ذكرت ذلك ولو ذكرته قبل اليوم ما خرجت عليك.....

وهنا تختلف الروايات في موقف الزبير بعد هذا الاجتماع وهذا الحوار فبعضها ينص على أنَّ الزبير قد اعتزل القتال من ساعته ومضى حتى انتهى إلى المكان الذي قتل فيه، والبعض الآخر يذهب إلى أنّ ابنه عبد الله رأى منه فتوراً بعد اجتماعه إلى علي (ع) فعيّره بالجبن وقال له: رأيت رايات ابن أبي طالب وعلمت أنّ تحتها الموت فجبنت عن القتال وما زال به حتى أغضبه وأحرجه، فقال له: ويلك، إني حلفت أن لا أقاتله، فقال له ولده: وما أكثر ما يكفر الناس عن أيمانهم فاعتق غلامك وامض لجهاد عدوك، وكان الأمر كما أشار عليه ولده فكفر عن يمينه ومضى يقاتل ويشد على عسكر علي (ع) والناس معه وظل على موقفه وصلابته مع المقاتلين حتى سقط الجمل وانهزم جيشهم فانهزم مع المنهزمين فأدركه ابن جرموز وقتله على حين غفلةٍ منه وهذه الرواية أقرب إلى الصحة من الرواية الأولى، ذلك لأنَّ الزبير ما كان ليغفل عن حديث رسول الله (ص) وهو يعلم بأنه ظالم لعلي في كل تحركاته، وقد استحل دماء المسلمين في البصرة هو وزميله طلحة قبل دخول أمير المؤمنين إليها، وهما يعلمان بأنَّ ذلك لا يحل لهما، ولكن شهوة الحكم طغت عليهما فاستباحا كل شيء في سبيله، وما كانت تلك الكلمة التي قالها رسول الله (ص) قبل خمسة وعشرين عاماً لترده عن غيه وضلاله ما دامت تلك الألوف المحتشدة من حوله بحماسها واندفاعها تمنيه الانتصار على علي بن أبي طالب، وما دام معاوية يسميه أمير المؤمنين ويكتب إليه من الشام: من معاوية بن أبي سفيان إلى أمير المؤمنين الزبير بن العوام.....

وأمّا طلحة فقد أصيب في المعركة وتحامل على نفسه ولمّا فرّ أنصاره وجد مروان بن الحكم جواً مهيئاً لأن يثأر منه لعثمان فرماه بسهم أصاب عرقاً في أكحله فقطعه فنزف دمه ومات منه...

وجاء في بعض المرويات: أنَّ عبد الملك بن مروان كان يقول: لولا أنَّ أبي أخبرني بأنّه قد قتل طلحة ما تركت تيمياً الّا قتلته بعثمان....

ومجمل القول أنَّ الفريقين في تلك المعركة قد اقتتلا قتالاً ضارياً لم يشهد تاريخ البصرة قتالاً أشد ضراوة منه واستمر حتى أصبح أصحاب أمير المؤمنين على أبواب النصر وعائشة في هودجها تحرض الناس على القتال وتتحدث مع من هم على يمينها وشمالها ومن تزاحموا على خطام الجمل بكلمات تلهب مشاعرهم بالحماس، ثم تعود فتخرج يدها من الهودج تحمل بها بدرة من الدنانير وتصيح بأعلى صوتها: من يأتيني برأس الأصلع وله هذه البدرة، وأصحابها يندفعون على الموت وهم يرتجزون:

يا أمنا عائش لا تراعي كل بنيك بطل المصاع

وأصحاب أمير المؤمنين يحملون على أولئك الذين استماتوا حولها وراجزهم يقول:

يا أمنا اعف أم نعلم والأم تغذو ولدها وترحم

أما تري كم شجاع يكلم وتختلي منه يد ومعصم

واستمر الحال لفترة من الزمن لا يرى فيها الناس الّا أيدي تتناثر وأرجل تقطع وأجساد تتهاوى هنا وهناك وأولئك وهؤلاء يتسابقون إلى الموت وكان لا يأخذ بخطام الجمل أحد الّا قتل من دونه، ولما رأى علي (ع) هذا الموقف الرهيب راعه ما رأى وعلم أن المعركة لن تنتهي ما دام الجمل واقفاً على قوائمه فصاح بأصحابه: اعقروا الجمل فإنّ في بقائه فناء العرب فأمر ولده محمد بن الحنفية أن يحمل بمن معه على تلك الجموع المحتشدة حول جمل عائشة وكانت الراية بيده فأبطأ ابن الحنفية ليتقي سهام القوم ونبالهم التي اتجهت نحوه كالعواصف من كل جانب، فأتاه علي (ع) وقال له: هل حملت على القوم؟ فقال: لا أجد يا أمير المؤمنين متقدماً الّا على سهم أو سنان وأني منتظر نفاذ سهامهم فحمل بمن معه نحوهم ثم توقف، فأتاه أمير المؤمنين وضربه بقائم

سيفه وقال له: لقد أخذك عرق من أمك كما جاء في رواية المسعودي - وأخذ الراية منه وتقدم بها فحمل الناس معه، فكان القوم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، وتناوب بنو ضبة على خطام الجمل حتى قتل منهم جماعة فأمرهم بأن يعقروا الجمل، فلما عقروه هوى إلى الأرض وله ضجيج لم يسمع الناس بمثله على حد تعبير الراوي فتفرق من كان حوله كالجراد المنتشر وبقيت صاحبة الهودج وحدها في ميدان المعركة فقال لأخيها محمد بن أبي بكر ادرك أختك حتى لا تصاب بأذى، فأقبل يشتد نحوها وأدخل يده في هودجها وقال لها: أنا أخوك أقرب الناس منك وأبغضهم إليك، يقول لك أمير المؤمنين هل أصابك شيء؟ فلم تتكلم، ثم جاءها أمير المؤمنين فوقف على هودجها وضربه بقضيب كان في يده وقال: يا حميراء، ألم يأمرك رسول الله أن تقري في بيتك، والله ما أنصفك الذين صانوا عقائلهم وأبرزوك، وأمر أخاها فأنزلها في دار صفية بنت الحرث بن أبي طلحة العبدي...

وانتهت المعركة بهزيمة المتمردين وسقوط طلحة والزبير قتيلين مع آلاف القتلى من الطرفين .... وحاول بعض أنصاره قتل عائشة فأنكر عليه ووضعها تحت الحراسة الشديدة حتى لا يتعرض لها أحد بسوء وأمر من ينادي في أصحابه: لا تجهزوا على جريح ولا تتبعوا هارباً ولا تطعنوا مدبراً ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن....

ووقف (ع) بين قتلاه وقتلى المتمردين عليه في حالةٍ من القلق والتمزق، وبين خصومه وأنصاره رجال من الذين أبلوا بلاءً حسناً في الإسلام، لقد حزن من أجل هؤلاء الذين قتلهم وأولئك الذين قاتل بهم.ومن أجل الرسالة السامية التي تتعرض للفتنة في بداية عهد جديد تمنى أن يتفرغ لأهدافه التي كان يطالب بالخلافة من أجلها....

لقد حزن من أجل هذا العمى الذي أصاب فريقاً من المسلمين الذين قادتهم المطامع والأهواء إلى هذا المصير السيئ الذي لم يكن يتمناه لهم ولا لأحدٍ من

المسلمين، وحزن من أجل نفسه وقد وقفت قريش له بالمرصاد كما وقفت لابن عمه من قبل وقد كتب عليه أن يقاتلها على تطبيق الرسالة كما قاتلها هو وابن عمه رسول الله على تنزيلها....

وكان يتمنى أن يقاتل بهم أعداء الإسلام لتبقى الرسالة وتتجه في طريقها الصحيح وعاد يتأمل القتلى من الجانبين وقلبه يتصدع لهذا المشهد الذي وجد فيه رفاقه في الجهاد مع رسول الله صرعى أطماعهم وأهوائهم، وجعل يترحم على هؤلاء ثم صلى عليهم وأذن لذوي القتلى بدفن قتلاهم ولم يفسح المجال لأحد ممن وترهم طلحة والزبير بأولادهم وإخوانهم وعشائرهم أن يأخذوا من أموال المنهزمين إلا ما وجدوه في المعركة من أسلحة وأمتعة كانوا يحاربون بها وأمرهم برد بقية الأموال لأصحابها وقال: ليس في هذه الحرب مغنم لمنتصر... وأرسل من ينادي في البصرة من عرف شيئاً له فليأخذه...

وجاء في بعض المرويات أنَّ جماعة من أصحابه أرادوا الاستيلاء على جميع متروكات المتمردين وألحوا عليه أن يسمح لهم بذلك كما اعتادوه في حروبهم ومعاركهم فأجابهم بأنَّ بين الأسرى أمكم عائشة فمن يأخذها في سهمه....

وسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح فالمتيقن أنّه عفا عن الجميع ولم يسمح لأحدٍ أن يأخذ من مال المتمردين شيئاً وبلا شك لو أنَّ الغلبة كانت لعائشة وجيشها لمثلوا بجثث القتلى من أنصاره وأباحوا لجيشهم جميع أموال المنهزمين وحتى نسائهم وأولادهم ولم يتركوا وسيلة من وسائل الإرهاب والعنف الّا ارتكبوها....

إنَّ أمير المؤمنين (ع) في جميع معاركه التي خاضها مع أخصامه الذين انشقوا عليه لم يحاربهم ليصنع انتصار جيش على جيش بالسلاح والعتاد كما كان يصنع أخصامه، بل كان يحارب ليصنع جيشاً من المسلمين يستعين به على إحقاق الحق وعلى الظلم والظالمين والطغاة المستبدين وتركيز المبادئ الإسلامية في النفوس لتصبح وكأنها غريزة أو فطرة، ولذلك لما دخل البصرة لم يترك وسيلة من الوسائل الّا واستعملها مع المتمردين رغبة في الصلح والسلام وجمع الكلمة، ولما يئس منهم وانتهت المعركة التي فرضت عليه

بهزيمتهم بكى وتصدع قلبه ولم يدخل البصرة بعد انتهاء المعركة يزهو الفاتح المنتصر على أخصامه لأنّه لم يحقق الأهداف التي كان ينشدها ويحارب من أجلها....

ولنرجع إلى رواية ابن أبي الحديد عن مقتل عثمان وحرب الجمل مختصرة قال (ج9 - ص29) فلما قتل عثمان أرادها طلحة وحرض عليها - فلولا الأشتر وقوم معه من شجعان الحرب جعلوها في علي لم تصل إليه أبداً - كما كان يتمنى عمر بن الخطاب - فلما فاتت طلحة والزبير فتقا ذلك الفتق العظيم على عليّ (ع) وأخرجا عائشة معهما وقصدا العراق وأثارا الفتنة وكان من حرب الجمل ما قد عرفت وعلمت وما ستعلم إن شاء الله.....ثم كانت حرب الجمل مقدمة وتمهيداً لحرب صفين فإنَّ معاوية لم يكن ليفعل ما فعل لولا طمعه بما جرى في البصرة ثم أوهم أهل الشام أنَّ علياً (ع) قد فسق بمحاربته عائشة ومحاربة المسلمين وأنّه قتل طلحة والزبير وهما من أهل الجنة ومن يقتل مؤمناً من أهل الجنة فهو من أهل النار - فهل كان الفساد المتولد في صفين الّا فرعاً للفساد الكائن يوم الجمل....

ثم نشأ من فساد صفين وضلال معاوية كل ما جرى من الفساد والقبيح في أيام بني أمية وبني العباس، ونشأت فتنة ابن الزبير فرعاً من فروع الدار لأنّ عبد الله بن الزبير كان يقول: إنَّ عثمان لما أيقن بالقتل نصّ عليّ بالخلافة ولي بذلك شهود منهم مروان بن الحكم.... أفلا ترى كيف تسلسلت هذه الأمور فرعاً عن أصل وغصناً من شجرة وجذوة من ضرام هكذا الفساد يدور بعضه على بعض وكله من الشورى في الستة.... ونحن نعقب على قول ابن أبي الحديد فهل كان الفساد المتولد في صفين إلا فرعاً للفساد الكائن يوم الجمل فنقول وهل كان الفساد المتولد يوم الجمل الّا فرعاً للفساد الكائن يوم الشورى وهل كان الفساد المتولد عن انقلاب السقيفة الّا فرعاً عن غصب علي حقه المنصوص عليه من الله ورسوله وتقديم من لا يساويه ولا يدانيه عليه حتى طمع

في خلافة المسلمين من يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم. وقد أظهروا بألسنتهم الإسلام وكتموا في قلوبهم النفاق وتربصوا بالدين وأهله الدوائر حتى إذا سنحت لهم الفرص بادروا إلى غايتهم مسرعين وتعصبوا على الباطل متكاتفين وتعاقدوا على أن لا يدعوا هذا الأمر يصل لصاحبه الشرعي مهما كلفهم الأمر جهاداً وتضحية وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون....

ومهما كان الحال فقد انتهت معركة البصرة بقتل اثنين من قادتها الناكثين وانتهى كل شيء بعد الهزيمة التي منيت بها عائشة وجندها المخدوع ولاذ الباقون - على قيد الحياة - من مدبري الفتنة بالفرار وأخذت الحياة الطبيعية تعود إلى المدينة تدريجياً، ورجع الناس إلى أمير المؤمنين يجددون له ولاءهم وبيعتهم وبايعه من لم يكن قد بايعه من أهلها بالأمس ولم يكن لدى أمير المؤمنين ما هو أولى بالعناية من إرجاع عائشة إلى بيتها في المدينة فأرسل عبد الله بن العباس كما يروي صاحب العقد الفريد وغيره، وقال له: ائت هذه المرأة لترجع لبيتها الذي أمرها الله أن تقرّ فيه فجاءها ابن عباس واستأذن عليها فأبت أن تأذن له فدخل عليها بلا إذن منها ومدَّ يده إلى وسادة وجلس عليها، فقالت له: أخطأت السنة مرتين، دخلت بيتي بدون إذني وجلست على متاعي بدون أمري فقال لها: نحن علّمناك السنة يا عائش والله ما هو بيتك الذي أمرك الله أن تقرّي فيه، إنّ أمير المؤمنين يأمرك أن ترحلي إلى بلدك الذي خرجت منه....

ولم تشأ أن تخفي حقدها على أمير المؤمنين حتى وهي أسيرة في يديه وبالرغم من إعزازها وتكريمها فردت عليه بقولها: رحم الله أمير المؤمنين ذاك عمر بن الخطاب.... فقال ابن عباس نعم وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أيضاً قالت: أبيت أبيت، قال: ما كان إباؤك الّا فواق ناقة بكية ثم حلت لا تحلين ولا تمرين ولا تأمرين ولا تنهين، قال ابن عباس: فبكت حتى علا نحيبها ثم قالت: نعم أرجع فإنّ أبغض البلدان إليّ بلدٌ أنتم فيه فقال لها ابن عباس

والله ما كان ذلك جزاؤنا منك إذ جعلناك للمؤمنين أماً وجعلنا أباك لهم صدّيقاً، فقالت أتمنّ علي يا ابن عباس برسول الله (ص) فقال لها: نعم نمنُّ عليك بمن لو كان منك بمنزلته منا لمننت به علينا...

ويروي الرواة أنها بعد أن استقرت بالمدينة وجاءها الناس للسلام عليها كانت تبكي حتى تبل خمارها وتقول ليتني مت قبل اليوم وأحياناً تقول: ليتني مت قبل يوم الجمل بعشرين عاماً.... وبلا شك فإنَّ بكاءها ونحيبها لم يكونا بدافع التوبة والرجوع إلى الله من تلك المواقف المشينة في تاريخ المرأة العربية والإسلام، بل لأنها فشلت في معركتها وفقدت قادة جيشها ولم تحقق غير الخزي والعار.... وخرج منها علي (ع) منتصراً وأقوى مما كان عليه قبل خروجها إلى البصرة وهذا ما لا تطيقه السيدة عائشة....



علي (ع) في طريقه إلى الكوفة

لم أجد في ما بين المصادر ما يشير إلى أنَّ أمير المؤمنين كان يفكر في ترك المدينة حين خروجه منها إلى البصرة وأنَّه كان يعزم على أن يتّخذ الكوفة وغيرها من الأمصار مقراً لحكومته بدلاً من المدينة، ولا أظنّ أنَّ ذلك كان في حسابه أو حساب أحد من الناس، ولكن التطورات التي حدثت بعد المعركة فرضت عليه ذلك، فبعد أن تفرق المتمردون وأرجع السيدة عائشة إلى بيتها الذي أمرها الله ورسوله أن تقرَّ فيه وجدّد الناس بيعتهم له في البصرة واستتب فيها الأمن ولاّها ابن عمه عبد الله بن عباس وخرج منها بعد شهر أو شهرين من انتهاء المعركة على أبعد التقديرات متّجهاً نحو الكوفة ليتخذها مقراً له....

وهنا يختلف المؤرخون في الدوافع التي فرضت عليه ذلك، فبعضهم يرى أنّ الأشتر النخعي وغيره من زعماء الكوفة أرادوه على ذلك وألحوا عليه فنزل عند رغبتهم، ويرى آخرون بأنَّ الثائرين الذين يسمّيهم الطبري وبعض المؤرخين بالسبئية تعجلوا الخروج من البصرة إلى الكوفة فاضطروه أن يلحق بهم مخافة أن يفسدوا فيها ويخلقوا له فتنة كالتي كانت في البصرة.

وجاء في بعض المرويات أنَّ علياً (ع) لما ولى أبناء عمه العباس الأمصار الثلاثة وجعل على البصرة عبد الله وعلى اليمن عبيد الله وعلى الحجاز قثم بن العباس أنكر عليه مالك بن الأشتر ذلك وقال له: علام قتلنا الشيخ بالأمس[7]

7- انظر إلى هذا الدس الرخيص إذ أنهم يقولون هكذا ليبرؤا عثمان من حمل ذوبه على رقاب الناس وهم الطلقاء أبناء الطلقاء وليسوا كحبر الأمة وأخوته.

وارتحل مسرعاً إلى الكوفة وفي نفسه شيء من هذا التصرف فاضطر أمير المؤمنين إلى أن يتّخذها مقراً له مخافة أن يقوم ابن الأشتر وغيره بما يسيء إلى الأمن والنظام الجديد إلى غير ذلك مما قيل في أسباب هجرته إلى الكوفة.... والظاهر أنّ ذلك كله لا يمت إلى الواقع بصلة من الصلات ذلك لأنّ أسطورة السبئية على تقديرها قد انتهت مهمتها في البصرة وحققوا أهدافهم كما يزعم بعض الكتاب، ولا مصلحة لهم في إيجاد فتنة في الكوفة بعدما صارت الأمور في البصرة إلى ما يريدون كما يزعم بعض المؤرخين، ولم يكن ابن سبأ بعيداً عن علي (ع) كما يدّعون ليشاغب عليه في الكوفة.

وأمّا حديث غضب مالك بن الأشتر من تولية أولاد العباس بن عبد المطلب فهو من صنع الرواة أيضاً لأنَّ مالك الأشتر رحمه الله أرفع شأناً من أن يكون من دعاة الفتنة أو ممن يشاغبون على أمير المؤمنين وقد صح عنه أنّه قال: كان لي مالك كما كنت لرسول الله وهو يعرف مكانتهم في الإسلام وإخلاصهم للنظام الجديد وحرصهم على أن تسير الأمور حسب التخطيط الذي يريده الإمام (ع)....

وعندما نلاحظ الظروف الحرجة والأحداث القاسية التي واجهت خلافة علي (ع) يمكن أن نستخلص السبب الذي دعاه إلى ترك المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية واختيار الكوفة بديلاً لها، لأنَّه قبل العصيان المسلح الذي قام به الحلف الثلاثي كان يعد العدة لإرسال جيش قوي إلى الشام يتولى قيادته بنفسه لإقصاء معاوية عنها، ولمّا تمرّد عليه طلحة والزبير واجتمع إليهما الطامعون والموتورون من الأمويين وغيرهم، وخرجوا من الحجاز يريدون البصرة ومعهم زوجة النبي عائشة أدرك أنَّ تغاضيه عنهم يشكل خطراً على الأمة لا يقل عن خطر معاوية، فأرجأ أمر معاوية ريثما يسوي حسابه معهم ويفوت عليهم الفرصة التي كانوا يحلمون بها، وبالطبع خلال تلك المدة كان معاوية قد استعد استعداداً كاملاً، ووجد في تمرد المنشقين عنه في الحجاز فرصة لإنجاح خطته فانقاد إليه أهل الشام وأظهروا غضبهم لعثمان وحرصهم على الطلب بدمه من علي وأصحابه وألحوا عليه في ذلك وهو مع ذلك يتأنى ويتخذ

التدابير الكافية لكل الاحتمالات، وكان مع ذلك يطمع في العراق ويرسل إلى زعمائها وقادة الجيوش من يمنيهم ويغريهم حتى انقاد إليه جماعة منهم كل ذلك لم يغب عن علي (ع) وقد وضعه في حسابه فآثر أن يكون على مقربة من معاوية فاختار الكوفة نظراً لمركزها العسكري وقربها من الحدود التي تفصل بين البلدين.

ويرى جماعة من المؤرخين أنَّ علياً (ع) دخل الكوفة في أواخر رجب من سنة ست وثلاثين للهجرة فاستقبله أهلها بحفاوة بالغة، وخلال الأشهر الباقية من تلك السنة كان يستعد لحرب معاوية ووجد حماساً وتجاوباً من أهل الكوفة يبعث على الأمل والاطمئنان، فالذين اشتركوا معه في حرب الناكثين يريدون أن يضيفوا نصراً إلى نصر، والذين تخلفوا عنه يريدون أن يعوضوا عن تخاذلهم عنه في معركته مع الناكثين في البصرة، وكلهم كانوا يلحون عليه ليغزو أهل الشام قبل أن يتحرك معاوية لغزوهم، ومع ما وجده عندهم من الحماس والاستعداد الكامل فقد أبى أن يتحرك من الكوفة قبل أن يعيد الكرة على معاوية ويرسل السفراء والكتب يدعوه إلى الطاعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون اتماماً للحجة ولكي يكون من معه على بينة من الأمر، فلم يستجب لطلبه وأظهر الشدة والصلابة والصلف في رسائله وجاء في بعضها:

(لقد عرفنا ذلك في نظرك الشزر وقولك الهجر وتنفسك الصعداء وإبطائك عن الخلفاء وفي كل ذلك تقاد كما يقاد الفحل المخشوش، ولم تكن لأحد منهم أشد حسداً منك لابن عمك عثمان وكان أحقهم ألا تفعل به ذلك لقرابته وفضله فقطعت رحمه وقبحت حسنه وأظهرت له العداوة وأبطنت له الغش وألَّبت الناس عليه حتى ضربت الآباط إليه من كل مكان، وقد بلغني أنَّك تنتفي من دم عثمان فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته نقتلهم به....)

وكانت أكثر رسائله لا تتعدى هذا الأسلوب الجلف المليء بالتحدي الصلف والاستخفاف والاستفزاز....

وما كان معاوية ليجرؤ على موقفه هذا ويخاطب أمير المؤمنين بهذا

الأسلوب لولا حركة التمرد التي قام بها المتمردون في البصرة ولولا أنّه وجد بين زعماء العراق من يستجيبون له ويعملون في الخفاء لصالحه...

وكان لا بد لأمير المؤمنين (ع) أن يرد على رسائل معاوية وتفنيد مزاعمه وأكاذيبه ولكن بالأسلوب الذي يتناسب مع خلقه الكريم ومثاليته التي ظهرت في كل أقواله وأفعاله.....

فقد جاء في جوابه على رسائل معاوية التي اتهمه فيها بالحسد والبغي على الخلفاء والاشتراك بدم عثمان: (وزعمت أني للخلفاء حسدت وعلى كلهم بغيت، فإن كان ذلك كذلك فليست الخيانة عليك ليكون العذر لك، وتلك شكاة ظاهر عنك عارها، وقلت أني أقاد كما يقاد الفحل المخشوش حتى أبايع، فلعمر الله لقد أردت أن تذم فمدحت وأن تفضح فافتضحت وما على المسلم من غضاضة أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه ولا مرتاباً في يقينه، وهذه حجتي إلى غيرك قصدها ولكن أطلقت منها بقدر ما سنح لي ذكرها، وأمّا ما كان من أمري وأمر عثمان، فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه، فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله، أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفّه، أمن استنصره فتراخى عنه وبثّ المنون إليه حتى أتى قدره عليه، وما كنت لأعتذر من أني كنت أنقم عليه أحداثاً، فإن كان الذنب إليه إرشادي وهدايتي له فرب ملوم لا ذنب له وقد يستفيد الظنة المتنصح وما أردت الّا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي الّا بالله...) وكان معاوية قد قال له في بعض رسائله متهدداً ومتوعداً ليس لك ولأصحابك الّا السيف، فردّ عليه أمير المؤمنين (ع) في رسالة ثانية بقوله:

(وأمّا ما ذكرت من أنّه ليس لي ولأصحابي الّا السيف، فلقد أضحك بعد استعبار متى ألفيت بني عبد المطلب عن الأعداء ناكلين وبالسيوف مخوفين فالبث قليلاً يلحق الهيجا جمل وسيطلبك من تطلب ويقرب منك ما تستبعد وأنا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان شديد زمامهم ساطع قتامهم متسربلين سربال الموت أحب اللقاء إليهم لقاء

ربهم قد صحبتهم ذرية بدرية وسيوف هاشمية قد عرفت مواقع نصالها بأخيك وخالك وجدك وأهلك وما هي من الظالمين ببعيد...) ويدعي المؤرخون أنّ الرسائل توالت بين الإمام علي ومعاوية بن هند. هذا ومعاوية يحاول في رسائله تضليل الرأي العام فيكثر من ذكر عثمان وقتلته ويطلب اعتزال الإمام وإعادة الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا لأنفسهم ونحو ذلك من المكر والخداع والمغالطات.....

في حين أنه إذا كان غضبه لعثمان كما يدعي فعليه أن يبايع أولاً ثم يحاكم القتلة إلى الخليفة الشرعي إذا فوضه أولياء الدم بذلك، وبدون ذلك فليس له أي صفة تخوله المطالبة بدم عثمان حتى ولو كان قد قتل مظلوماً، كما جاء في بعض أجوبة الإمام عليه...... إنّ أطماع معاوية في الخلافة لم تكن لتخفى على أحد، ولم يكن الجيش الذي أعدّه وهيأه الّا ليحارب من يتولى الخلافة كائناً من كان. ولو قدر لطلحة والزبير أن يربحا معركة البصرة ويتولى أحدهما الأمر لوقف منه نفس الموقف الذي وقفه من علي (ع) وفي الوقت ذاته كان يأتي إلى علي (ع) يستنهضه عليهم لإثارة الفتنة كما جاء أبوه إلى أمير المؤمنين يوم بايع الناس أبا بكر لقد كان يضلل الناس بدعوته إلى إعادة الأمر شورى بين المسلمين بعد أن يقتص من قتلة عثمان وبلا شك فإنّ الشورى التي كان يدعو إليها معاوية لا تعود إلى المهاجرين والأنصار من أهل الحجاز والعراق عنده، لأنّ الأمر قد خرج من أيديهم على حد زعمه كما يبدو ذلك من بعض رسائله إلى أمير المؤمنين حيث جاء فيها (وقد أبى الناس الّا قتالك حتى تدفع لهم قتلة عثمان فإن فعلت كانت الشورى بين المسلمين، وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام فأهل الشام. وحدهم إذن يختارون الخليفة لأنّهم الحكام على الناس كما يزعم ابن أبي سفيان وبلا شك عندما يكون الاختيار لهم وحدهم لن يختاروا غير معاوية لا سيما وقد حشد حوله جميع الحاقدين والطامعين كبني أمية وعمرو ابن العاص بعد أن وعده بولاية مصر يتصرف بخيراتها كما يشاء إذا تمكن من الاستيلاء على السلطة ودفع له ثمنها دينه بكامله في حين أنّ كلاً منهما كان يسيء الظنّ بالآخر ويحقد عليه كما كان يظهر من مجالسهما أحياناً...

فقد جاء في الآداب السلطانية لابن الطقطقي أنّ معاوية قال يوماً لبعض جلسائه: ما أعجب الأشياء فأدلى كل من الجالسين برأيه وكان معهم عمرو بن العاص فقال: أعجب الأشياء أن يغلب المحقَ المبطلُ معرّضاً بالصراع الذي دار بين علي ومعاوية ففهم قصده معاوية وأدرك أنّه يعنيه وحده بذلك فرد عليه بقوله: أعجب الأشياء أن يُعطى الإنسان ما لا يستحق لا سيما إذا كان مما لا يخاف منه.....

وله موقف آخر يدل على أنّه لم يكن يرى معاوية على شيء وأنه لم يتردد في حق علي وفضله لحظة واحدة من الزمن ولكن المصلحة كانت عنده فوق كل شيء.... فقد روى المؤرخون أنّ معاوية لما استولى على مصر أخذ يماطل ابن العاص في الوفاء بما عاهده عليه فبعث إليه ابن العاص بقصيدة يقول فيها:

معاوية الفضل لا تنس لي	وعن منهج الحق لا تعدل
نصرناك من جهلنا يا ابن هند	على السيد الأعظم الأفضل
وما كان بينكما نسبة	فأين الحسام من المنجل
وأين الثريا وأين الثرى	وأين معاوية من علي

هذه الفلتات التي كانت تظهر منهما بين الحين والآخر تؤكد أنّ الطرفين لم تجمعهما المودة ولا مصلحة الأمة، بل جمعتهما الأطماع والمنافع. ولذا فإنهما على استعداد لأن يتوسلا بكل شيئ لتحقيق الهدف الذي كان يشد كلا منهما إلى الآخر في حين أنّ خصمهما لم يكن هدفه الّا الحق. ولم يقاتل أحداً لولاه، ولا يمكن أن يستعين عليه بالمظلمين والمبطلين وأن يركب غير طريقه. وسواء عليه بعد ذلك أدركه أم لم يدركه فحسبه أنّه جاهد من أجله وحتى لو قتل تحت رايته فذلك في نظره الفوز المبين ونصر للمثل التي تبقى منارة الأجيال ما بقي الدهر....

ومجمل القول أن الرسائل والرسل التي دارت بين الفريقين لم تنته إلى ما كان يحاوله من اجتماع كلمة الأمة، ولم يبق لديه الّا السيف ليقول كلمته وجمع معاوية ما يزيد على مائة ألف مقاتل من أهل الشام وقادهم يقطع

الأرض نحو العراق، ولما بلغ أمير المؤمنين خبره جهّز جيشه واتجه به إلى خارج الحدود العراقية ليقطع الطريق على معاوية وأنصاره قبل أن يدخلوا العراق ويعبثوا في أرضها وأهلها قتلاً ونهباً وفساداً.

معركة صفين وما رافقها من أحداث

ونزل معاوية ومن معه عند نهر الفرات في وادي صفين واستولى على الماء ونزل أمير المؤمنين في ذلك الوادي الفسيح أيضاً في مكان لا يبعد عنه كثيراً، وحال معاوية بين أهل العراق والماء، ومنعهم أن يشربوا منه ولو قطرة واحدة فأضرّ بهم وبدوابهم العطش وأرسل إليهم أمير المؤمنين (ع): إنّا لم نأت هذه الأرض لنسيطر على الماء والكلأ ولو سبقناكم إليه لم نمنعكم منه.... ويدعي بعض الرواة أنّ العاص حاول أن يقنع معاوية بأن يخلي بينهم وبين الماء ولكن معاوية أصرّ على موقفه وقال: هذا والله أول الظفر لا سقاني الله إن شربوا منه حتى يغلبوني عليه، وصاح أصحابه من كل مكان والله لا تذوقون منه قطرة حتى تموتوا عطشاً..... هذا وعلي على ما يبدو كان كارهاً للحرب بهذه السرعة ويود أن يعود إلى محاولاته السابقة التي تهدف إلى جمع الكلمة وإتمام الحجة، ولكن موقف معاوية وأنصاره من الماء اضطره إلى استعمال القوة لإنقاذ عشرات الألوف ممن كان معه من الموت عطشاً، فأرسل الأشتر النخعي في كتيبة من عسكره فاستبسلوا استبسالاً لا نظير له واستعادوا الماء من أهل الشام في ساعات قليلة، فوقف ابن العاص موقف الشامت في معاوية لأنّه لم يقبل نصيحته كما جاء في رواية ابن قتيبة وقال: ما ظنّك يا معاوية لو منعك علي بن أبي طالب من الماء كما منعته أنت، أتراك ضاربهم كما ضربوك، ومضى يقول: إنّ علياً لا يستحل منك ومن جيشك ما استحللتم منه.... إنّ ابن العاص ومعاوية يعرفان علياً جيداً ويعلمان بأنّه لا يمكن أن يقدم على العقوبة وهو يجد للعفو محلاً وليس من خلقه أن يمنع الماء – وهو من المباحات

العامة - عن أحد من المخلوقات، ولا هو ممن يطلب النصر بالجور كما يطلبه ابن هند وأمثاله من الحاكمين، لذلك كان ابن العاص ومعاوية على ثقة بأنّ علياً سيبيح لهم الماء ولو كان ذلك سبباً لانتصارهم عليه....

لقد حاول بعض أصحابه إقناعه بأن يقابلهم بالمثل ويعاملهم كما عاملوه ولو لفترة من الزمن فأبى عليهم أشد الإباء، وأتاح لأخصامه الذين تددوه قبل ساعات قليلة بالموت عطشاً ورود الماء أسوة بأصحابه....

وهذه البادرة الكريمة وحدها تكفي أهل الشام لو كان عندهم شيء من الخلق الكريم أن يدركوا حقيقة كل من الرجلين وأنهم بمناصرتهم لمعاوية إنما يناصرون الشر على الخير والباطل على الحق والطغيان على العفو والتسامح والرحمة....

وبقي الجيشان على مواقفهما ينهلان من الماء على قدم المساواة وهو يواصل جهوده ومساعيه كعادته للسلام ويفتح لأهل الشام وقادتهم قلبه وصدره فلم يفلح في مسعاه هذا ومعاوية يأمرهم بسبه وشتمه ولما سمعهم أهل العراق سبوا معاوية وجعلوا يتراشقون بالسباب والشتائم، فأمرهم أمير المؤمنين بالكف عن ذلك وقال: إني أكره لكم أن تكونوا قوماً سبابين،ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر وأضاف إلى ذلك قولوا مكان سبكم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به....

ولما استبطأ أصحابه إذنه لهم بالقتال واتهمه بعضهم بالتردد في أمر أهل الشام وبعض آخر بالجبن قال: فوالله ما أبالي أدخلت على الموت أو خرج الموت إلي وأما قولكم اشكاً في أهل الشام: فوالله ما دفعت الحرب يوماً الّا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشو على ضوئي وذلك أحبّ إليّ من أن أقاتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها.... ثم قال: اللّهم إنّك تعلم لو أني أعلم أنّ رضاك في أن أضع ظبة سيفي في بطني ثم أنحني عليه حتى يخرج من ظهري لفعلت اللّهم إني لا أعلم عملاً صالحاً هذا اليوم هو أرضى لك من

جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو كنت أعلم عملاً هو أرضى لك منه لفعلت.......
ومضى يقول: اللّهم رب هذه الأرض التي جعلتها قراراً للآنام ومدرجاً للهوام وما لا يحصى مما يرى ومما لا يرى ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق اعتماداً إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي وسددنا بالحق وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة يا أرحم الراحمين....

وكان لا بدَّ وأن يأذن لأصحابه بالقتال بعد أن استفزهم واستدرجهم إليه أهل الشام عشرات المرات وأوقعوا في صفوفهم عدداً من القتلى فأذن لهم واحتدم القتال بين الطرفين بضراوة لم يشهد لها تاريخ المعارك مثيلاً....

ولا أريد أن أخوض في تفاصيل تلك المعارك التي استمرت شهوراً وذهب ضحيتها أكثر من مائة ألف من المسلمين غرر بهم ابن هند وابن النابغة حتى وردوا ذلك المورد السيء لا أريد أن أخوض بالتفاصيل ففي مجاميع التاريخ التي تعد بالعشرات ما يريده القارئ من أخبارها الطوال التي أضاف إليها المحبون والمبغضون من الفريقين ما لم يكن. وأكتفي بالقول: بأنّه كان بين الفريقين قتالاً بلغ أقصى حدود العنف والضراوة... لقد تقدم أمير المؤمنين ومعه من بقي حياً من المهاجرين والأنصار يتقدمهم عمار بن ياسر وصحابة الرسول الأبرار نحو أهل الشام وعمّار ينادي بصوت يسمعه أهل الشام: والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أننا على الحق وأنهم على الباطل ومضى يستقبل الطعن والضرب بصدره ونحره ثم يقف بين الصفين ويرفع كلتا يديه ويقول: اللّهم لا أعلم عملاً أرضى إليك من جهاد هؤلاء القوم ولو كنت أعلم عملاً أحب إليك من جهادهم لفعلته وقد تضعضع الكثير من أتباع معاوية لموقف عمار وعزيمته الصادقة على مواصلة الكفاح حتى النهاية، لأنَّ مقالة الرسول لم تعد خافية على أحد من وجوه المسلمين، وقد تداولها الناس فيما بينهم وكأنها آية منزلة، (طوبى لعمار تقتله الفئة الباغية، عمار مع الحق يدور معه كيفما دار) وها هو عمار إلى جانب علي بن أبي طالب يقاتل بحزم وعناء ويقول: لا أعلم عملاً أرضى إليك من جهاد معاوية وأنصاره، فمعاوية ومن يساعده من البغاة بحكم – رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، والقرآن

الكريم يأمر المسلمين بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله كما جا في الآية ﴿وإن طائفتان من المسلمين اقتتلا فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾. فهو إذن يقاتلهم بحكم القرآن، هذه الأفكار قد اعترضت الكثيرين ممن غرر بهم معاوية وابن العاص واستبدت بهم الحيرة وها هو صوته العالي يدوّي في كل أنحاء المعركة الرواح إلى الجنة عباد الله تقدموا فداء لكم أبي وأمي لقد أخبرني حبيبي رسول الله أنّ آخر شرابي من الدنيا ضياح من لبن وتقتلني الفئة الباغية. وكاد أن يتضعضع جيش معاوية ويدب فيه التخاذل وبخاصة عندما رأوا ذي الكلاع الحميري بمن معه من عشيرته وأحلافها يحاولون أن يتجنبوا المعركة ما دام عمار بن ياسر إلى جانب علي بن أبي طالب.....

وبلغ معاوية ما يدور في أوساط جيشه من أحاديث الرسول في عمار فاستدعى إليه وزيره ابن النابغة واستشاره في الخروج من تلك الأزمة، فاجتمع إلى ذي الكلاع وغيره من قادة الجيش، وأقسم لهم بأنّ عمار بن ياسر سيعود إلى صفهم في النهاية وطلب منهم مواصلة القتال بانتظار الأيام القادمة التي سيرون فيها ابن ياسر تحت راية معاوية، فسكنت لذلك نفوسهم على خوف ووجل وتوالت الأيام والحرب تشتد يوماً بعد آخر وأمير المؤمنين (ع) ينصبُّ بمن معه على جيش الشام انصباب الموت الصاعق لا يضرب أحداً الّا أورده النار ولا يستقبله أحد من مثيري الفتنة الّا ولّى عنه جباناً يتقيه بسوأته إذا لم ينجه الفرار وانجلت المعركة في يوم من الأيام عن عمار بن ياسر صريعاً برمح أبي العادية الجهني وعن ذي الكلاع الحميري صريعاً في نفس اليوم فأشرق لذلك وجه معاوية وقال: والله لو بقي ذو الكلاع حياً بعد مصرع عمار لمال بعامة العسكر إلى علي بن أبي طالب.

وحدث بعض الرواة عن مولى لعمر بن الخطاب أنّه قال: كنت في المعارك الأولى بصفين مع معاوية بن أبي سفيان وكان أصحابه يقولون: لا والله لا نقتل عمار بن ياسر وإن قتلناه فنحن كما يقولون، فلما قتل جئت ابن العاص وقلت له: ما سمعت من رسول الله (ص) في عمار قال: سمعته يقول: تقتله الفئة الباغية فقلت هو ذا مقتول فلم يصدق حتى رآه بعينه فامتقع لونه ثم

أعرض بوجهه وقال: لقد قتله من جاء به وعرضه للقتل[1] فأخذها منه معاوية وراح يرددها بين أصحابه.... وأحياناً يقول أترى أنّ رسول الله لقد عنانا بالفئة الباغية أولسنا نحن الذي نبغي دم عثمان ونثأر له. فاطمأن لقوله جماعة وبقي آخرون على ترددهم وحيرتهم، إلّا أنّ العصبيات القبلية لعبت دورها في استمرار المعارك لفترة طويلة بين الطرفين وملّها الفريقان حتى كانت المعركة الكبرى التي استمرت أكثر من أسبوع ليلاً ونهاراً واستبسل فيها أهل العراق فلم يبق لأهل الشام حق إلّا انهار ولا جمرة إلّا أطفئت، وبلغ عدد القتلى من الطرفين أكثر من ستين ألفاً كما يدعي بعض المؤرخين، وأوشك جيش العراق أن يحتل مضارب معاوية ويقبض عليه حياً فدعا بفرسه لينجو عليه، هذا وأمير المؤمنين في مقدمة أصحابه لا يستقبل جماعة إلا تضعضعت أركانهم وولوا هاربين....

وحدّث ابن قتيبة في الإمامة والسياسة أنّ علياً (ع) نادى بالرحيل في جوف الليل فلما سمع معاوية رغاء الإبل دعا إليه ابن العاص وقال له: ما ترى ههنا؟ قال أظن الرجل هارباً، فلما أصبحوا وإذا بعلي وأصحابه إلى جانبهم قد خالطوهم فأشار على معاوية برفع المصاحف على رؤوس الرماح فرفعوها ودعوا الناس إليها طمعاً في إيقاف القتال الذي أوشك أن يقضي على أهل الشام بكاملهم، وارتفعت الأصوات من ناحية معاوية: يا أهل العراق هذا كتاب الله بيننا وبينكم فهلموا إلى العمل فمن لذراري أهل الشام وثغورهم بعد أهل الشام، ومن لذراري أهل العراق وثغورهم بعد أهل العراق ومن لجهاد الروم والكفار وفي ذلك يقول النجاشي:

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا   عليها كتاب الله خير قرآن

ونادوا علياً يا ابن عم محمد   أما تتقي أن تهلك الثقلان

1- يا أمة ضحكت من جهلها الأمم انظروا اللف والدوران والحيل والمخالطات وهكذا كانوا في أي نص صريح يحرجهم فيأولونه بما يسند تآمرهم وقضيتهم وكذا تنقلب المقاييس.

وجاء في رواية أنساب الأشراف: أنّ علياً لما رأى المصاحف مشرعة على رؤوس الرماح قال: والله ما هم بأصحاب قرآن ولكنّهم أرادوها مكيدة وخدعة. وبلغهم ما فعلت من رفع المصاحف لأصحاب الجمل ففعلوا مثله ولم يريدوا ما أردت، فلا تنظروا إلى فعلهم وامضوا على يقينكم ونياتكم....

وبعد أن أشرفت المعركة على الانتهاء لصالح أمير المؤمنين واستعد معاوية للفرار، لولا أنّ بعض العرب قد ناشده الصبر والتريث، في تلك الفترة الرهيبة استعمل ابن العاص مكره وذكاءه وأمر برفع المصاحف والرجوع إلى حكمها كما رفعها أمير المؤمنين في البصرة - ولكن ما أبعد ما بين الحالتين - أنّ علياً(ع) قد رفع المصاحف بين الصفين في معركة البصرة بعد أن جادلهم وبذل كل تلك المحاولات دعاهم إلى تحكيم الكتاب والعمل بما يفرضه عليهم ليتقي الحرب ونتائجها المريرة، في حين أنّه كان واثقاً من أنّ نتائجها ستكون لصالحه ولكنه لا يرى الانتصار بالعنف والقوة انتصاراً....

ووقف مع أهل الشام منذ أن دخل الكوفة موقف من يتقي الحرب ويتحاشاها وظل مدة من الزمن يتصل بهم بالمراسلة والرسل ويحذرهم من نتائج القتال وما يتركه من الآثار السيئة على المسلمين، وضرب لهم - حين استولى على الماء - أروع الأمثلة في العفو والتسامح وأباح الماء لهم ولأصحابه على السواء لأنّه صاحب رسالة يريد انتشارها وطالب حق يريد أن يطيع الناس عليه، أمّا معاوية فكان يحارب للسلطة وحدها وبنفس الروح التي كان يحارب بها أبو سفيان وزوجته هند وأسرته الأموية رسالة محمد بن عبد الله ولذا فإنه لم يدع إلى الكتاب والرجوع إليه ولا رفعه على المصاحف إلّا بعد أن أكلته الحرب وقضت على آخر أمل له في الانتصار، ومع ذلك فإنه لم يدع إليها ليرجع إلى حكمها بل ليستعيد أنفاسه ويسعى لتمزيق جيش العراق بأسلوب جديد من مكره وخداعه بعد أن عجز عن تمزيقه بجيشه وعتاده، وتم له ذلك فما أن شاعت دعوتهم إلى حكم الكتاب بين أهل العراق حتى ارتفعت أصوات الخونة من هنا وهناك تعلن الموافقة على الهدنة والرجوع إلى حكم الكتاب وكأنهم مع من رفعوا المصاحف على ميعاد....

وكان الأشعث بن قيس من أشد أولئك المتحمسين للتحكيم ووقف القتال ومن المعروفين بميولهم لمعاوية وله تاريخ حافل بالفتن والتقلبات، فلقد أسلم في حياة النبي (ص) وارتد بعد وفاته مع المرتدين وحارب المسلمين يوم ذاك، وبعد هزيمة المرتدين عاد إلى المدينة وأعلن فيها تدينه ورجوعه إلى الإسلام، وصاهر أبو بكر على أخته أم فروة، وأهمله عمر بن الخطاب وعاد إلى الظهور في عهد عثمان فولاّه بعض المقاطعات، وعزله علي (ع) عنها وبقي معه في الكوفة ولكنه كان يراقب تصرفاته بحذر. وله مواقف وأخبار يرويها المؤرخون عنه تؤكد أنّ أمير المؤمنين لم يكن يطمئن إليه في شيئ من أموره، هذا بالإضافة إلى غيره ممن كان معاوية يغريهم بالوعود ويمدهم بالأموال الطائلة مما أتاح لبادرته هذه أن تلقي تأييداً واسعاً من قادة العراق وتضطره بعد حوار طويل وجدال عنيف أحدث توتراً في صفوف العراقيين إلى النزول على حكمهم وقبول التحكيم.

وتؤكد النصوص التاريخية أنّ عدداً كبيراً من جند العراق كان يمد بصره إلى معاوية ويطمع في عطائه.... فلقد جاء في شرح النهج أنّه لما اشترط عك والأشعريون ما اشترطوا على معاوية من الفريضة والعطاء وأعطاهم ما يريدون، لم يبق أحد من أهل العراق في قلبه مرض الاّ طمع في معاوية وشخص ببصره إليه حتى فشا ذلك في الناس إلى كثير من هذه الأرقام التي يجدها الباحث هنا وهناك، هذا بالإضافة إلى أنّ جيش العراق كان خليطاً من العراقيين والحجازيين والبصريين، وفيهم من كان عثماني الرأي، بل كان بينهم جماعة من المنهزمين في معركة البصرة، وهؤلاء لم يقاتلوا معه بدافع الإيمان بحقه والرضى بحكومته، بل كانوا واجدين عليه لأنّه وترهم بإخوانهم وعشائرهم في البصرة وكان قادة هؤلاء على صلة بمعاوية بواسطة عملائه المنتشرين في العراق....

وجاء في بعض المرويات أنّهم خلال أيام السلم وفي شهر المحرم بالذات من تلك السنة كانوا يختلطون مع أهل الشام ويتعارفون ويتشاورون في أمورهم وما انتهى إليه حالهم بل كان بعضهم يتصل مباشرة بمعاوية وابن العاص كما يدل على ذلك ما جاء في شرح النهج عن سفيان بن عاصم بن كليب الحرثي

عن أبيه عن ابن عباس أنّه قال: حدثني معاوية أنّه في اليوم الذي كاد ان يقع فيه أسيراً بيد الجيش العراقي وقد جيئ له بفرس أنثى بعيدة البطن عن الأرض ليهرب عليها، وفيما هو يهم بذلك إذ أتاه آت من أهل العراق وقال له: إني تركت أصحاب علي (ع) في مثل ليلة الصدر من منى، فأقمت عند ذلك وعدلت عن الفرار، وامتنع معاوية أن يخبره بالرجل الذي وصف له حالة الجيش على حد تعبير الراوي..... ومن غير البعيد بعد هذه الملابسات أن لا تكون فكرة رفع المصاحف والدعوة إلى التحكيم وليدة الهزيمة التي أوشك جيش معاوية أن يلتجئ إليها، بل كانت نتيجة مؤامرة سابقة قد اتفق عليها معاوية وابن العاص والأشعث بن قيس ومن على شاكلته من الخونة والحاقدين والطامعين من أهل العراق خلال الأيام الأولى من المعركة أو خلال شهر المحرم الذي توادعا فيه عن القتال بقصد تقسيم الجيش وإيقاع الفتنة فيه عندما يتعسر عليهم التغلب على جيش علي بقوة السلاح وقد تم لهم ذلك فما أن رفع أهل الشام مصاحفهم على رؤوس الرماح وتنادوا بالرجوع إليها حتى تعالت الأصوات من كل جانب تطلب وقف القتال والرجوع إلى حكم الكتاب بالرغم من إصرار أمير المؤمنين على مواصلة الحرب وتحذيرهم مما تنطوي عليه الخديعة من النتائج السيئة. ومما يرجّح أنّ رفع المصاحف كان متفقاً عليه ومدروساً مع تلك الفئات بقصد تقسيم الجيش عندما يعجز جيش الشام عن التغلب عليه مما يرجح ذلك أنّ الذين تنادوا بالتحكيم من كل جانب وأجبروا علياً عليه رجعوا عنه بعد كتابة الصحيفة وشهروا سيوفهم في وجه أمير المؤمنين وطالبوه برفضه بعد إبرامه فقال لهم: ويحكم أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع أليس الله يقول: وأوفوا بعهد الله ويقول: وأوفوا بالعقود ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وكان الأمر كما يريدون ومما يرجح ذلك أيضاً انقسام الجيش بتلك السرعة وإصرار أكثر قادته على وقف القتال وقبول التحكيم مع أنهم على أبواب النصر....

فقد جاء في تاريخ اليعقوبي: أنّ الأشعث بن قيس ومعه اليمانية قال لأمير المؤمنين: والله لتجيبنّهم على ما دعوا أو لندفعنّك إليهم برمتك - وكان معاوية قد استماله ودعاه إلى نفسه فقال أمير المؤمنين: أيها الناس أنا أحق من أجاب

إلى كتاب الله. ولكن معاوية وابن العاص وابن أبي معيط وابن سرح وابن مسلمة ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أني أعرف بهم منكم صحبتهم صغاراً ورجالاً فكانوا شر صغار وشر رجال ويحكم إنها كلمة حق أريد بها باطل، إنها المكيدة والخديعة أعيروني سواعدكم ساعة فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق الّا أن يقطع دابر الذين ظلموا....

وكان جوابهم أن أحاط به نحو عشرين ألف مقاتل مقنعين بالحديد وهم يقولون: أجب القوم وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنّها إن لم تجبهم إلى ما يريدون إلى غير ذلك من المرويات الكثيرة التي تشير إلى أنّ الكثرة الغالبة من جيشه وقفت نفس الموقف الذي وقفه ابن الأشعث وأصحابه، ولم يبق معه ممن ينقادون إليه الّا القليل من بني هاشم وخلص أصحابه وقد صرّح هو بذلك أيضاً من جوابه للخوارج حينما قالوا لعبد الله بن عباس: لقد رجعنا عنه يوم صفين ولم يضربنا بسيفه وحكم الحكمين فقال في جواب مقاتلهم هذه كما جاء في اليعقوبي: لقد كنتم عدداً جماً يوم ذاك وكنت أنا وأهل بيتي في عدة يسيرة....

وكان أمير المؤمنين في هذا الموقف أمام خيارين لا ثالث لهما: إمّا المضيّ بالقتال ومعنى ذلك أنّه سيقاتل ثلاثة أرباع جيشه وأهل الشام وستكون النتيجة التي يريدها ابن العاص، وربما ليس ببعيد أن تنتهي المعركة بالقضاء عليه وعلى من معه من أهل بيته والصفوة المختارة من أصحابه... وإمّا القبول بالتحكيم وهو أقل الشرين خطراً وضرراً فاختار التحكيم بعد أن تكشّفت له النتائج على واقعها وكان أحب إلى معاوية وابن العاص في ذلك الظرف بالذات أن يختار القتال لأنه أشد ضرراً عليه وعلى من معه من ذويه وبنيه وصفوة أصحابه....

فالقبول بالتحكيم إذن كان نتيجة حتمية لظروف قاهرة لا خيار لأمير المؤمنين به بحال من الأحوال وقد أكثر الرواة حول ما دار فيه بين الفريقين من جدل ومناظرات لا يعنينا منها أكثر من الإشارة العابرة لنصل إلى ما وراءه من أحداث فقد استفاد منها معاوية وحققت له ما يريد.... لقد اتفق الطرفان على

مبدأ التحكيم واتفق أهل الشام على أن يفاوض عنهم ابن العاص، أمّا أهل العراق فقد اختلفوا أشد الاختلاف، ولم يكن وارداً عند أمير المؤمنين - أبو موسى الأشعري - بحال من الأحوال لأنه كان منحرفاً عنه ولم يشترك معه في المعارك التي انتهت إلى هذه النتيجة. واختار هو وجماعة من أصحابه أحد الثلاثة عبد الله بن العباس أو الأشتر أو الأحنف بن قيس أمّا الكثرة الغالبة التي استجابت لفكرة التحكيم منذ أن طرحها معاوية فقد اقترحوا الأشعري وأصروا عليه بحزم وصلابة في حين أنّ خطره على أمير المؤمنين لا يقل عن خطر ابن العاص وغيره من المنافقين مما يرجح أنّ الذين وضعوا فكرة التحكيم قد اختاروه لتمثيل أهل العراق منذ البداية وأنها بكل فصولها كانت نتيجة لمؤامرة تضم أكبر عدد من جيش العراق كما ذكرنا، وبالتالي لقد اضطر أمير المؤمنين على النزول على حكمهم في اختيار الأشعري كما اضطروه إلى قبول التحكيم ولم يجد بديلاً عنه الآ الحرب وبلا شك فإنّ نتائجها لغير صالحه واجتمع الطرفان على تسجيل اتفاقهما في كتاب يتضمن اختيار الحكمين والرجوع إلى كتاب الله وتحديد الزمان والمكان اللذين يتم فيهما اجتماع الحكمين وتوفير الأمان لهما خلال ممارستهما للمهمات الموكولة لهما....

وجاء عن أبي موسى الأشعري كما في الاستيعاب لابن عبد البر أنّه أسلم قبل هجرة النبي إلى المدينة ورجع إلى بلاده وأقام بها. إلى أن كانت معركة خيبر في السنة السابقة للهجرة، فالتحق بالنبي هو وجماعة من الأشعريين والنبي لا يزال في خيبر في الوقت الذي رجع فيه جعفر بن أبي طالب من الحبشة. فظن قوم أنّه كان من المهاجرين إليها على حد تعبير الراوي وقد ولاّه عمر بن الخطاب البصرة لما عزل المغيرة بن شعبة عنها، فلم يزل بها إلى أن عزله عثمان بن عفان عنها وولاها عبد الله بن عامر بن كرن فسكن أبو موسى في الكوفة فلما ثار أهلها على سعيد بن العاص وأخرجوه منها كتبوا إلى عثمان أن يولي عليها أبا موسى فولاه الكوفة، وعزله عنها أمير المؤمنين (ع) بعد أن وقف منه موقفه المشهور. فكان واجداً وحاقداً عليه وقال فيه قولاً سيئاً كما يذهب لذلك بعض المحدثين، وأضاف إلى ذلك أنّه كان ليلة العقبة مع الذين اعترضوا

وجاء عن سويد بن غفلة أنّه قال: كنت مع أبي موسى الأشعري على شاطئ الفرات في خلافة عثمان فروى لي عن رسول الله (ص) أنّه قال: إنَّ بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل الخلاف بينهم حتى بعثوا حكمين ضالين ضلا وأضلا من اتبعهما، ولا ينفك أمر هذه الأمة حتى يبعثوا حكمين ضالين ويضلان من اتبعهما، فقلت له: احذر يا أبا موسى أن تكون أحدهما فخلع قميصه وقال: ابرأ إلى الله من ذلك كما أبرأ من قميصي هذا ومضى الراوي يقول: ولقد صدقت فيه نبوءة رسول الله (ص) فلقد كان حكماً لأهل العراق فضلَّ وأضلّ من اتبعه.... ومهما كان الحال فقد جاء في شرح النهج لابن أبي الحديد أنهم حينما شرعوا في كتابة بنود الاتفاق كتب الكاتب هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان فقال معاوية بئس الرجل أنا إن أقررت أنّه أمير المؤمنين ثم قاتله وقال ابن العاص: بل تكتب اسمه واسم أبيه ولما أصرّ أهل العراق على ما كتب قال إنّه أميركم وليس بأميرنا، فأعادوا الكتاب إلى أمير المؤمنين وأخبروه بذلك. فأمره بمحوه، فقال له الأحنف لا تمح اسم أمير المؤمنين عنك فإني أتخوف إن محوتها لا ترجع إليك أبداً، فقال أمير المؤمنين (ع) ما أشبه هذا اليوم بيوم الحديبية، حين كتب الكاتب هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو، فقال له سهيل لو أعلم أنّك رسول الله لم أخالفك، وإني إذاً لظالم لك أن منعتك أن تطوف في البيت الحرام وأنت رسوله، ولكن اكتب بدلاً من ذلك محمد بن عبد الله فقال لي رسول الله: يا علي إني لرسول الله وأنا محمد بن عبد الله ولن تمحى عني الرسالة إذا كتبت لهم محمد بن عبد الله فامح ما أراد محوه، أما أنَّ لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهد.... وفي رواية ثانية أنَّ ابن العاص رجع بالكتاب إلى معاوية وطلب من أمير المؤمنين محو ما كتبه، فقص عليه ما كان يوم الحديبية بين رسول الله وبين المشركين وقال: إنّ ذلك الكتاب أنا كتبته بيننا وبين المشركين واليوم أكتبه إلى أبنائهم كما كتبه رسول الله إلى آبائهم شبهاً ومثلاً، فقال له ابن العاص: يا سبحان الله أتشبهنا بالمشركين ونحن مسلمون، فقال (ع) يا ابن

النابغة ومتى لم تكن للكافرين ولياً وللمسلمين عدواً، فقام عمرو بن العاص وهو يقول: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد اليوم فقال أمير المؤمنين: والله إني لأرجو أن يظهرنا الله عليك.... وتم الكتاب بين الطرفين ووقعه من كل منهما عشرة من قادتهم ووجوههم، ويتلخص مضمونه كما يصفه الرواة بأن يقفوا عند أحكام الله ويرجعوا إلى حكم الكتاب فيما يختلفون فيه، وإلى سنة رسول الله فيما لم يجدوا حكمه في الكتاب والتزام علي ومعاوية ومن يتبعهما من المؤمنين والمسلمين بما يحكم به الحكمان، ويصلح الحكمان بين الأمة ولا يرداها إلى فرقة أو حرب وأن يجتمع الحكمان في مكان بين الشام والحجاز، وأن لا يحضر معهما إلا من أرادوه وأن يعمل الطرفان على توفير الجو المناسب لهما خلال اجتماعهما وفيما بعده، وتكاد المرويات كلها تتفق على هذا المحتوى ما عدا بعض الاختلافات البسيطة التي لا تتنافى معه ولم يرد في المرويات ما يشير إلى موضوع الصراع بين الطرفين بوضوح كامل في الصحيفة التي وقعها الطرفان، في حين أن أسباب الصراع واضحة للجميع لا لبس فيها ولا غموض، لأن معاوية كان قبل معركة الجمل يطالب بمحاكمة أولئك الذين قتلوا عثمان أو بتسليمهم إليه ليتولى القصاص منهم، وبعد تمرد عائشة وطلحة والزبير تعزز موقفه وأصبح يطالب بإعادة الخلافة شورى بين المسلمين على أن يكون له ولأتباعه رأي في ذلك وقد رد أمير المؤمنين على طلبه الأول بأن يدخل فيما دخل فيه المسلمون ثم يحاكم القوم إليه ليقتص لعثمان من قاتليه إذا أدينوا بجريمة توجب القصاص، ورد علي (ع) طلبه الثاني، بأنّ خلافته قد تمت بإجماع أهل الحرمين الذين بايعوا الخلفاء الثلاثة من قبله وبايعه - بالإضافة إلى أهل الحرمين جميع أهل الأمصار ما عدا الشام، على أنّ بيعة المهاجرين والأنصار وحدها تكفي لالزام الشاهد والغائب ولم يتخلف منهم سوى ثلاثة أو أربعة قد اعتزلوا الناس ولم يناصروا أحداً عليه وبقي على أهل الشام أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس، والّا كانوا من البغاة بحكم الإسلام والقرآن الذي أوجب قتالهم حتى يفيؤوا إلى أمر الله.....

فمن المتعين في مثل هذه الحالات أخذ هذه الأسباب بعين الاعتبار وتدوينها

ثم معالجة المشكل على أساسها في حين أنّ الصحيفة قد أهملتها ولم تتعرض لشيء منها ولا طرقها الحكمان خلال حوارهما كما يبدو ذلك من الروايات التي تحدثت عما دار بينهما، ويشير بعضها إلى أنّ إقصاء أمير المؤمنين عن الخلافة كان أمراً مفروغاً منه لدى الطرفين.... ولكن خلافهما كان على البديل فقد اقترح أبو موسى الأشعري عبد الله بن عمر بن الخطاب كما نصت على ذلك الروايات، فرد عليه ابن العاص بأنّ عثمان بن عفان قتل مظلوماً ومعاوية وليه، وتلا عليه الآية ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً، هذا مع العلم بأنّ الولي الذي تشير إليه الآية هو وارث المقتول فإن لم يكن له وارث فوليه الحاكم الشرعي، وعلي (ع) هو الحاكم يوم ذاك ولا أحسب أحداً يجهل هذه الحقيقة في حين أن أبا موسى لم يبد أي ملاحظة حول هذه الناحية. ومضى ابن العاص يغريه بالسلطة إن هو وافق معه على أن تكون لمعاوية كما جاء ذلك في المجلد الأول من شرح النهج وبعد حوار طويل بين الطرفين استطاع ابن العاص أن يخدعه فأظهر له موافقته على اقصائهما وترك الأمر للمسلمين يختارون لأنفسهم من يريدون، وكان ما أراده ابن العاص فخلع أبو موسى علياً وأثبت ابن العاص معاوية وانتهت مهزلة التحكيم على هذا النحو كما يرويها المؤرخون......

ولا أحسب أنّ أمير المؤمنين (ع) كان في غفلة عن نتائج هذا التحكيم وأنّه سيعزز موقف معاوية لا سيما وأنّ الحكمين ينظران إليه بنظرة واحدة. ونوايا ابن العاص نحوه ليست بأسوأ من نوايا أبي موسى الأشعري، ولكنه مع ما فيه من المخاطر فهو أقل ضرراً وخطراً من رفض التحكيم واستمرار القتال الذي ستكون نتيجته الحتمية وقوع أمير المؤمنين والقلة المخلصة من أصحابه بين عدوين من أشرس خلق الله معاوية وأنصاره من جهة وخونة جيش العراق من جهة ثانية، ولم تكن حركة بعض المتراجعين عن التحكيم بعد كتابة الصحيفة بالذات والتوقيع عليها الّا لجره إلى استئناف القتال في ذلك الجو المحفوف بالمخاطر، ولذلك فقد أبى عليهم وجعل يرفق بهم ويهدئهم ويدعوهم إلى اختيار ما فيه العافية ثم تعجل الخروج من صفين باتجاه العراق مخافة أن تتأزم الأمور وتضطره إلى ما لا يريد...... وقد نصت المرويات على أنّه قام في صفين بعد

إعلان الهدنة وكتابة بنود الاتفاق بيومين أو ثلاثة لا غير تفرغ فيها بعد ان اقنع المتراجعين عن التحكيم وهدأهم إلى دفن القتلى من أصحابه..... وخرج من صفين يريد الكوفة منطوياً على نفسه يتجرع آلام الخيبة ومرارة تلك الأحداث التي لا يقوى على تحملها أحد غيره من الناس...

الخوارج

لقد انتهت معركة صفين بعد الانتصار الساحق الذي حققه أمير المؤمنين بمؤامرة مدروسة واسعة الأطراف بتحكيم ابن العاص وأبي موسى الأشعري المعروفين بميولهما المعادية لعلي بن أبي طالب كما ذكرنا، ولو كانت فكرة التحكيم واختيار الحكمين بريئة كما حاول التاريخ أن يسدل عليها الثوب، لكانت النتيجة التي انتهى إليها الحكمان وحدها كافية لاخماد الفتنه وعودة الأمور إلى نصابها والتفاف الجيش بكامله حول قائده العظيم الذي بلغ القمة في تفكيره وسياسته الرشيدة التي عالج بها ذلك الوضع المتأذم والمحفوف بأشد الأخطار. ولكن المتآمرين ظلوا حتى بعد تلك النتائج التي لا يقرها عرف ولا دين ولا منطق يعيثون في الأرض فساداً واتخذت حركتهم بعد أن تحرك موكب الإمام من صفين شكلاً جديداً، فاعترفوا بخطئهم في قبول التحكيم واعلنوا توبتهم إلى الله وجاءوا إلى أمير المؤمنين يطلبون منه أن يتراجع ويتوب كما تابوا ويعود بهم إلى استئناف القتال في صفين، وبالطبع لقد كانت منهم هذه الردة محاولة يائسة فلم يستجب لطلبهم لعلمه- كما اعتقد- بأخطارها وسوء نتائجها، فانفصلوا عنه قبل أن يدخل الكوفة في مكان يدعى حروراء، ومن أجل ذلك سماهم المؤرخون بالحرورية...

ولما التجأوا اليها وأخذوا يعدون أنفسهم للحرب بعث إليهم أمير المؤمنين عبد الله بن العباس ليناظرهم عساهم يعودون عن ضلالهم، فقال لهم: مالذي نقمتم من أمير المؤمنين قالوا: لقد كان للمؤمنين أميراً فلمّا حكم في دين الله خرج عن الإيمان فليتب بعد إقراره بالكفر، فرد عليهم ابن عباس بقوله: لاينبغي

لمؤمن لم يشب إيمانه بشك أن يحكم على نفسه بالكفر، فقالوا: أنه قد حكم في دين الله فقال: إنّ الله أمرنا بالتحكيم في قتل الصيد بقوله: يحكم به ذو اعدل منكم، فقالوا: أنه قد حكم عليه فلم يرض فرد عليهم بأنّ الحكومة كالإمامة، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته وكذلك الحكمان لما خالفا حكم الله فسقاً ونبذت اقوالهما، فقال بعضهم لبعض: لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم، فإنّ هذا من القوم الذين قال الله فيهم إنهم قوم خصمون، وقال أيضاً: وتنذر به قوماً لدا واحجموا عن مناظرته ورجع ابن عباس إلى أمير المؤمنين وأخبره بما جرى له معهم فمشى إليهم بنفسه وقال لصعصعه بن صوحان العبدي: إئت القوم ودلني على الرجل المقدم فيهم، فقال له:هو يزيد بن قيس الأرحبي، ولما انتهى أمير المؤمنين إلى حروراء جعل يتخلل مضاربهم حتى صار إلى مضرب يزيد بن قيس فصلى فيه ركعتين، ثم خرج واتكأ على قوسه وأقبل على الناس وقال: هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة والتفت إلى القوم وقال: إنشدكم الله أعلمتم أحداً كان أكره للحكومة مني؟ قالوا: اللهم لا، قال اتعلمون بأنكم اكرهتموني حتى قبلتها، قالوا: اللهم نعم، قال: فعلام خالفتموني ونابذتموني، قالوا: إنا اتينا ذنباً عظيماً فتبنا إلى الله فتب إلى الله منه واستغفره نعد إليك فقال الإمام (ع) أني استغفر الله من كل ذنب، فاستجابوا إليه ورجعوا معه إلى الكوفة وكانوا بين الستة آلاف والعشرة آلاف حسب اختلاف المؤرخين، واستقروا في الكوفة مع إخوانهم وأهلهم....وخلال إقامتهم في الكوفة كانوا يحدثون بأنّ علياً قد رجع عن التحكيم وأصبح يراه ضلالاً، وينتظر أن يسمن الكراع وتجبى الأموال ليعود إلى حرب معاوية وأتباعه، وتحرك الأشعث وأمثاله من دعاة الفتنة والمؤامرة وخافوا أن تهدأ الأمور وتعود الحياة طبيعية صافية بين أهل الكوفة والإمام (ع) ويتفرغوا لحرب معاوية وأهل الشام بروح طيبة تحس بأنّ عليها أن تكفر عما كان منها، وعند ذلك لا تبقى لعملية التحكيم نتائجها المرجوة، فجاء إلى أمير المؤمنين (ع) وهو في ملأ من أهل الكوفة وقال: إنّ الناس قد تحدّثوا بأنّك رجعت عن الحكومة وأصبحت تراها ضلالاً وترى الإقامة عليها كفراً ومضى يشدد على أمير

المؤمنين لينتزع منه تصريحاً يستفز به أولئك الذين عادوا إلى الكوفة وانسجموا مع جماعة الناس، فأجابه كما يزعم المبرد في المجلد الأول من الكامل كما جاء في شرح النهج لابن أبي الحديد، أنّ من زعم بأني رجعت عن الحكومة فقد كذب ومن رآها ضلالاً فهو أضل، ومضى أبو العباس في الكامل يقول: إن القوم لما بلغتهم مقالة أمير المؤمنين مضوا إلى النهروان وأعلنوا العصيان والتمرد عليه - وإن كنت أشك في أصل هذا الحوار بين أمير المؤمنين والأشعث وأستبعد أن يقول الإمام كلمته هذه والشيء المتيقن هو أنهم اعتزلوا جماعتهم بتحريض من الأشعث ومن يحمل روحه ليشغل أهل الكوفة عن التهيؤ والاستعداد لحرب معاوية. وفي طريقهم وجدوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم لأنه كان على خلاف ما يعتقدون واستوصوا بالنصراني خيراً، وقال بعضهم لبعض احفظوا ذمة نبيكم.... ولقيهم عبد الله بن خباب وفي عنقه كتاب الله ومعه امرأته وهي في الشهر الأخير من حملها فقالوا له: إنَّ هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك. فقال لهم: أحيوا ما أحياه القرآن وأميتوا ما أماته، وفيما هم يحاورونه وإذا برجل منهم يتناول ثمرة سقطت من نخلة ويضعها في فمه فصاحوا به فلفظها وعرض لرجل خنزير فقتله فقالوا: هذا فساد في الأرض وأنكروا عليه قتله، ثم التفتوا إلى ابن خباب وقالوا: حدّثنا عن أبيك حديثاً سمعه من رسول الله فقال: سمعت أبي يقول: أنَّ رسول الله قال ستكون بعدي فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه يمسي مؤمناً ويصبح كافراً فكن عند الله المقتول ولا تكن القاتل.... فقالوا: ما تقول في أبي بكر وعمر وعلي قبل التحكيم وعثمان في السنين الست الأخيرة من خلافته، فأثنى عليهم خيراً، فقالوا: ما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة، فقال: إنَّ علياً أعلم بالله وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة، فقالوا: إنّك لا تتبع الهدى بل تتبع الهوى والرجال على أسمائهم ثم جروه إلى شاطئ النهر وذبحوه وجاءوا بزوجته فبقروا بطنها وذبحوها مع ولدها إلى جانبه.... ولما بلغ الإمام (ع) ما فعلوه مع ابن خباب وزوجته وفسادهم في الأرض سار إليهم في أصحابه وكان يستعد لحرب أهل الشام ولما انتهى إلى مكان قريب إليهم أرسل إليهم أن

يدفعوا قتلة الصحابي الجليل عبد الله بن خباب ومن قتلوه من المسلمين في طريقهم إلى النهروان فقالوا لرسوله: كلنا قتلة ابن خباب ولو قدرنا على علي بن أبي طالب ومن معه لقتلناهم. فمشى إليهم بنفسه وقال: أيتها العصابة إني نذير لكم أن تصبحوا لعنة هذه الأمة غداً وأنتم صرعى في مكانكم هذا بغير برهان ولا سنة، ألم تعلموا بأني نهيتكم عن الحكومة وأخبرتكم أنّ طلب القوم كان مكيدة وأنبأتكم بأنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وإني أعرف بهم منكم وهم أهل المكر والغدر فعصيتموني وأكرهتموني حتى وافقت على التحكيم بعد أن شرطت واستوثقت وأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحياه القرآن ويميتا ما أماته، ولما خالفا حكم الكتاب والسنة وعملا بالهوى نبذنا أمرهما وبقينا على أمرنا الأول وها أنا عائد إلى حرب معاوية وأتباعه، فقالوا: إنّا حيث حكمنا الرجلين أخطأنا وكفرنا وقد تبنا إلى الله من ذلك فإن شهدت على نفسك بالكفر وتبت كما تبنا فنحن معك ومنك وإلّا فاعتزلنا وإن أبيت فنحن منابذوك على سواء فقال لهم: بعد إيماني بالله وهجرتي وجهادي مع رسول الله أشهد على نفسي بالكفر، لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين، ويحكم بما استحللتم قتالنا والخروج من جماعتنا؟ فلم يجيبوه وتنادوا من كل جانب الرواح إلى الجنة وشهروا السلاح على أصحابه وأثخنوهم بالجراح، فاستقبلهم الرماة بالنبال والسهام وشد عليهم أمير المؤمنين وأصحابه فما هي الّا ساعات قلائل حتى صرعهم الله كأنّما قيل لهم موتوا فماتوا.....

وكان أمير المؤمنين (ع) قد أخبر أصحابه قبل المعركة بأنّه لا يقتل منكم عشرة ولا يفلت منهم عشرة وكان الأمر كما أخبرهم، فلم ينج منهم إلا تسعة أو ثمانية، ولم يقتل من أصحابه الّا تسعة كما روى ذلك أكثر المؤرخين.... وهنا يروي المؤرخون حديث المخدج المعروف بذي الثدية أحد القتلى في هذه المعركة، وكان النبي (ص) قد أخبر أمير المؤمنين بقتل الخوارج وقتل المخدج معهم لذلك فإنّه بعد انتهاء المعركة فتش عنه وألحّ في طلبه حتى وجدوه بين القتلى.

وجاء في الصحاح المتفق عليها على حد تعبير ابن أبي الحديد كما جاء في

المجلد الأول من شرح النهج أنّ رسول الله لما شرع في تقسيم الغنائم بعد انتهائه من معركة حنين قام إليه رجل من بني تميم يدعى ذا الخويصرة فقال له اعدل يا محمد، فقال: لقد عدلت وأعاد عليه التميمي قوله ثانية وثالثة وفي الثالثة ردّ عليه النبي (ص) بقوله: سيخرج من ضئضي هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يخرجون على حين فرقة من الناس تحقرون صلاتكم في جنب صلاتهم يقرأون القرآن فلا يتجاوز تراقيهم آيتهم رجل أسود مخدج اليدين إحدى يديه كأنها ثدي امرأة وأضافت رواية عائشة إلى ذلك، يقتله خير أمتي من بعدي....

وفي مسند أحمد بن حنبل عن مسروق أنه قال: قالت لي عائشة إنّك من ولدي ومن أحبّهم إليّ فهل عندك علم بالمخدج فقلت نعم: قتله علي بن أبي طالب على نهر يقال له النهروان فقالت ابغني على ذلك بينة فأتيتها برجال عندهم علم بذلك، ثم قلت لها: أسألك بصاحب القبر ما الذي سمعته من رسول الله (ص) فيه قالت سمعته يقول: إنّ شر الخلق والخليقة يقتله خير الخلق وأقربهم عند الله وسيلة....

وفي رواية ثانية عنها: أنّه لما بلغها أنَّ علياً (ع) قد قتله قالت: لعن الله ابن العاص لقد كتب إلي يخبرني أنّه قتله بالاسكندرية، الّا أنه ليس يمنعني ما في نفسي[1] أن أقول ما سمعته من رسول الله لقد قال: يقتله خير أمتي من بعدي.....

وقد أجمعت الروايات على أنّ أمير المؤمنين قد اهتم بالبحث عنه ولمّا عجز أصحابه عن العثور عليه خرج بنفسه وما زال يبحث عنه حتى وجده فكبّر وكبّر معه أصحابه ثم قال: والله ما كذبت وما كذبت. وبلا شك أنّه لولا

1- إن ما في نفسها هو العداء والبغض لمولانا أمير المؤمنين (ع) ولقد كانت طول حياتها تحرّف الأحاديث الواردة في حق سيدنا علي ولكن الله يأبى الّا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون وهكذا نطقت بالحق رغم أنفها.

حديث الرسول (ص) عن هذه الفئة المارقة وعن ذي الثدية لما اهتم أمير المؤمنين ذلك الاهتمام البالغ به، ولما أخفاه ابن العاص عن السيدة عائشة وأخبرها بأنّه قتله في الاسكندرية خلال الفتح الإسلامي لمصر وأكتفي بهذه اللمحات عمن أسموهم بالخوارج وعدهم المؤرخون والمؤلفون في الفرق الإسلامية منذ أقدم العصور الإسلامية النواة الأولى لتلك الفرقة التي أقضت مضاجع حكام الدولة الأموية خلال قرن من الزمن تقريباً، وكانت حركتهم في العصر تتميز بالدعوة والمساواة والعدالة الاجتماعية ولهم آراء في أصول الإسلام وفروعه كانت مسرحاً للجدل والنقاش بين قادة الفكر والرأي عندما ظهرت آراء المعتزلة والمرجئة والقدرية والأشاعرة وغير ذلك في حين أنهم حينما خرجوا على أمير المؤمنين لم يكن لحركتهم أي ميزة على غيرهم من المتمردين عليه كطلحة والزبير ومعاوية وغيرهم ولم يكن لهم هدف خاص كما كان لمعاوية وطلحة والزبير، وما ينسبه لهم المؤرخون من الجدل حول التحكيم على أنهم من أنصاره في بداية الأمر ونتائجه لم يلتزم بها أمير المؤمنين إن صح يدل على أنهم كانوا في منتهى السذاجة والعفوية على أني لا أزال عند رأيي في أنّهم كانوا ضحايا المتآمرين على أمير المؤمنين بقصد إثارة الفتن في جيشه والهائه عن معاوية والرجوع لحربه وكان لمقتلهم آثاره السيئة في نفوس الكثيرين من أصحابه لأنّ القتلى كان أكثرهم ينتمي إلى عشائر الكوفة والبصرة، فليس بغريب إذا ترك قتلهم في نفوس من ينتمون إليهم ما يجده كل قريب لفقد قريبه.. ولما انتهى أمير المؤمنين منهم دبّ الوهن والتخاذل والخلاف بين أصحابه فجعل يحثهم على الخروج معه لحرب معاوية ويخطب فيهم المرة تلو الأخرى فلا يجد منهم الّا التخاذل والخلاف عليه فيقولون: لقد نفدت نبالنا وكلت أذرعنا ونصلت أسنة رماحنا وتقطعت سيوفنا فأمهلنا لنستعد فإن ذلك أقوى لنا على عدونا، واستمر على ذلك مدة من الزمن كان يدعوهم بين الحين والآخر للخروج إلى معسكرهم في النخيلة فلا يخرج الّا القليل الذي لا يغني شيئاً، هذا والأشعث بن قيس وشبث بن ربعي وأمثالهما لا همّ لهم الّا التخريب وبث روح التخاذل في النفوس وراح يضع في أذهان الجيش أنّ علياً

كان عليه أن يصنع مع أهل النهروان كما صنع عثمان، ويتغاضى عنهم وهم قلة لا يشكلون خطراً عليه، لقد قال الأشعث ذلك ليحدث تصدعاً في صفوف الجيش وليشحن نفوس من تربطهم بأولئك القتلى أنساب وقرابات بالكراهية والعداء لعلي (ع)... فقد جاء في كتاب علي بن أبي طالب لعبد الكريم الخطيب أنّ علياً(ع) خطب يوماً أصحابه وحثهم على الجهاد وأنبهم على تخاذلهم وقعودهم عنه وما أن انتهى من خطابه ينتظر ردّهم عليه حتى انبرى له الأشعث بقوله: يا أمير المؤمنين أفهلا فعلت كما فعل عثمان فقال له الإمام: وما فعل عثمان فقال: لقد أبى أن يلقى المشاغبين عليه بالقوة وأن يردهم عنه بالسيف حتى قتل فرد عليه الإمام بقوله: ويلك وكما فعل عثمان رأيتني فعلت عائذاً بالله من شر ما تقول والله إنّ الذي فعل عثمان لمخزاة على من لا دين له ولا حجة معه وأنا على بينة من ربي والحق معي ومضى يقول: والله إنَّ امرءاً أمكن عدوه من نفسه فنهش عظمه وسفك دمه لعظيم عجزه وضعيف قلبه ثم قال: إنت يا ابن الأشعث كن كذلك أما أنا والله دون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفية يطير له فراش الرأس وتطيح منه الأكف والمعاصم وتجذبه القلاصم ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء وسرت مقالة الأشعث بين الناس فزادتهم تخاذلاً وتصدعاً وأتيح لمعاوية أن يتصل بسراتهم ورؤسائهم أكثر من قبل وتحمل كتبه لهم الوعود والأماني ويقدم بين يدي الوعود والأماني العطايا والصلات يعجل لهم ما يرغبون في عاجلهم وما يغري قليله المعجل بكثيره الموعود حتى اشترى ضمائرهم وأفسدهم على إمامهم وجعلهم يعطونه الطاعة بأطراف ألسنتهم ويطوون قلوبهم على المعصية والخذلان.... ومجمل القول: لقد استطاع المتآمرون من أهل العراق أن يحققوا لمعاوية كل أطماعه وأن يشلوا حركة الإمام (ع) ويخلقوا له من المصاعب والمشاكل ما يشغله عن لقاء أهل الشام مرة ثانية فلم تنته معركة النهروان حتى ظهرت فلولهم في أكثر من ناحية في العراق، وتركت معركة النهروان في أهاليهم وقبائلهم أوتاراً لم يكن من السهل نسيانها لا سيّما وأنَّ أيدي المتآمرين ممن كانوا على صلة بمعاوية كانت تزودهم بالأموال والعتاد فيخرج الرجل ومعه المائة والمائتين فيضطر أمير

المؤمنين(ع) أن يرسل إليهم رجلاً من أصحابه ومعه طائفة من الجند فيقاتل المتمردين حتى إذا قتلهم أو شرّدهم عاد إلى الكوفة وقبل أن يستقر يخرج آخر بجماعة من المتمردين وهكذا كانت الحالة بعد معركة النهروان حتى خرج الخريت بن راشد وقد جاءه قبل خروجه وقال له: والله إني لا أطيعك ولا أصلي خلفك لأنك حكّمت الرجال وضعفت عن الحق.... فقال له: إذا تعصي ربك وتنكث عهدك ولا تضرّ الّا نفسك. ودعاه للمناظرة فقال له: أعود إليك غداً فقبل منه وأوصاه ألاّ يؤذي أحداً من الناس ولا يعتدي على الدماء والأموال والأعراض فخرج ولم يعد وكان مطاعاً في قومه بني ناجية وخرج معه جماعة في ظلمة الليل والتقى في طريقه برجلين وكان أحدهما يهودياً والآخر مسلماً فقتلوا المسلم وعاد اليهودي إلى عامل علي (ع) على السواد فأخبره بأمرهم فكتب العامل لأمير المؤمنين فأرسل إليهم جماعة من أصحابه وأمرهم بردهم إلى الطاعة ومناجزتهم إن رفضوا ذلك وحدثت بينه وبين الخريت وجماعته مناظرة لم تجدِ شيئاً، فطلب منهم أصحاب أمير المؤمنين أن يسلموهم قتلة المسلم فأبوا الّا الحرب وكانت بين الطرفين معارك ضارية فأرسل إليهم أمير المؤمنين قوة أخرى وكتب إلى عبد الله بن عباس وكان أميراً على البصرة يأمره بملاحقتهم والخريت مرة يدعي بأنّه يطلب بدم عثمان وأخرى ينكر على علي (ع) التحكيم وأخيراً قتل الخريت وجماعة من أصحابه وأسر منهم خمسمائة قادوهم إلى الكوفة فمر بهم الجيش على مصقلة بن هبيرة الشيباني وكان عاملاً لعلي (ع) على بعض المقاطعات فاستغاث به الأسرى فرقّ لحالهم كما تزعم بعض الروايات واشتراهم من القائد على أن يسدد أثمانهم أقساطاً وأعتقهم وجعل يماطل في أداء ما عليه ولما طالبه عبد الله بن عباس بأداء المبلغ أجابه: لو طلبت هذا المبلغ وأكثر منه من عثمان ما منعني إياه ثم هرب إلى معاوية فاستقبله استقبال الفاتحين وأعطاه ما يريد وطمع مصقلة أن يستجلب أخاه نعيم بن هبيرة إلى جانب معاوية فأرسل إليه رسالة مع رجل من نصارى تغلب كان يتجسس لصالح معاوية ولم يكد يبلغ الكوفة حتى ظهر أمره فأخذه أصحاب أمير المؤمنين وقطعوا يده إلى كثير من أمثال هذه الحوادث

التي تدين المتمردين ومن كان يعاونهم بالتآمر وإشاعة الفوضى في جميع أطراف الدولة لاستنزاف قوة الإمام في الداخل وليكن في شغل عن معاوية وتصرفاته ومن غير البعيد أن يكون مصقلة الشيباني على صلة بالمتمردين، وأن حرصه على تخليصهم من الأسر لقاء مبلغ من المال يعجز عن دفعه لم يكن بدافع إنساني كما يبدو ذلك لأول نظرة في حادثة من هذا النوع، بل كان بدافع الإحساس بمسؤوليته عن فئة كان يشترك معها في الهدف والغاية ويمنيها بالمساعدة عندما تدعو الحاجة، وقد لقي من معاوية هذا الترحيب لأنّه اشترك في الفساد والفوضى وساعد المخربين الذين جرعوا علياً الغصص وأرهقوه من أمره عسراً وكانوا إلى ابن هند فرجاً ومخرجاً.... أمّا أمير المؤمنين (ع) فلم يزد حين بلغه فرار مصقلة إلى الشام على أن قال: ما له قاتله الله فعل فعل الأحرار وفرّ فرار العبيد وأمر بداره فهدمت. وقد أتيح لمعاوية في ذلك الجو الذي ساد العراق في الداخل أن يتحرك من ناحيته على القرى والمدن المتاخمة لحدود الشام فيقتل وينهب وينكل بقوات المخافر المرابطة على الحدود بدون رادع من أحد ووازع من دين وأمير المؤمنين (ع) يدعوا أهل العراق لنجدة إخوانهم وملاحقة المعتدين فلا يجد منهم ما يرضيه، وأغارت قوات معاوية على الحجاز واليمن بقيادة بسر بن أرطاة وأوصاه باستعمال كل ما من شأنه إشاعة الفوضى وبث الخوف والرعب في تلك البلاد فمضى ابن أرطاة ينفذ أمر معاوية فأسرف في الاستخفاف بالدماء والحرمات والأعراض والأموال في طريقه إلى المدينة ولما بلغ المدينة قابل أهلها بكل أنواع الإساءة والقسوة فقتل فيها عدداً كبيراً واضطرهم إلى بيعة معاوية وكانت أخباره قد انتهت إلى اليمن فانتشر فيها الخوف والرعب وفرّ منها عامل أمير المؤمنين عبيد الله بن العباس ولما دخلها أسرف في القتل والنهب والتخريب ووجد طفلين صغيرين لعبيد الله بن العباس فذبحهما في حضن أمهما فأصابها خلل في عقلها وظلت تندبهما وتبكيهما حتى ماتت غماً وكمداً وجهّز جيشاً آخر لغزو مصر ليحقق لابن العاص أمنيته الغالية وولاه قيادة ذلك الجيش ولما بلغ أمير المؤمنين دعا أهل الكوفة لنجدة إخوانهم في مصر فلم يستجيبوا لطلبه وبعد أن ألحّ عليهم أجابه جماعة منهم

وما لبث أن جاءته الأنباء بأنّ ابن العاص قد تغلب عليها وقتل واليها محمد بن أبي بكر ومثّل به ثم أحرقه فانتدب مالك بن الحارث الأشتر وولاه عليها لإنقاذها من أيدي الغزاة وكان كما يصفه المؤرخون قوياً مخلصاً لأمير المؤمنين كما كان أمير المؤمنين لرسول الله على حد وصف الإمام وغيره له، ولما بلغ معاوية نبأ اختياره حاكماً في مصر اضطرب واشتد خوفه على أنصاره وقواته المرابطة فيها. واستطاع بعد تفكير طويل أن يجد المخرج من تلك الأزمة التي أحاطت به فأغرى أحد أنصاره - ممن يسكنون الطريق التي لا بدّ للأشتر من المرور عليها - بالمال لقاء اغتياله، ولما بلغ الأشتر ذلك المكان ونزل فيه جاءه بعسل مسموم كان قد أعدّه له بناء لتخطيط معاوية فكانت به نهايته وكان ناجحاً في التخلص من أخصامه بهذا الأسلوب فقد قتل ابن خاله محمد بن أبي حذيفة وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص والإمام أبا محمد الحسن بهذا الأسلوب، وأحياناً كان يتباهى به ويقول: إنَّ لله جنداً من العسل ينتقم به لأوليائه....

وتوالت الأحداث في داخل العراق والبلاد التي كانت تخضع لسلطة أمير المؤمنين فلم يكن يفرغ من تمرد حتى يفاجأ بآخر ولا يسد ثغرة الّا فتحت له أخرى حتى طمع فيه معاوية إلى حدود الاستخفاف، هذا وأصحابه بالرغم مما يجري حولهم وعلى حدود بلادهم وفي خارجها من احتلال لبعض المقاطعات وقتل ونهب ممعنون في خلافه مفرقون فيما أحبوا من طلب العاقبة إذا استنفرهم لا ينفرون وإذا دعاهم لا يجيبون يتعللون بالأعذار الواهية كحر الصيف وبرد الشتاء، ولا يغضبون لحق ودين. ولا للمشردين والمستضعفين حتى كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل ويبكي أحياناً على من مضى من أنصاره ويقول: متى يبعث أشقاها فيخضب هذه من هذه مشيراً إلى رأسه الكريم ولحيته الشريفة ويتمنى لو أنّ معاوية صارفه فيهم صرف الدينار بالدرهم فأخذ منه عشرة وأعطاه واحداً من أهل الشام ووطن نفسه أخيراً أن يخرج لحرب معاوية بمن هم على رأيه من أهله وعشيرته وأنصاره فيقاتل بهم حتى يلقى الله في سبيل الحق والعدل وتحدث إليهم حديثاً لا لبس فيه وحمّلهم تبعات ما سينجم عن تخاذلهم كما جاء في رواية البلاذري في أنساب الأشراف.

(إما أني قد سئمت من عتابكم وخطابكم فبينوا لي ما أنتم فاعلون فإن كنتم شاخصين معي إلى عدوي فهو ما أطلب وما أحب وإن كنتم غير فاعلين فاكشفوا لي عن أمركم، فوالله لئن لم تخرجوا معي بأجمعكم إلى عدوكم فتقاتلوه حتى يحكم الله بيننا وبينه وهو خير الحاكمين لأدعونّ الله عليكم ثم لأسيرنّ على عدوكم ولو لم يكن معي الّا عشرة، ومضى يقول: أجلاف أهل الشام اصبر على نصرة الضلال وأشدا جماعاً على الباطل منكم على هواكم وحقكم ما بالكم وما دواؤكم إنّ القوم أمثالكم لا ينشرون إن قتلوا إلى يوم القيامة.... وكان على ما يبدو لهذا الموقف الحازم منه أثره في نفوس القوم بعد أن أيقنوا بأنه سيخرج بنفسه وأهله وخاصته إلى معاوية وسيلحقهم بذلك الخزي والعار ويصبحون حديث الأجيال إذا هم خذلوه وتركوه يخرج على هذا الحال فرد عليه زعماؤهم رداً جميلاً وجمع كل رئيس منهم قومه وتداعوا إلى الجهاد من كل جانب وتعاقدوا على الموت معه، حتى أصبحت الحرب حديث الناس، وأرسل إلى عماله في مختلف المناطق يدعوهم للاشتراك معه بمن عندهم من الجيوش والمقاتلين، وخرج الناس إلى معسكراتهم في النخيلة ينتظرون انسلاخ شهر رمضان من سنة أربعين لهجرة النبي (ص)، وأرسل أمير المؤمنين زياد بن حفصة في جماعة من أصحابه طليعة بين يديه، وبقي هو مع الجيش ينتظر انسلاخ الشهر المبارك، وإذا بالقدر ينقض عليه، وعلى أهل العراق فيكمن له عبد الرحمن بن ملجم في فجر اليوم التاسع عشر من ذلك الشهر وهو في بيت الله فيضربه على رأسه الشريف وهو يصلي لربه فيخر منها في محرابه وهو يقول: (فزت ورب الكعبة).



سقوط المثل الأعلى

في شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة، وبينما كان أمير المؤمنين يجاهد ويكابد ليحمل أصحابه على مناصرة الحق والمستضعفين وحرب البغاة وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان ويعدهم لهذه الغاية إعداداً سليماً ويبعث فرقاً من جيشه إلى هنا وهناك لرصد الغارات التي كان يشنها ابن أبي سفيان على أطراف العراق والحجاز واليمن، وفي الوقت ذاته يجاهد عماله ليحملهم على الحق الواضح ويأخذهم بالأمانة في أعمالهم وعدم التفريط بأبسط الحقوق والواجبات، بينما كان في هذا كله وإذا به يسقط صريعاً في بيت الله بسيف ابن ملجم المرادي نتيجة لمؤامرة ذهب أكثر المؤرخين أنها وضعت في مكة المكرمة وفي موسم الحج بالذات واشترك فيها ثلاثة من الخوارج عبد الرحمن ابن ملجم المرادي والحجاج بن عبد الله الصريمي المعروف بالبرك وعمرو بن بكر التميمي وقيل: إن الثالث كان من الموالي يدعى زادوية مولى بني العنبر بن عمرو بن تميم جمعتهم الصدف، أو أنهم خططوا للاجتماع في موسم الحج وتذاكروا أمور المسلمين وما آلت إليه من الخلاف والشقاق والفساد واتفقوا في الرأي على أنَّ الأمة لا يمكن لها أن ترتاح بما تعانيه من الفوضى والفساد والخلاف ما دام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص على قيد الحياة وتعاقدوا على قتلهم فاختار ابن ملجم قتل علي بن أبي طالب واختار الحجاج بن عبد الله قتل معاوية، واختار الثالث ابن العاص وتواعدوا صبيحة اليوم التاسع عشر أو السابع عشر من شهر رمضان لتنفيذ ما تعاقدوا عليه على أن يتم التنفيذ في الأقطار الثلاثة في ساعة واحدة...

وما ذكره اليعقوبي من أنَّ عبد الرحمن بن ملجم دخل الكوفة في العشرين من شعبان، وقيل أنّ الأشعث بن قيس الكندي هو الذي دبر المؤامرة على حياة أمير المؤمنين (ع) واتفق مع ابن ملجم على تنفيذها وكان عداده في كنده على حد تعبير الرواة، ويعتمد أصحاب هذا الرأي في جملة ما يعتمدون عليه على ما وراه أبو الفرج الأصفهاني عن محمد بن الحسن، أنَّ الأشعث بن قيس دخل على أمير المؤمنين فكلمه في أمر فأغلظ له علي (ع) فعرض له الأشعث بن قيس في أنّه سيفتك به فقال له أمير المؤمنين (ع): (أبالموت تخوفني وتهددني فوالله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت عليَّ).

وجاء في رواية ثانية: أنّ الأشعثُ بن قيس في الليلة التي قتل فيها أمير المؤمنين خلا بابن ملجم في بعض نواحي المسجد ومرَّ بهما حجر بن عدي فسمع الأشعث يقول له: النجاة النجاة بحاجتك قد فضحك الصبح. فقال له حجر بن عدي: قتلته يا أعور ومضى مسرعاً إلى أمير المؤمنين فوجد ابن ملجم قد سبقه إليه وضربه بالسيف على رأسه وهو في محرابه، وأصحاب هذا الرأي أكثر ما يعتمدون عليه تلك المواقف العدائية التي كان يقفها ابن الأشعث مع أمير المؤمنين كما أشرنا إلى بعضها خلال حديثنا عن التحكيم ونتائجه.... وقيل أنّ المؤامرة تمت بين ابن ملجم ومعاوية بن أبي سفيان. ونقل هذا الرأي (فلهوزن) في كتابه تاريخ الدول العربية عن الطبري. وأيد جماعة هذا القول بالأبيات التي خاطب بها الأسود الدؤلي معاوية بعد تنفيذ المؤامرة وفيها يقول:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا ... وذللها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ... ومن قرأ المثاني والمبينا

والبيتان الثاني والثالث قد أسند فيهما الجريمة لمعاوية وحزبه مباشرة ولو كان من فعل الخوارج لم يكن لاسنادها لمعاوية وجه مقبول....

ويبدو من حديث الأستاذ أحمد عباس صالح في كتابه اليمين واليسار في الإسلام عن جريمة اغتيال ابن ملجم لأمير المؤمنين أنه قد خرج منه وهو مقتنع بأنّ الجريمة من تدبير معاوية حيث قال متسائلاً: لماذا نجحت خطة الاغتيال بالنسبة إلى علي بن أبي طالب ولم تنجح مع عمر بن العاص ومعاوية.

ومضى يقول: بأنّ الجريمة هنا مدبرة بإحكام شديد يفوق أي جريمة أخرى، فقد رتبت ببراعة مستفيدة من كل الظروف... وانتهى إلى القول: بأنّه ليس هناك شك في أنّ حقيقة الجريمة قد عرفت في حينها وأنّ الشعب كان يعلم بها أو على الأقل يشك في وقوعها فهناك رجال كثيرون قد أفصحوا عن هذا، بل منهم من جهر بها أمام الناس وعلى رأسهم رجل من خيرة المسلمين وفي مقدمة صفوفهم هو أبو الأسود الدؤلي... وفي حدود هذه الاحتمالات الثلاثة تناول الباحثون القدامى والمحدثون جريمة الاغتيال التي نفذها ابن ملجم المرادي وفشل رفيقاه في تنفيذها بعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وقد أخذ أكثر المؤرخين والمحدثين بالرأي الأول بدون تمحيص للمرويات ولا دراسة للظروف والملابسات والأحداث التي رافقت خلافة الإمام (ع) والذي أراه أنّ التخطيط للجريمة إذا صح أنّه كان في موسم الحج وفي مكة بالذات كما تزعم أكثر المرويات ورجحه أكثر المحدثين والمؤرخين وأنّ الثلاثة تواعدوا على تنفيذها في مصر والشام والعراق في ليلة واحدة بل وفي الساعة الأولى من اليوم التاسع عشر أو السابع عشر من شهر رمضان ومعنى ذلك أنّ بين التخطيط لها وتنفيذها عشرة أشهر تقريباً.

لو افترضنا صحة ذلك وإن كان عندي أكثر من مرجح لبطلان هذا الافتراض، لو افترضنا ذلك فليس يبعيد أن يكون التخطيط لها قد تم بالاتفاق مع ابن العاص وابن الزبير وغيرهما من الطامعين في الخلافة على أن يتم التنفيذ بالإمام علي (ع) ومعاوية ليخلو الجو لغيرهما، ولذا فإن ابن العاص لم يخرج في تلك الليلة بالذات دون غيرها من سائر الليالي، وبلا شك فلقد كان يطمع بها وقد حاول مع الأشعري في دومة الجندل على أن تكون له أو لولده عبد الله كما تشير إلى ذلك بعض المرويات. وليس ذلك بغريب ولا يبعيد عليه

وتمت صياغة المؤامرة بهذا الشكل حتى لا يتهم هو أو غيره، ولا أحسب أن أحداً يلم بتاريخه وتاريخ ابن الزبير وبتلك الفترة من تاريخ المسلمين وما فيها من أحداث يستبعد عليهما وعلى غيرهما من ذوي الأطماع ذلك....

ولكن الباحث لا يجد فيما بأيدينا من المصادر دليلاً على التخطيط للمؤامرة بهذا النحو ولا بالنحو الذي يعتمده أكثر المؤرخين ذلك لأنّ المؤامرة كما يدعيها المؤرخون بجميع حلقاتها تدعوا إلى الاستغراب والتساؤل لأنّ اجتماع ثلاثة في موسم الحج ليسوا من قادة الخوارج ولا من المعروفين فيهم ولا تجمعهم قبيلة واحدة أو قطر واحد - على أمر عظيم من هذا النوع بعيد وغريب في نوعه ولماذا التأخير في التنفيذ من موسم الحج إلى أواخر رمضان من السنة الثانية ولماذا تخلف ابن العاص في تلك الليلة واستناب غيره ليصلي بالناس ولماذا خرج معاوية دارعاً للصلاة في تلك الليلة - كما نسب ذلك الأستاذ أحمد عباس لبعض الرويات - مع أنّ ذلك من غير المألوف في الصلاة والروايات التي تنص على أنّه أصيب متفقة على أنّ إصابته كانت طفيفة وليست شيئاً، مع أنّ جماعة من الكتاب يشكك بها وبعضهم يجزم بكذبها وإذا كانت المؤامرة بين ثلاثة من الخوارج في مكة، فلماذا استعان ابن ملجم بشبيب بن بجران، ووردان بن مجالد، ولماذا كان الأشعث متحمساً للفتك بأمير المؤمنين، كل هذه التساؤلات تثير أكثر من الشك فيما تبنّاه الجمهور الأعظم من المؤرخين......

فلم يبق أقرب إلى منطق الأحداث وملابساتها إلا الرأي القائل بأنّ اغتيال أمير المؤمنين كان نتيجة لمؤامرة دبرها معاوية وابن العاص بالاتفاق مع الأشعث ابن قيس في الكوفة وغيره من الخونة بعد أن أيقن أنّ الإمام (ع) صائر إليه بأهل العراق. ولا تنجيه منه هذه المرة جميع المكائد والمحاولات مهما كان نوعها. كما ترجح ذلك المرويات التي تنص على أنّ الأشعث قد هدد أمير المؤمنين بالقتل، وأنّ ابن ملجم أقام شهراً بالكوفة عند الأشعث كما في تاريخ اليعقوبي، وأنّه في تلك الليلة قال له النجاة لحاجتك قد فضحك الصبح....

وقد ذكرنا أنّ كل ما حدث بعد رجوع الإمام من صفين كان من حلقات المؤامرة التي ابتدأت برفع المصاحف في صفين وتوالت بعد ذلك حتى انتهت بمصرع الإمام بذلك النحو من الصياغة التي دبرت ببراعة واتقان. وأبيات أبي الأسود تشير إلى أنّ ذلك لم يكن خافياً يوم ذاك ولذلك خاطب معاوية بها وأسند القتل إليه....

ومهما كان الحال فقد جاء في رواية أبي الفرج عن أبي مخنف عن عبد الله ابن محمد الأزدي أنه قال: إني لأصلي في تلك الليلة بالمسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر كانوا يصلون في ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره إذ نظرت إلى رجال يصلون قريباً من السدة قيامة وركوعاً لا يسأمون إذ خرج عليهم علي بن أبي طالب عند الفجر فأقبل ينادي الصلاة الصلاة وبعدها رأيت بريق السيف وسمعت قائلاً يقول: لله لا لك يا علي.

ثم رأيت بريق سيف آخر وسمعت علياً يقول: لا يفوتنكم الرجل، وكان الأشعث قال لابن ملجم النجاة لحاجتك قبل أن يفضحك الفجر.... وقال أبو الفرج: فأمّا بريق السيف الأول فإنّه كان شبيب بن بجرة وقد ضربه فأخطأه ووقعت ضربته في الطاق وأمّا بريق السيف الثاني فإنّه ابن ملجم ضربه على رأسه فأثبت الضربة في وسط رأسه، وأكثر الروايات تنص على أنه ضربه بعد أن رفع رأسه من السجود ومضى الراوي يقول: فشد الناس عليهما من كل جانب، أمّا ابن ملجم فقد قبض عليه المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وصرعه وأخذ السيف منه وأمّا شبيب بن بجيرة فقد أخذه رجل وصرعه وجلس على صدره ليقتله بسيفه، ولما رأى الناس يشدون عليه من كل جانب خشي أن يصيبوه فوثب عن صدره ففر هارباً حتى أتى منزله فجاءه ابن عم له فوجده يحل الحرير عن يده فقال له: ما شأنك لعلك قتلت أمير المؤمنين فأراد أن يقول لا فقال: نعم فخرج وأتى بسيفه وقتله وأدخل الناس ابن ملجم على أمير المؤمنين، فقال عبد الله بن محمد الأزدي : فدخلت فيمن دخل فسمعت أمير المؤمنين يقول: النفس بالنفس إن مت فاقتلوه كما قتلني وإذ سلمت رأيت فيه رأيي فقال ابن ملجم: لقد اشتريته بألف وسممته بألف فإن

خانني فأبعده الله، وأحدق الناس بابن ملجم يحاولون أن ينهشوا لحمه بأسنانهم وتعالت الأصوات بالبكاء والنحيب من كل جانب وأصيب أهل الكوفة بالذهول والدهشة لذلك الحادث الجلل، وهم يقولون: يا عدو الله ماذا صنعت لقد أهلكت أمة محمد وقتلت خير الناس وهو صامت لا يتكلم....

ثم جمعوا له أطباء أهل الكوفة وكان أعلمهم بالطب والجراحة أثير بن عمرو بن هاني، فلما وقف أثير على جرح أمير المؤمنين قال: والغصة في قلبه وصوته يتهدج: اعهد عهدك يا أمير المؤمنين فإن ضربة اللعين قد وصلت أم رأسك فلم يتأفف ولم يتضجر من ذلك، وجمع ولده وأوصاهم بالاعتصام بحبل الله وما جاء به الإسلام من مكارم الأخلاق والأحسان إلى الفقراء والمساكين، وجاء في وصيته: الله الله في الفقراء والمساكين فاشركوهم في معايشكم، الله الله في ما ملكت أيمانكم فإنّ رسول الله في آخر ما أوصى به قال: أوصيكم بالضعيفين مما ملكت أيمانكم ومضى يقول: قولوا للناس قولاً حسناً كما أمركم الله ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيتولى ذلك غيركم، وتدعون فلا يستجاب لكم، وعليكم بالتواضع والتباذل وإياكم والتقاطع والتفرق وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدان. إلى غير ذلك مما كان يحرص أن يجمع الناس عليه طيلة حياته...

وظل يكابد الألم من تلك الضربة حتى قضى نحبه في ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان شهيد الحق والعظمةوالعدالة تاركاً وراءه أروع الأمثلة من البطولات والتضحيات والاستخفاف بالدنيا وأمتعتها وعشاقها وقضى وهو يخاطب الدنيا وخيراتها التي كانت تحت قدميه: يا دنيا غري غيري فقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك لقد خرج من هذه الدنيا من بيت الله كما دخلها من بيت الله تاركاً الحسن والحسين وزينب والذرية الطاهرة بين يدي خصمه - في الله - معاوية بن أبي سفيان ومن تلاه من أولئك الحكام يمزقهم الألم ويقسوا عليهم الزمن في سلسلة من المآسي لم تعرف البشرية أشد هولاً منها ولا أقسى في تاريخها الطويل وحلت على أخصامه لعنة الله ولعنة اللاعنين من يوم ولدوا وماتوا إلى يوم الدين......

الآن وبعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة فلنتوقف لنرى نتائج انقلاب السقيفة بصورة مجملة بعد أن تكلمنا في هذا الكتاب بصورة تفصيلية. من النتائج التي حصدناها من انقلاب السقيفة افتراق كلمة الأمة وتضاؤل أمرها وضعف إيمانها بمبادئها، وكانت من نتائج الانقلاب أيضاً وصول الحكم إلى أيدي الأمويين المعروفين بعداوتهم السابقة واللاحقة للإسلام والمسلمين حتى كانت مجزرة كربلاء وإباحة المدينة المنورة وتهديم الكعبة المكرمة....

كما كان من نتائجه تبدل النفسية الإسلامية وتغيرها تغيراً تاماً في العصر الأموي - الذي أسسه أبو بكر الصديق ورسخ قواعده عمر الفاروق - بتوليتهما لبني أمية المناصب العالية وفسح المجال لهم لكي يلعبوا كيفما شاؤوا بمقدرات المسلمين وتنصيب زعيمهم عثمان وإطلاق يد طاغيتهم معاوية بالشام....

ثم كان من نتيجة الإنقلاب تلك العصور السوداء التي تلتها إلى المروانية والعباسية وما جرى مجراهم إلى عصرنا الحاضر وإلى الأبد....

كل ذلك في عنق أصحاب الانقلاب في السقيفة ومن ساعدهم وساندهم إلى يومنا هذا ولم يبق من المبادئ الإسلامية إلّا الناحية الشكلية إذ بعدت النفوس عن كل ما هو جوهري فيه حقيقة الإسلام وأصبح المسلم ينطق كلمة التوحيد - لا إله الّا الله - بلسانه وقد جعل في قلبه ألف شريك ومعبود بل لم يبق لله من العبادة إلّا تلك الطقوس الشكلية التي يأتي بها بدافع الآلية والعادة.....

ومن جملة نتائج انقلاب السقيفة قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وسواه من أصحابه الشهداء والصديقين، وقد كان قتل سيدنا علي (ع) نتيجة من نتائج نشوء حرب الخوارج الذي نشأ عن قضية التحكيم التي ختمت بها حرب صفين وجاءت ذيلاً من ذيولها. وأسباب حرب صفين تتلخص في تأمير معاوية على الشام شطراً من خلافة عمر بن الخطاب وطيلة أيام عثمان ذلك التأمير المطلق الذي منحه إياه الفاروق ليصبح لديه القوة الكافية لمقاومة إمام

الحق الذي آلى ابن الخطاب الّا أن يكافحه - حياً وميتاً - حتى لا يصل إلى منصبه الذي اختصه الله ورسوله به دون سواه....

والفاروق هو الذي أسس دولة بني أمية ومكّن لمعاوية الأموي المناوئ الأول هو وأبوه من قبل للحق وأهله في الجاهلية والإسلام....

ومن نتائج خلافة الصديق والفاروق كان قتل عثمان بن عفان وانقسام المسلمين واضطراب حبلهم - الذي أحكم شده رسول الله (ص) - في أيام خلافته والذي ساعد على توجيه تهمة التآمر على سيدنا علي (ع) من طاغية زمانه معاوية وعائشة وطلحة والزبير فكانت حرب الجمل وصفين وما تتالى بعد ذلك من المصائب والويلات....

ولا نغالي إذا قلنا أنَّ قتل الحسين وأصحابه المخلصين كان من نتائج تأمير معاوية ووصوله إلى الحكم وأسبابه تتصل بتلك الأسباب الأولية من يوم إنقلاب السقيفة....

إلى ما سوى ذلك من أوضاع شاذة عن المنهج الإسلامي....

ولا يشك أي عاقل منصف في أنّه لو وصلت الخلافة إلى صاحبها الشرعي سيدنا علي (ع) لتجنبنا كل هذه المصائب والويلات ولما رأينا كل هذه الحروب التي جرت في العالم الإسلامي.....

فلو جاء إلى الحكم بعد النبي (ص) علي المحافظ على كل مبادئ القرآن والرسول لو ترأس الحكومة وامتدت أيام حكمه بعد الرسول إلى ما يزيد عن ثلاثين سنة بصرف النظر عن أنّه لو كان أول خليفة لما قتل غيلة بسيف عبد الرحمن بن ملجم بل لما وجدت أصلاً أحزاب ولا خوارج ولما طمع أو أمل مخلوق سوى علي وأهل بيته المعصومين في نيل هذا المنصب الإلهي لأنّه لا مثيل لهم حتى يحدث نفسه أو تدعوه أطماعه إلى التفكير بنيل الخلافة مع وجود من لا مثيل له في الوجود من جميع جهاته ونواحيه، ولكانت الأمور قد استقرت في المملكة الإسلامية ورسخت المبادئ في النفوس واعتاد المسلمون على الرضوخ للحق وأهله وتقديسهم له. ولتقدم الإسلام إلى الأمام بخطوة

ثابتة متزنة كما يريده الله ورسوله (ص) ويكون خلاف التقدم الذي حصل في زمان أهل السقيفة الذي كان تقدماً صورياً جغرافياً لا غير كبقية الفتوحات الأجنبية عن الدين والإسلام حتى أنهم شوهوا حقائق الإسلام وعدله المستقيم بظلمهم وجورهم الأثيم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.... وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.



فهرس

